حنفى المحلاوى



عبدالناصر وأم كلثوم

علاقة خاصة جدًا

عبد الناصر وأم كلثوم

علاقة خاصة جداً

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

رقم الإيداع ٩٦٩٢ لسنة ١٩٩١

الناشر

مركز القادة للكتاب والنشر

تليفون : ٧٣٥٦٥٥

حنفى المحلاوى



عبد الناصر وأم كلثوم

علاقة خاصة جداً

مركز القادة للكتاب والنشر

رسالة من الناشر

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

« صدق الله العظيم » .

إعمالاً لغاية عزيزة ، هى خدمة القارىء فى مصر والعالم العربى ، بتوفير أهم منابع الفكر والثقافة ممثلةً فى إصدارات من الكتب القيمة فى مختلف المجالات « علمية ، ثقافية ، دينية ، أدبية ، فنية » ، نهض **مركز القادة للكتاب والنشر** على عاتق مجموعة من المشتغلين بالفكر والثقافة ليضطلع بهذا الدور الحيوى عن قناعة به وبأهميته لمجتمعاتنا العربية وهى فى سبيلها للّحاق بركب الحضارة والتقدم .

لقد أثبتت الدورات الطبيعية للحياة أن سباقاً قائماً منذ القدم منشوده الحضارة والتحضر ، وأن الوسيلة العملية والواقعية لبلوغ الأمم غاياتها من الإستباق كانت وستظل المنهج العلمى وإحراز ثقافات راقية بمستوى العصر ، تتفاعل مع متطلبات المنافسة العصرية ، وتقدم أدواتها من نتاج فكرها ، ومن ثم فلا عجب فى أن نرصد فارقاً زمنياً يساوى عشرات السنين بقياس التحضر بين أُمَّة وأخرى تعيشان الزمن الواحد ، فغيابُ المنهجين العلمى والثقافى لدى أُمَّة يخلق فراغات من الجهل والخمول تبتلعها فتغيِّبها عن المنافسة وتستبقيها عند زمن فائت ! .

فإن كان شمال العالم قد سبق جنوبه بعشرات من سنين الحضارة والتقدم العلمى والتكنولوجى ، فإن ذلك قد حدث من استيعاب أهل الشمال لتجربة الجنوب القديمة الذى سبقهم أخذاً بالمنهج العلمى وحقق التقدم عليهم ولم يكن

محض استيعاب ، وإعمالاً لهذا الفهم تم السطو من قِبَلِهم على علوم الجنوب وثقافاته ونقلها إلى الشمال حتى تقلّص الدور الحضارى لأهل الجنوب أمام إرتقاء أهل الشمال واستمساكهم بموقع الصدارة والسيادة .

إن نهب وإحراق مكتبة الإسكندرية قديماً إنما هو إبراز لهذا الفهم الشمالى لخطورة العلم والوعى والثقافة إذا ما ظل ينهل منها أهل الجنوب « أصحابها » ! .. ولكننا لم نفق على هذه الحقيقة إلا بعد أن تمت دورة انتقال التقدم والسبق إليهم .

غير أن هذا لا يعنى بأى حال أن تتمّة دورة الحياة قد حدثت ، فمازال ركب الحياة يستوعب ويرحب بالمتنافسين على إحراز أدوات الرقى ، ومن ثم التقدم والتحضر ، ومازالت الصورة الحضارية تترك مساحة واضحة يشغلها عربى من أهل الجنوب يطالع كتاباً فى وسيلة انتقاله من مكان لآخر كنظيره الفرنسى أو الألمانى ، ومازال أهل الشمال بكل وسائلهم الاستعمارية عاجزين عن أن يمنعوا جنوبياً واحداً عن النهل من علومه القديمة وعلومهم الحديثة ، فالأمر معلق بالإرادة وحدها .

من هذا المنظور إجترفنا تيار الرغبة فى تقديم عمل نافع من خلال **مركز القادة للكتاب والنشر** . حقيقة أننا لا نغفل عامل استثمار المال ، ولكننا نوازن قدر استطاعتنا بين استثمار المال لدوام مشروعنا وبين استثمار الفكر لصالح أبناء أمّتنا والأجيال القادمة ، ذلك من خلال العناية بإبداع الكاتب وحرية الفكر والتعبير عن الرأى ، ومن ثم معالجة الموضوعات الحيوية الهامة بصورة إيجابية واقعية وبرؤية تتسم بالعمق والوضوح ، كذا الاعتناء بإخراج الكتاب مادة وطباعة وإخراجاً .

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

والله ولى التوفيق

الناشــــر

المحتويات

قبـــل ان تقـــرأ

قد نتفق أو نختلف على مفهوم الزعامة ، مثلما اختلف واتفق غيرنا من العلماء والمفكرين .. هذا الاختلاف لا يقلل من قيمة حديثنا القادم ، وإنما وكما قال غيرنا : « إن الاختلاف فى الرأى لا يفسد قضايا الفكر ، بل هو طريق تعميق هذه القضايا ، لأن الاختلاف يؤدى إلى المزيد من البحث ، أملا فى الوصول إلى الحقيقة ، أو الرأى الأصوب » ..

وحين نعود لحديث الزعامة ومدلولاتها اللغوية .. نجد أن احدى الصفات المشتركه لمفهوم الزعامة ، والتى لا يمكن أن يختلف عليها اثنان .. هى صفة قوة التأثير فى الجماهير .. أو بمعنى آخر هى امكانيات القبول والتأثير المباشر التى يملكها هذا الشخص أو ذاك فيمن حوله ..

وقد يتدرج هذا المفهوم وفقا للمحيط الذى يتعامل من خلاله هذا الشخص أو ذاك .. معنى ذلك أن كل شخص ما يستطيع أن يكون زعيما فى مجال عمله .. فقط يمتلك أولا صفة القبول والتأثير فيمن حوله .. وأعيد وأكرر أن هذه ليست الصفة الوحيدة ، بل هناك العديد من الصفات والمكونات الشخصية التى يتفق ويختلف حولها المفكرون والمهتمون بقضايا الإنسان ..

ونتساءل قبل أن يتساءل غيرنا .. لماذا هذا الحديث .. عن الزعامة وضرورة البحث عن مفهومها الصحيح ؟..

نقول .. إننا بصدد الحديث عن زعيمين مصريين وعربيين ، يختلفان كل الاختلاف فى الطبع والمهمة التكوين ، بل وحتى نوع الجنس .. وقد يترك حديثنا القادم نوع من التأثير الغريب على كل من يقرأه .. بل نتوقع أنه سوف يثير غضب البعض .. ولكن من المؤكد أنه سوف يثير تأييد قطاع عريض من المهتمين بسير الزعماء ، خاصة ونحن لانتحدث عن زعامات هشة .. بل زعامات أدت دورها بكل شرف وأعطت للجماهير

كل الحب .. إن حديث الزعامة القادم هو حديث من القلب إلى ذكرى الزعيمين .. عبد الناصر وأم كلثوم ..

* * *

وحين تصدينا لحديث هذا الموضوع الجديد والغريب .. كان علينا أن نستعرض بعض المفاهيم .. ونعيش بعض اللقطات ونقربها للقارىء العزيز قبل أن يبدأ معنا رحلة البحث فى حياة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر قائد ثورة يوليو أو انقلاب يوليو ..

وفى حياة زعيمة الغناء العربى السيدة أم كلثوم .. وكما سبق أن أوضحنا ، وستكون آخر مرة نشير فيها إلى ما سوف نقوله الآن .. إن الزعامة التى نتحدث عنها هنا هى زعامة التأثير فى الجماهير .. لذا نعتبر أن كل من عبد الناصر وأم كلثوم زعيمين مصريين وعربيين كبيرين ..

وقد نضطر إلى أن نبدأ الحديث القادم بأم كلثوم .. لعدة اعتبارات أولها .. أننى من جيل أم كلثوم وجيل الثورة .. وحين نغوص إلى أعماق الزمان .. هناك فى البلد الحبيب الذى ولدنا على أرضه فى رحاب الجامع الحنفى .. نجد أننا قد فتحنا عيون المشاعر والحب والعاطفة على صوت أم كلثوم .. وكلمات تدخل من الأذن وتعيش داخل القلب أياما وشهورا طويلة .. نحاول أن نبحث عن نبع هذا الحب الذى طويلا ما حدثتنا عنه أم كلثوم وغنت وشدت ، وملأت أسماع الليل البارد والساخن .. وقولها « الحب كده » ..

ونحن كذلك من جيل الثورة ، ولكن لم نفطن إلى ذلك إلا ونحن شبابا .. حين أخذوا يعايروننا بأنه لولا ما فعلته الثورة لما دخل العديد من شباب جيلنا المدارس أو الجامعات « ونحن هنا أيضا لسنا فى مجال مناقشة هذا الرأى لمعرفة خطأه من صوابه » ..

على أية حال .. إن الرأى عندنا إننا وشباب كثيرون بالفعل من جيل أم كلثوم .. لأنه حقيقة غير قابلة للجدل .. أما جيل الثورة فما زال الكلام عنه لم ينته بعد ..

* * *

لقد جرنا حديث الزعامة إلى البحث فى قواميس اللغة العربية ودوائر المعارف عن

مفهوم لفظ الزعامة ومدلولاته .. ومعانيه .. حتى يكون الحديث به بعض حالات التوثيق .. والحقيقة أننا بحثنا عن معنى الزعامة فى دوائر المعارف وقواميس اللغة لم يسعفنا كثيرا .. وإنما وجدنا ضالتنا فى بعض الكتب ولكنها للأسف لا تحدثنا عن الزعامة بالمفهوم العام .. بل وجدنا حديثا هاما عن الزعامة السياسية بمفاهيمها المختلفة التى أشرنا من قبل إلى اختلاف واتفاق المشتغلين بالعلوم الاجتماعية حولها .. إنه مفهوم قوة التأثير فى الجماهير .. ومع ذلك وجدنا من باب العلم بالشيء أن نورد هذه المعانى لغويا .. ومنقولة حرفيا من معجم « المنجد » الذى يقول واضعه تحت حرف « ز » :

- **تزعم القوم** : صار لهم زعيما ..
- **الزعيم** : جمع زعماء أى السيد أو الرئيس ..
- **الزعامة** : الشرف أو الرئاسة ..
- **الزعم والزعامة** : اسم منه ــ أزعم المال : كفله به ..
- **تزاعم القوم على الأمر** : تضافروا عليه ..
- **الزعيم جمع زعماء** : الكفيل ..

ومن أجل تأكيد صفة البحث عن هذه المدلولات اللغوية .. لجأنا إلى القاموس المحيط .. وتحت حرف « ز » جاء به فيما يخص لفظ الزعيم :

- **زعم يزعم (زعما)** الحركات الثلاث على زاى المصدر أى قال ..
- **زعم به** : كفل وبابه نصر ..
- **الزعيم** : الكفيل والزعامة أيضا السيادة : وزعيم القوم سيدهم ..

وكان بحثنا التالى قد اتجه إلى دوائر المعارف من أجل الوقوف على المعنى المتعارف عليه فى حياتنا السياسية أو الاجتماعية .. ولكننا لم نعثر عليه ، واكتفينا من أجل ذلك بما استراحت له النفس من الأخذ بالتعريف ، الذى اقتصر على قوة التأثير فى الجماهير ، لأنه يناسب تماما حديث الزعيم سواء بالنسبة لجمال عبد الناصر صاحب السحر والتأثير المجنون فيمن يسمعونه .. أو بالنسبة للسيدة أم كلثوم صاحبة الصوت الذى كان ولا يزال يجمع العرب من المحيط إلى الخليج .. إننا بالفعل أمام حياة حافلة بالأحداث والمعانى المشتركة بين عبد الناصر وأم كلثوم ..

مع الفارق الزمنى الكبير نظهور كل من عبد الناصر وأم كلثوم .. إلا أنهما قد وجدا فى مكان وزمان مشترك .. كان لهما فيه الأثر العظيم ليس فقط هنا فى مصر ، بل وفى العالم العربى والخارجى .. وسوف نعرف فيما بعد أن الزعيمان عبد الناصر ، وأم كلثوم ، كان لهما عمل مشترك وضعتهما العديد من الأحداث السياسية المصرية والعربية والمشتركة على طريق واحد . وكان لكل منهما دوره البارز فى هذه الأحداث ..

بل وسوف نعرف أيضا أن أم كلثوم كانت البلسم الشافى والصدر الحنون الذى كان يلقى فوقه عبد الناصر هموم مصر وهموم منزله .. وكثيرا ما كان يلجأ إليها ويحدثها فى أى وقت يشاء .. وكانت علاقتهما كما أكد لنا الكاتب الكبير مصطفى أمين كانت علاقة خارج المكاتب ، ولا يعرف بها سوى أسرة أم كلثوم ، وأسرة عبد الناصر فقط ..

هذه العلاقة الخاصة بين الزعيمين .. جعلتنا نعتقد أن أم كلثوم قد لعبت دورا هاما فى تاريخ مصر الحديث .. ليس بحنجرتها فقط كمغنية أو مطربة ، بل بأعمالها التى قامت بها حبا فى مصر ، وفى جمال عبد الناصر ، والأمر الذى يؤكد لدينا هذا الاعتقاد أن الأستاذ مصطفى أمين قال لنا : أن أم كلثوم قررت اعتزال الغناء فور موت جمال عبد الناصر .. رغم أن العلاقة بين الزعيمين قد بدأت بعد ثورة يوليو .. أو قبلها بقليل حين التقى عبد الناصر بأم كلثوم ، فى فيلتها الخاصة بالزمالك بعد رجوعه من حصار الفالوجا .. ولم يكن فى حسبان كل من عبد الناصر ، وأم كلثوم أن هذه العلاقة التى بدأت على مائدة الطرب قد تمتد طوال العمر .. ويظل الزعيمان جنباً إلى جنب ليشهدا فترات هامة من تاريخ مصر السياسى والاجتماعى ، حين قامت الثورة وسارعت أم كلثوم لتأييدها ومن بعدها كان ما كان من شأن استمرار هذه العلاقة حتى فرق بينهما الموت ، ورحلا عن عالمنا ، ولم يبق لهما فى داخلنا سوى الذكريات .. والكلمات والآهات وآلاف الشرائط والتسجيلات .. ومسجد عبد الناصر فى كوبرى القبة ..

* * *

ورغم أن جمال عبد الناصر زعيم سياسى سطر بأعماله العديد من التواريخ المضيئة فى حياة مصر والعالم بصرف النظر عن اخطائه .. إلا أن أم كلثوم ، وهى زعيمة من نوع آخر .. زعيمة الطرب والغناء المصرى والعربى قد تعادله فيما قدمت من أعمال فنية

فى مجالها كزعيمة للغناء والطرب ، إذا ما قيست بغيرها فى هذا الميدان ، ومدى ارتباط هذه الأعمال الفنية بخدمة وطنها المصرى والعربى .. مثلها فى ذلك مثل عبد الناصر الذى من الصعب الآن ولفترات تاريخية طويلة أن نجد من يقف معه فى صف واحد من أجل المقارنة ..

ولكن يبقى سؤالا يتعلق بتأثير عبد الناصر كزعيم سياسى فى رواج الأعمال الفنية للزعيمة الغنائية أم كلثوم .. هذا السؤال يدور حول ما قدمه جمال عبد الناصر ، وليست الثورة لانتشار أم كلثوم عربيا وعالميا ..

ولا شك أن جمال عبد الناصر له الفضل العظيم فى انتقال أم كلثوم وفنها من مصر إلى أنحاء العالم العربى .. وهذا الدور يجرنا بالتالى للحديث عما قدمه جمال عبد الناصر لمصر والعالم العربى ، حتى يصل تأثيره الجماهيرى عليهم مداه السحرى ، الذى كنا ولا زلنا نعرفه ، حين كان أكثر من مائة مليون عربى ينتظرون كلمات عبد الناصر فى المناسبات القومية ، ويلتفون حول الراديو انتظارا لانطلاق صوت جمال عبد الناصر ..

ولا نغالى حين نقول أن هذا الأنتظار قد انتقل إلى أم كلثوم .. حيث بات الشعب العربى كله ينتظر ليلة الخميس .. وآخر كلمات أم كلثوم ..

إنه تأثير جمال عبد الناصر الزعيم السياسى .. قد انتقل بأفعاله من داخل مصر إلى خارجها .. حيث يعتبر رائد التحرر من سيطرة الاستعمار .. وصاحب ضربة البداية التى أذنت برحيل كل الدول التى كانت تحتل الدول العربية ، وكان بذلك صاحب الفضل الأول فى تحرير البلاد العربية ، وعودة أراضيها إلى أهلها ..

هذه الأعمال التى ولدت فى نفوس الشعب العربى حبا عظيما لجمال عبد الناصر .. هذا الحب قد انتقل بشكل تلقائى أو ان شئت قل انقسم القلب العربى بين حب عبد الناصر وحب أم كلثوم ..

من هنا نرى أن عبد الناصر الزعيم السياسى هو الذى فتح الباب على مصراعيه كى تغزو أم كلثوم قلوب كل العرب وتتربع على عرش الزعامة الغنائية .. رغم أن أم كلثوم وكما سنرى بعد قليل كانت قبل ظهور جمال عبد الناصر وقبل قيام ثورة يوليو ، فنانة مصرية مشهورة تجالس الملوك ويطلبها للغناء الأمراء فى منازلهم وفى حفلاتهم العامة ..

وأن جمال عبد الناصر وزملاءه كانوا من محبي الاستطلاع لفن وطرب أم كلثوم ..

والدليل لدينا .. الطلب الغريب الذى حرص على تلبيته بعض الضباط المحاصرون بالفالوجا بعد عودتهم .. حيث حرصوا على الحضور إلى فيلا كوكب الشرق أم كلثوم .. وكان منهم الزعيم جمال عبد الناصر .. ورفاق حصار معركة الفالوجا ..

الفصل الأول

بين عبد الناصر ... وأم كلثوم
ولد بعدها ... ومات قبلها

المصادفة وحدها .. لعبت الدور الكبير في الحصول على هذه المعلومات .. لقد شغلنا إحساس عام بضرورة البحث عن شهادة ميلاد عبد الناصر وأم كلثوم .. من أجل التعرف على خيوط جديدة لهذا الفصل ، والبحث عن مدخل يليق بمقام وأعمال وحياة هذين الزعيمين .. والا كيف نتحدث عن هذين الهرمين الشامخين دون أن نضع أيدينا وقلوبنا على البداية .. أين كانت ؟ ومتى ؟ وعلى أى أرض وجدت ؟.. تلك هى حكاية عبد الناصر وأم كلثوم من واقع بيانات شهادات الميلاد ..

وكأنما حصلنا على كنز سليمان حين وقعت فى أيدينا هذه الشهادات .. وقرأنا ما بها من بيانات .. لأننا نعتقد أن الحديث عن الزعماء من واقع أوراق رسمية يبعدنا عن الشك ويساعدنا على قول الحقيقة ..

وكم كلفنا الحصول على هذه الأوراق ، من مشاق تمثلت فى قطع مسافات طويلة بالكيلومترات ذهابا وإيابا .. من القاهرة إلى مدينة السنبلاوين ، التابع لها قرية « طماى الزهايرة » التى ولدت بها أم كلثوم .. ثم إلى مدينة الاسكندرية حيث ولد جمال عبد الناصر .. وأخذنا فى البحث هنا وهناك ، فى الدفاتر الرسمية وغير الرسمية أملا فى

الوصول إلى تواريخ ميلاد الزعيمين من واقع الأوراق الرسمية ، وبالفعل نجحنا فى الحصول على شهادتى ميلاد الطفلين .. أم كلثوم .. وجمال عبد الناصر ..

تقول البيانات الرسمية الموجودة فى شهادة ميلاد أم كلثوم الصادرة عن وزارة الداخلية ومديرية أمن محافظة الدقهلية أن :

اسم المولود بالكامل : **أم كلثوم ابراهيم البلتاجى ..**

اسم الأب بالكامل : **ابراهيم السيد البلتاجى ..**

اسم الأم بالكامل : **(غير موجود بالبطاقة ولكننا استطعنا أن نعرفه وسوف نضعه هنا من أجل استكمال معلومة ناقصة) فاطمة الطبجى ..**

تاريخ الميلاد : **٤ من مايو عام ١٩٠٤ ..**

جهة الميلاد : **طماى الزهايرة ..**

تحريرا فى : **١٩٠٥/٣/٤ ..**

وحتى لا نغفل ذكر أى صاحب فضل فى العثور على هذه الشهادة .. فقد عثرنا عليها فى متحف أم كلثوم الذى أقيم بأسمها فى مدينة السنبلاوين ــ محافظة الدقهلية ..

* * *

وحين نترك وسط الدلتا .. أرض البطولات والانتصارات التاريخية فى العصور الوسطى ، مدينة المنصورة التى شاء الله أن تكون آخر معاقل هزيمة قوم الفرنجة وأسر ملكهم لويس التاسع ، كى نتجه فى الطريق المعاكس إلى مدينة أخرى شهدت أيضا أحداثا تاريخية عظيمة وعديدة ـــ كان آخرها أيام الصمود ضد قوات الاحتلال البريطانى منذ أكثر من مائة عام .. إنها مدينة الاسكندرية ـــ من أجل المزيد من البحث عن شهادة ميلاد الطفل الزعيم جمال عبد الناصر ..

هناك فى مكتب سجل مدنى الرمل بمدينة الاسكندرية .. عثرنا على المطلوب .. إنها شهادة ميلاد جمال عبد الناصر التى تقول بياناتها :

اسم المولود بالكامل : **جمال عبد الناصر حسين ..**

اسم الأب : **عبد الناصر حسين ..**

اسم الأم : (**وأيضا لم نجد أسم الأم بشهادة الميلاد .. وقد بحثنا طويلا عنه .. وأخيرا عثرنا عليه) .. فاطمة محمد حماد ..**

تاريخ الميلاد : **١٥ يناير عام ١٩١٨ ..**

جهة الميلاد : **الاسكندرية ..**

تحريراً فى : **٢٠ يناير ١٩١٨ ..**

وهكذا كان لزاما علينا أن نبدأ الطريق من علامات مضيئة به .. حتى لا نضل .. وكان دافعنا إلى ذلك أن تكون سيرة الزعيمان ماثلة أمامنا بكل تفاصيلها . دون أن نترك صغيرة أو كبيرة ، لم نوردها أو نذكرها ، لو كلفنا ذلك المشاق والصعاب .. إذن لم أكن مغالياً حين ذكرت من لحظات أننا بعثورنا على هذه الأوراق الرسمية .. وكأنما قد عثرنا على كنز سليمان .. بل وأكثر ..

● ***لحظة ميلاد فنانة :***

ذكرنا فى البداية أننا قد نضطر فى الكثير من الأحوال أن نبدأ حديث هذا الكتاب بالزعيمة الأولى .. زعيمة الطرب والفن المصرى والعربى .. أم كلثوم ولم نوضح السبب .. لكننا الآن .. لابد من القول أن دافعنا إلى ذلك هو الترتيب الزمنى من حيث المولد .. فقد عرفنا أن أم كلثوم قد ولدت قبل جمال عبد الناصر بأربعة عشر عاما .. وبالتالى سيكون الحديث عنها أولا .. ثم نعقب ذلك بحديث عبد الناصر .. هذا التنويه رأيت من واجبى الإفصاح عنه ، حتى لا يكون هذا الحديث عرضة لنقد أو هجوم .. لأننا نعلم جميعا مدى قيمة وعظمة جمال عبد الناصر فى المجال السياسى .. كقائد لثورة يوليو وأشياء وصفات كثيرة قلناها عنه وسوف نذكرها أكثر .. ولكن حين نتحدث بالانصاف .. نجد أن أم كلثوم أيضا .. زعيمة عظيمة .. لها نفس ما لجمال عبد الناصر .. مع فارق المجال والتخصص ، ولكن فى النهاية كل منهما زعيم ..

* * *

الآن نقف على أبواب قرية طماى الزهايرة .. كى نشهد ميلاد هذه الطفلة الفنانة ، التى أعطت للناس من عمرها وفنها أكثر من ستين عاما من العطاء والحب والآهات .. واسألوا أيام وليالى الخميس من كل شهر ..

وخلال رحلة بحثنا الطويلة عن كلمات تصلح لتصوير هذا المشهد الذى انتظره الملايين خارج القرية ، لم نجد سوى كلمات المهندس محمد الدسوقى ابن أخت الفنانة أم كلثوم .. الذى نقل لنا من خلالها مشهدا عظيما لخروج الطفلة أم كلثوم إلى الحياة ..

ولدت كوكب الشرق وسيدة الغناء العربى بقرية « طماى الزهايرة » التى تبعد حوالى ٢ كيلو متر عن مركز السنبلاوين بمحافظة الدقهلية .. أبوها الشيخ إبراهيم السيد البلتاجى ، منشد القصائد والتواشيح الدينية ، ومؤذن مسجد القرية ..

والدتها السيدة فاطمة المليجى ، وكثيرا ما كان الوالد وزوجته يجلسان إلى أم كلثوم فى طفولتها يحدثانها عن الأحداث التى جرت يوم مولدها ..

ويقول أهالى القرية الذين عاشوا هذه الليلة ، وشهدوا مع أسرة الشيخ إبراهيم وقائعها .. أنه كعادته فى مثل هذه الليلة ، يعتكف فى الجامع بعد صلاة العشاء كى يخلوا إلى ربه متعبدا ، وقارئا للقرآن الكريم حتى مطلع الفجر .. فقد كانت الليلة هى ليلة السابع والعشرين من رمضان المعروفة بليلة القدر ..

فى تلك الليلة تخلص الشيخ ابراهيم من كل هموم الدنيا ، وصفت روحه لمولاه إذ نسى أنه قد ترك فى منزله زوجته تعانى من آلام الوضع .. وقبل الفجر بقليل أخذته « سنة » من النوم ، دون أن يشعر ، فرأى فى المنام سيدة ترتدى الملابس البيضاء .. تقدمت منه ، مدت يدها إليه بلفافة خضراء .. فتراجع فى بادىء الأمر من تناولها ، فلما أصرت وألحت عليه .. أخذها ، فوجد بداخلها شيئا له بريق يشبه لمبة « البطارية » ..

وتملك الخوف الشيخ ابراهيم البلتاجى ، وسأل السيدة ذات الوشاح الأبيض .. عمن تكون ، وما سر هذا الشىء الموجود فى اللفافة ؟..

أجابت : أنها جوهرة .. وستكون « وش السعد ».. وهمت ذات الوشاح الأبيض

بالانصراف .. فألح الشيخ إبراهيم من أجل أن يعرف من هي هذه السيدة ذات الوشاح الأبيض .. وأمام إصراره على معرفة شخصيتها .. أفصحت له بقولها : أنها أم كلثوم ابنة النبي محمد صلى الله عليه وسلم .. عندئذ اختفت من أمامه ، فاستيقظ بعدها مباشرة على دقات باب الجامع ، فلما فتح الباب وجد نفسه أمام أخيه الشيخ « عبد النبي أبو السيد » الذى أنبأه بقدوم مولودة صغيرة وجميلة .. عندئذ إنحدرت الدموع من وجه الشيخ إبراهيم وتذكر الحلم الذى عاشه منذ لحظات ، وأصر على عدم الرجوع إلى المنزل إلا بعد صلاة الفجر ، حيث صعد إلى المأذنه ..

ويقول الذين سمعوه يؤذن هذه الليلة .. « **إن صوته كان أحلى من الكروان** »..

وبعد الصلاة جلس الشيخ إبراهيم والد الطفلة المولودة .. يقرأ القرآن بين المصلين كعادته .. ولما طال غيابه بالمسجد ، انطلق اليه أخوه الثانى « الشيخ على » من أبيه ، حيث اعتقد أن الشيخ إبراهيم يرفض العودة إلى منزله فور علمه بالمولودة الأنثى وأن أخيه الشيخ عبد النبي يحاول إقناعه ولكن ما حدث أن الشيخ إبراهيم حين مال على أخيه وأفهمه بضرورة الاسراع .. فض القرآن واستأذن المصلين .. وهو على الباب .. سمع أخيه الشيخ على يعتب عليه .. ظنا من زوجته أم خالد « والدة أم كلثوم » أنه يرفض الرجوع إلى المنزل لأن المولود أنثى وليس ذكراً ..

وهو فى الطريق حكى لهما قصة الرؤيا ، فسمعها أهل القرية المصاحبين له حين علموا بأمر المولودة ، وأخذوا يحكونها طويلا حتى أصبحت إحدى حواديت القرية التى تروى فى كل ليلة .. ومن يومها .. اختار الشيخ إبراهيم لمولودته الصغيرة اسم « أم كلثوم ».. وبالفعل كانت بداية السعادة له .. فمنذ مولدها وكنوز الدنيا تفتحت بين يديه ، حيث ذاع صيته كمقرىء ، ومنشد خلال العام الأول والثانى من مولد أم كلثوم .. وازداد إيراده حتى أصبح فى مقدوره أن يبنى بيتا ملكا له بشارع « داير الناحية » بالقرية .. ويعيش فيه مع أسرته الصغيرة .. ووليده خالد وأم كلثوم .. وازداد تعلق الشيخ بالطفلة الوليدة ..

وهى فى سن الخامسة من عمرها اكتشفت أمها موهبتها الصغيرة الوليدة .. حيث

كانت أم كلثوم تحفظ بعض التواشيح التى كان يرددها والدها الشيخ إبراهيم وأخبرت الأم زوجها بموهبة الطفلة حيث طلب منها تشجيعها على الاستمرار ..

وذات يوم .. تسلل الشيخ إبراهيم إلى منزله .. واختبأ فى مكان قريب ، وشاءت الظروف أن يكون مكان إختبائه قريب من وجود الطفلة التى وقفت تقلده بالصوت والحركة ، وهى تردد بعض أجزاء من التواشيح التى حفظتها عنه .. عندئذ أحس الوالد أن فى صوت طفلته شيئا جديدا ، لم يتعوده ، فيه عذوبة .. وحلاوة .. وكان ذلك إيذانا بمولد كوكب الشرق « أم كلثوم ».. وهى ما تزال طفلة صغيرة[1] ..

● *حين ولد الثائر الصغير :*

بداية نسجل ملحوظة لابد من ذكرها .. تتعلق بوصفنا الروائى لميلاد أى من الزعيمين .. جمال عبد الناصر أو أم كلثوم .. لأن نقلنا لهذا الوصف قد تم بعد الاطلاع على أكثر من مصدر .. ونختار الأقرب فى التصوير .. وعادة ما نلجأ إلى أصدق الروايات .. لأن كل ما يقال عن لحظة الميلاد هى كلمات منقولة أو متخيلة .. فمن منا يتصور مثلا أنه يستطيع أن ينقل الوصف التفصيلى للميلاد حتى ولو كان هذا الوصف لابنك أو ابنى .. ولك .. ماهناك أنها حكايات تروى عن سماع من هنا وهناك .. ولكنها على أية حال طريقة طيبة تنقل لنا إحساس الأهل والأصدقاء والمقربين ومدى سعادتهم وفرحتهم بإستقبال المولود الجديد ..

وها نحن أمام ميلاد الزعيم جمال عبد الناصر .. بحثنا طويلا عن وصف جيد للحظة الميلاد .. وبالفعل لم نجدها إلا عند الكاتب عبد المنعم شميس الذى وصف لنا ميلاد جمال عبد الناصر فى كتابه « جمال عبد الناصر » بقوله : « ولد .. ولـــد » ..

ثم أشرقت ابتسامة حلوة على شفتى السيد عبد الناصر ، وخرج من الغرفة يردد كلمة واحدة ..

ـ الحمد لله .. الحمد لله ..

(١) المذكرات الخاصة لأم كلثوم .. المهندس محمد الدسوقى (نشرت بجريدة الجمهورية فى حلقات ابتداء من ١٩٧٠/١/١ ..

وتلقاه أصحابه بالتهنئة على ما رزقه الله من ولد ، فجلس بينهم هادئا وادعا يردد آيات الله ، ثم امتد بروحه إلى عالم علوى شفاف يرى فيه نورانية مشرقة ، ويبصر خلالها ألوانا من الجمال ، وأطيافا من الرحمة ، ولم يلبث الرجل أن اتخذ له مكانا فى الغرفة بسط فيه سجادته للصلاة ، وصلى لربه شاكرا مامتعه به من ولد هو قرة عينه ، وبعد أن فرغ من صلاته قال لبعض أهله وأصحابه :

ـ هل وجدتم إسما للوليد ؟..

وانطلقت شفاههم بأسماء مختلفة ، لعل السيد عبد الناصر قد سمع بعضا منهم ، ولعله لم يسمعها ، فقد عاد إلى زوجه حانيا عطوفا ، وجعل يتأمل ولده فى حب يشد قلبه إليه ويتقرب بنفسه عنه ، ثم قال للأم :

ـ سوف اسميه « جمالا »..

وقالت الأم فى حنو شديد وتساؤل :

ـ جمال .. جمال .. ؟!!! .

فقال الأب :

نعم جمال .. والجمال صفة من صفات الله ، وما أحسب هذا الوليد إلا نعمة من نعم الله جلت قدرته ..

ومنذ تلك اللحظة فتح القدر أبوابه للطفل الوليد جمال عبد الناصر حسين .. وكان القدر واقفا فى ذلك اليوم الخامس عشر من شهر يناير عام ١٩١٨ على أبواب مدينة الاسكندرية يستقبل نسمة جديدة يفتح لها أبواب الحياة ..

كان جمال فى تلك اللحظات يبتسم فى وجه والدته ، وكانت هى تنظر إليه فى لطف وعطف ، ولم يلبث القدر أن أمسك حياة هذا الطفل بكلتا يديه وجذب خيوطها جذبا شديدا ، وكأنه يريد أن يقترب بصاحبها إلى الشاطىء الثائر ذى الأمواج المتلاطمة ، ثم هبت عواصف شديدة زادت القدر تمسكا بخيوط هذه الحياة الجديدة التى انبعثت فى طفل ولد لرجل من الشعب .. وكانت خيوط هذه الحياة الجديدة التى انبعثت فى هذا الطفل عجيبة وغريبة تمتد إلى بعيد فى أقصى الصعيد ، حيث نشأت أسرة السيد عبد الناصر حسين فى بلدة بنى مر من مركز أسيوط ..

ثم انتقل الوالد إلى الاسكندرية بحكم عمله الرسمى ، كى ينجب ولده البكر فى المكان الذى بدأت فيه قدم الاحتلال البريطانى آنذاك ترسو فيه .. ومضت حياة هذه الأسرة المصرية ، كما تمضى حياة عشرات الأسر من طبقات الشعب فى عناء وعسر ويسر ومشقة .. ولم تكد شهور تمضى على حياة جمال عبد الناصر الطفل حتى اندلعت نيران الثورة فى كل مكان .. وهب الشعب المصرى يطلب حقه فى الحياة وكانت طلقات المدافع والرشاشات هى الصوت الذى تعوده أطفال جيل جمال عبد الناصر فى ظل ثورة ١٩١٩ [1] .

وقد أنجب عبد الناصر حسين ولده الأول جمال عبد الناصر بعد زواجه بعام واحد .. حيث تزوج من السيدة فاطمة ابنة تاجر الفحم محمد حماد عام ١٩١٧ فى الاسكندرية .. وكان يعمل موظفا بالبريد .. وكانت طبيعة عمله تتطلب أن ينتقل الأب وعائلته بين ربوع مصر .. وفى عام ١٩٢١ أى بعد ثلاث سنوات من ميلاد جمال ، وصل عبد الناصر مع عائلته إلى قرية مصرية بالقرب من السويس ، ثم إلى قرية الخطاطبة التى تبعد ٤٠ كيلو مترا عن القاهرة ثم إلى دمنهور والأسكندرية وأخيراً إلى القاهرة [2] ..

وظل جمال ينتقل من مدرسة إلى أخرى كلما انتقل أبوه إلى مدينة أو قرية .. ويذكر التاريخ أن آخر مدرسة أولية التحق بها كانت فى بلدة الخطاطبة حيث كان والده يعمل مديرا لمكتب البريد هناك .. ثم بدأ دراسته الابتدائية فى مدرسة النحاسين فى القاهرة ..

* * *

● *أوجه التشابه والاختلاف :*

حين نتحدث عن عظيم أو كريم أو زعيم .. وندخله فى حساب المقارنات بين الآخرين .. نتوقف .. ينبض القلب خوفا .. فلا مجال هنا للمقارنة .. ولكن حين نتصدى لحديث الزعامة بالمقارنة بزعيم آخر .. يحق لنا أن نتوقف .. وأن نحسبها بالكلمة ، بل وبالحرف .. فالمقارنة قائمة ومطلوبة .. وما دمنا قد اتفقنا منذ بداية اللقاء

(١) جمال عبد الناصر ــ عبد المنعم شميس ..

(٢) ثورة الضباط الأحرار فى مصر ــ تأليف كوخونوفيتش .. ــ مؤلف روسى

على وجود زعيمين هنا بين أوراق هذا الكتاب .. ولا حديث لنا عن غيرهما .. فقد آثرت أن أسوق بعض أوجه الاختلاف والشبه بين أم كلثوم وعبد الناصر ..

هذه الملامح والأوجه جمعنا خيوطها من واقع تتبعنا للسيرة الذاتية لكل من الزعيمين .. أملا فى الوصول إلى سمات مشتركة بينهما .. وكثيرا من الزعماء ما يتشابهون ليس فى الشكل وفى الأعمال وإنما فى التكوين .. إن بداية الحديث ستكون هذه المرة بجمال عبد الناصر .. ذلك الفتى الصعيدى الذى ينحدر من عائلة اشتغل أغلب أفرادها بالفلاحة هناك فى صعيد مصر .. حيث محافظة أسيوط .. وقرية بنى مر ، تلك القرية التى تعد مسقط رأس أسرة وعائلة جمال عبد الناصر ..

وإذا كان جمال عبد الناصر قد امتدت جذوره هناك فى أقاصى الصعيد .. وولد فى مدينة ساحلية هى مدينة الاسكندرية التى شهدت العديد من الأحداث التاريخية المصيرية ، فإن أم كلثوم الشابة الفلاحة التى نشأت فى أسرة يعمل عائلها منشداً ومقرئاً دينيا .. قد ولدت هى الأخرى بالقرب من مدينة شهدت أعنف معارك العصور الوسطى ، حيث حرب الصليبيين .. إنها مدينة المنصورة التى من الصعب تحديد الأماكن التى جرت فيها معارك زمان .. فربما تكون قد اقتربت هذه المعارك أو بعدت عن مدينة السنبلاوين وقرية « طماى الزهايرة » ..

وكل من عبد الناصر وأم كلثوم قد نشأ فى أسرة متوسطة الحال .. فكما عرفنا أن والد أم كلثوم الشيخ ابراهيم البلتاجى كان يعمل منشداً دينيا وخادم مسجد القرية .. وكان مصدر رزقه ينحصر فى هذا العمل .. ولم يكن يملك من حطام الدنيا كما يقولون سوى المنزل الذى استطاع أن يقيمه فى حى « داير الناحية » بالقرية .. أما جمال عبد الناصر فإن والده ، وكما نعرف جميعا كان يعمل فى هيئة البريد .. موزع خطابات ثم مديرا لإحدى مكاتب البريد .. وكان لا يملك سوى راتبه الشهرى الذى كاد أن يكفى تكاليف معيشة أولاده ..

وحين ندقق فى أوجه الشبه والاختلاف الأخرى لا ننسى أبداً .. التكوين العضوى لكل من الزعيمين .. فإذا كان جمال عبد الناصر قد ولد ذكرا واستبشر والده خيرا بقدومه .. فإن أم كلثوم ولدت أنثى ، وأيضا كانت بشير خير لوالدها الشيخ إبراهيم .. وإذا كان والد جمال قد اختار إحدى صفات الله كى تكون اسما لابنه .. فإن الشيخ

إبراهيم البلتاجي ، قد اختار لابنته أحد أسماء بنات النبي صلى الله عليه وسلم وهي السيدة أم كلثوم ..

أما من حيث التكوين العام والتكوين الفسيولوجي للجسم .. يتضح من النظرة الأولى ، أن كلا من الزعيمين على درجة كبيرة من الشبه وحاول أن تنظر فى صورة كل منهما ، تجد الطول الفارع والوجه الممتلىء .. والصوت الجميل وكلها مظاهر نستطيع ملاحظتها دون اللجوء إلى المعامل والمقاييس الطبية .. هذه الصفات التى قد تكون مشتركة نشأت لدى الطفلين ، رغم تباعد أماكن المولد لكل منهما ، فهناك مسافة طويلة تعد بمئات الكيلومترات بين محافظة الدقهلية فى قلب الدلتا .. ومحافظة الاسكندرية على الساحل الشمالى ..

وكما سبق واتضح لنا أن جمال عبد الناصر ، وأم كلثوم قد تنسما رياح الثورة والكفاح .. رغم أن هذه الرياح لم تؤثر إيجابيا فى حياة أم كلثوم ، ولم يكن لها رد فعل عملى فى حياتها ، وإن كان هناك تأثير واضح على حياتها فى إحدى الفترات ، ونعرف ذلك من خلال تتبعنا للقصائد الوطنية العديدة التى غنتها .. أما بالنسبة لجمال عبد الناصر .. فإن الأمر قد يختلف كثيرا حيث عاش جمال عبد الناصر حياة الكفاح ، وعرف بها ، وتأثر من خلالها .. فقد ولد قبل ثورة عام ١٩١٩ بشهور قليلة ، وظل يتنقل مع والده فى محافظات مصر التى شهدت العديد من حركات الكفاح ضد الاستعمار بكافة أنواعه سواء المتمثل فى أولاد وأسرة محمد على ، أو فى هموم الاحتلال الانجليزى ..

ولا نريد أن نؤكد على تأثر أم كلثوم بالجو العام من الكفاح ، الذى عاشت بجواره فى مدينة المنصورة .. حيث لم يتضح ذلك التأثير إلا مؤخراً حين لجأت إلى غناء بعض القصائد التى تتغنى بمصر وبحب مصر ، وكأنما كان كل منهما فى ذلك الوقت ، يبحث عن الآخر حتى يحدث التكامل بين الثورة والعنف الذى يتمثل فى إرادة جمال عبد الناصر ، وكان كفاح الشعب المصرى هو محركه الأول نحو قيادة الثورة .. وبين أم كلثوم .. سيدة الغناء العربى التى كانت تمثل الروح والطرب والوطنية وكلمات « مصر التى فى خاطرى وفى دمى ».. و « طوف وشوف ».. و « يا جمال يا مثال الوطنية » ..

وهناك جانب آخر من جوانب التشابه والاختلاف .. يتمثل فى المسيرة التعليمية

لكل من الزعيمين .. فإذا كان جمال عبد الناصر قد استطاع أن يواصل حياة الكفاح وهو طفلا وشابا .. تلميذا فى المدرسة الابتدائية والثانوية ثم الجامعة حيث التحق بكلية الحقوق وتركها إلى الجيش .. فإن أم كلثوم لم تواصل تعليمها واكتفت بما حصلت عليه من علوم القرآن فى كتاب القرية ، إذ تمكنت من حفظ القرآن الكريم .. ثم واصلت رحلة كفاح الطرب مع والدها تجوب قرى ونجوع ومدن مصر من أقصاها إلى أقصاها ..

وربما كان دافعها إلى ذلك لقمة العيش .. ثم الموهبة وقلة ذات اليد وهو ماتغلب عليه السيد عبد الناصر حسين ، حيث كان همه الأول هو تعليم الابن .. وربما كان لديه الإحساس بضرورة أن يخرج هذا الطفل إلى الدنيا قائدا يحمل العلم فى ذهنه والثورة فى قلبه .. مما أدى إلى أن يحرص على تعليم أبنه جمال حتى آخر مراحل التعليم .. ولم يمانع أبدا فى تحقيق رغبة الابن حين عرف برغبته فى الالتحاق بالكلية الحربية ، التى فشل فى الالتحاق بها من أول مرة .. ثم نجح مرة ثانية ..

ولاننسى ونحن نعقد هذه المقارنة .. القول بأن الزعيمين كان موعد لقاءهما هنا فى القاهرة .. تلك المدينة العظيمة التى يطلق عليها أبناء مصر جميعا .. لفظ « مصر » ، هنا فى مصر إلتقى عبد الناصر ، وأم كلثوم دون أن يكون بينهما موعد سابق للقاء ..

لقد جاءت أم كلثوم القاهرة عام ١٩٢٥ ، تبحث عن حياة جديدة فى عالم الطرب والغناء ، بينا جاءها جمال عبد الناصر طالبا العلم والمعرفة عام ١٩٣٣ .. وقد ألتقيا فى عام ١٩٤٨ فى فيلا أم كلثوم .. دون أن يعرف أحدهما الآخر لقاء حب وإعجاب من جانب جمال عبد الناصر أحد « سميعة » أم كلثوم .. مثل غيره من ملايين المصريين آنذاك الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر ليلة الخميس من كل شهر .. ربما لم يكن الشاب جمال وحده .. بل قد يكون مشاركا له فى هذا الحب أبوه السيد ــ عبد الناصر .. وبقية أفراد أسرته وعائلته .. المهم حدث اللقاء وحضر عبد الناصر أول حفلة خاصة غنت فيها كوكب الشرق للضباط المصريين العائدين من حصار الفولوجا ..

هل حدث بينهما لقاء روحى أو تعارف خفى ؟.. ربما .. وهل عرف بدوام هذا اللقاء بعد هذه الحفلة بأكثر من أربع سنوات ؟.. ربما .. وهل كان كل منهما يتخيل فى تلك اللحظة أنهما سيكونا زعيمان وسيكون بينهما لقاءات وتعارف وحياة مشتركة .. ربما ؟. إن الزمان قد أكد صدق هذه الأحاسيس .. وألتقت أم كلثوم بجمال عبد الناصر

قائد ثورة يوليو .. ودام اللقاء حتى الموت الذى فرق بينهما .. فقد رحل عبد الناصر أولا .. رغم أنه ولد قبل أم كلثوم التى لحقت به بعد خمس سنوات ..

* * *

● **تواريخ فى حياة الزعيمين :**

علينا منذ هذه اللحظة أن ننتظر استكمال قصة حياة .. بدأت وانتهت نعرف بعضها ونجهل البعض الآخر .. المهم أن نلقى بأنفسنا فى أحضان الأوراق من أجل التعرف على قصة حياة أم كلثوم وعبد الناصر واستجلاء بقية أوجه التشابه والاختلاف وحتما سوف نتوقف ولكن أين وكيف ؟.. أسألوا القلم الذى يكتب بطريقة لم أعهدها فيه من قبل .. وحتما لسيرة الزعماء طعم خاص .. إن لأم كلثوم ، وعبد الناصر قصص وحكايات بدأت هناك فى أحضان الريف والبحر الأعظم .. واستكملت هنا فى القاهرة ، ولم يكن موعد اللقاء معروفا لأحدهما ..

وقبل أن تصل معنا أم كلثوم إلى القاهرة علينا أن نصحبها من هناك من خلف عيدان الذرة وسنابل القمح الصفراء .. ونركب معها آلة الزمن .. ثم نتركها تحكى بقية المشوار :

كان الشيخ البلتاجى قد اعتاد اصطحاب ابنه البكر خالد إلى الاحتفالات الدينية لصوته العذب .. وكان الابن خالد هو عالم الشيخ ابراهيم البلتاجى الصغير ، لكن هذا العالم سرعان ما اتسع حين إستمع الأب إلى صوت أم كلثوم ولم يكن الصوت وحده هو اللافت للأنظار .. بل كانت هناك أيضا القدرة على الإنشاد [1].

وتحكى لنا أم كلثوم فى مذكراتها بداية موافقة والدها الشيخ إبراهيم على اصطحابها معه إلى الأفراح والموالد حيث تقول : بعد أن سمع والدى صوتى خلسة وأنا فى هذه السن الصغيرة ، وبعد أن أصابنى الخوف من هول الموقف .. فوجئت به يقول لى :

ــ أنا عايز أقولك يا أم كلثوم .. خليك على طول وقلدينى فى كل وقت وأنا النهارده

(1) Oum Kalsoum - ysabelsaiah.

بعد ما سمعتك راح أحفظك التواشيح والقصائد كلها .. وحاخدك معايا الموالد والليالى ..

ومنذ ذلك اليوم اتجه نظر الشيخ ابراهيم واهتمامه إلى ابنته أم كلثوم ، ففى بداية الأسبوع أخذها إلى كتاب الشيخ عبد العزيز بالقرية ، كى تتعلم القراءة والكتابة وكانت تذهب يوميا مع أخيها خالد الذى كان قد سبقها إلى الكتاب منذ ثلاثة شهور .

وفى فترة قصيرة .. كانت الطفلة أم كلثوم تقرأ وتكتب ، فأثارت إنتباه الشيخ عبد العزيز « شيخ الكتاب » فازداد اهتمامه بها ورعايته لها خاصة وأنها ابنة « الشيخ إبراهيم » صديق عمره .. ولم يطل الوقت بالشيخ عبد العزيز حتى توفى ، قبل أن تحفظ أم كلثوم جزء عم من القرآن الكريم ..

لقد حزنت أم كلثوم حزنا شديدا على وفاة هذا الشيخ الجليل وتقول على لسانها :

ــ « حزنت حزنا شديدا على سيدنا الشيخ .. بكيت كواحدة من أهله ، فكرت أن مافيش سيدنا تانى غيره فى الدنيا وأننى لم أكمل المشوار .. وقعدنا أياما فى البيت حتى دبر لنا والدى كتاب آخر فى بلد مجاورة لنا أسمها « عزبة الحوال » كنت بأمشى أنا وأخويا خالد حوالى ثلاثة كيلو .. وفى ثلاثة سنوات وشهور حفظت أغلب أجزاء المصحف الشريف .. كان عمرى فى الوقت ده ثمانى سنوات ونصف[1] » ..

ولا شك أنه كان عملا من أعمال الجرأة .. لقد كانت أم كلثوم لم تتجاوز السادسة من عمرها عندما اصطحبها والدها إلى بيت العمدة كى تنشد للجمع المحتشد هناك .. وكان الشيخ البلتاجى غير واثق من النتيجة .. ولكنه كان يعرفها مسبقا حين اصطحب ابنته أم كلثوم إلى بيت يوسف بك صديق عمدة السنبلاوين .. وهناك حصلت أم كلثوم على أجرها ، عشرة قروش وسرعان ما تضاعفت إلى جنيه كامل ..

ولم تكن أم كلثوم قد إلتقت بعد بالفونوغراف .. لكنها كانت قد التقت بمئات المستمعين الذين هتفوا إعجابا لها وبها .. لدرجة أن عمدة السنبلاوين عرض عليها الزواج و ٥٠ فدانا على أن تترك الغناء فرفضت ، لعلها كانت الموهبة المتأصلة أو

(١) المذكرات الخاصة لأم كلثوم ــ المصدر السابق ..

الاحساس بالقدرة ، أو لعله كان الشيخ أبو العلا محمد والشيخ زكريا أحمد اللذان أعطياها دفعة قوية للأمام عندما استمعا إليها وطلبا إليها الحضور إلى القاهرة[1] ..

لقد تعرف الشيخ زكريا أحمد ، على أم كلثوم فى عام ١٩١٩ وهى لا تزال طفلة ، عندما كان يحيى شهر رمضان عند على أفندى أبو العينين فى مدينة السنبلاوين .. ولاحظ الشيخ زكريا .. خلال ليالى الشهر أن هناك آنسة صغيرة تنصت إليه باهتمام شديد وتسمعه بشغف وحين سأل عنها قالوا له أنها الفتاة أم كلثوم ابنة الشيخ إبراهيم البلتاجى .. وفى نفس العام إلتقى الشيخ زكريا أحمد بالآنسة أم كلثوم فى منزلها حيث استمع إلى صوتها .. وانتهت الزيارة بأن لحن لها الشيخ زكريا قطعة غنائية مقابل العزومة .. من هذا اليوم توطدت المعرفة بين الشيخ زكريا وبين أم كلثوم ..

وفى عام ١٩٢٣ ، عرفت القاهرة الفتاة الريفية أم كلثوم ، بعد أن غطت شهرتها أقاليم الوجه البحرى كله .. حتى أن أحد أصدقاء الوجيه « عز الدين يكن بك » قد أشار عليه بإحضارها لإحياء ليلة فى قصره بحلوان .. وكانت تلك هى الفرصة التى تنتظرها أم كلثوم .. حيث كانت تريد الغناء فى مصر فى حفلة كبيرة يحضرها الأعيان والأكابر ...

وعلى الفور ألغت أم كلثوم اتفاقا لإحياء أحد الأفراح بمدينة المنصورة كما رفضت تحديد أجرها مقابل السفر إلى القاهرة .. وهناك على باب المحطة كان ينتظرها حنطور البيه .. وبمجرد أن وصلت القصر ورآها عز الدين وعائلته فى هذا الزى البسيط حتى ثار فى وجه أصدقاءه ورفض أن تغنى هذه الليلة .. وفشلت كل المحاولات .. وكانت هذه أولى زياراتها إلى القاهرة .. وعادت أم كلثوم إلى قريتها من جديد « طماى الزهايرة » إلا أن الشيخ أبو العلا محمد لم يتركها ، بل سعى ليوقع عقداً باسمها .. وفى هذا الوقت كان سعد زغلول قد عاد من المنفى وكانت أم كلثوم تعشق الزعيم سعد زغلول من خلال أغانى سيد درويش التى كانت ترددها ..

وفى مطلع عام ١٩٢٤ يعود الشاعر الشاب أحمد رامى من باريس .. وعند وصوله سمع بقصة هذه المطربة الجديدة التى أدارت رؤوس الجميع فى مسرح

(١) المصدر السابق باللغة الفرنسية ..

البوسفور .. وتم التعارف بينهما ، وطلبت منه كتابة بعض القصائد من تأليفه لكى تغنيها فى حفلاتها العامة ..

وفى عام ١٩٢٦ واللقاء الثانى هنا فى القاهرة .. كانت المدينة عندما بدأنا نستقر فيها كالمريخ .. كل شيء نكتشفه لأول مرة .. فى الريف كان صاحب الفرح يأتى إلينا مباشرة – إلى أبى – للاتفاق على الغناء .. ولكنه فى القاهرة لابد من وجود متعهد حفلات[1] ..

وفى عام ١٩٢٩ ارتدت أم كلثوم للمرة الأولى ثيابا عصرية أمام الجمهور ، وكانت تغنى بمصاحبة فرقة صغيرة كونها محمد القصبجى .. وقد أصيبت لحظة بتوتر أمسكت على أثره بمنديل صار فيما بعد عادة ملازمة لها ..

فى تلك الآونة ظهر المطرب الشاب محمد عبد الوهاب ، وتألق فى فرقة « منيرة المهدية ».. وعرفت أم كلثوم معنى المنافسة ، ولعبت الصحافة آنذاك دوراً خطيراً فى إشعال هذه المنافسة ..

وفى عام ١٩٣٢ ، عقد المؤتمر الأول للموسيقى العربية ، وكانت أم كلثوم هى نجمة الموجة الجديدة ، والتى مصرت الأغنية فى مصر بعد أن كانت تركية خالصة ..

وكانت السينما بانتظارها عندما طلب إليها المخرج محمد كريم بعد نجاح فيلم « زينب » أن تشارك عبد الوهاب بطولة فيلم « الوردة البيضاء »فرفضت لأنها قصة تدور حول رجل .. ولا يبرز دور المرأة فيها ..

فى نفس الوقت بدأ اهتمام أم كلثوم بالإذاعة ، وكانت محطة مصر الإذاعية فى سبيلها إلى بدء إرسالها ، وعن طريق الإذاعة تحولت أم كلثوم إلى موضوع يومى تماما مثل السياسة والسلطة .. فغدت بهجة أحاديث تلك الأيام ..

وعندما صارت نجمة ، قرر والدها الخروج من حياة الضجيج إلى سكون قرية طماى الزهايرة من جديد ..

وفى عام ١٩٣٦ طلب المخرج الألمانى فويتز كرامب إلى أم كلثوم أن تكون بطلة فيلم

(١) أم كلثوم التى لا يعرفها أحد .. تأليف محمود عوض .

« وداد » عن قصة لأحمد رامى كتبها أثناء وجوده فى فرنسا ..

وفى ابريل ١٩٣٦ صعد الملك فاروق إلى عرش مصر ، وصعد معه حلم مصر فى التغيير وغنت أم كلثوم تحية له ..

وجاءت الأربعينات لتحمل الأحزان إلى قلب أم كلثوم حيث أصاب عينها مرض بسبب بكائها المستمر والمتكرر على رحيل أمها .. عندئذ توقفت أم كلثوم عن الغناء ، ولم تجد لها صديقا تثق بـه سوى الشاعر أحمد رامى الذى كانت تتصل به فى اليوم عشرات المرات ..

وارتدت أم كلثوم النظارة السوداء الشهيرة ، وفى أمريكا اكتشفوا أنها مصابة بالغدة الدرقية ، وكان لابد من إجراء جراحة فى مكان قريب من الحنجرة ، ولكن الأمور انتهت إلى خير ، ورجعت إلى مصر بعد شفائها ..

وفى صيف ١٩٥٢ ذهبت أم كلثوم إلى الاسكندرية لتقضى بها أجازة الصيف ، حيث لم تكن تقيم حفلاتها الشهرية خلال الأجازة .. وأثناء وجودها فى الاسكندرية علمت عن طريق الإذاعة أن الضباط الأحرار أعلنوا ثورة يوليو .. وعادت أم كلثوم للقاهرة فورا لتعاصر أحداث الثورة ، وتعلن تأييدها لها .. وقد كان .. حيث بدأت تعد أم كلثوم أغانى جديدة للثورة ..

وبعد الثورة بشهور عادت أم كلثوم إلى الولايات المتحدة الأمريكية لإجراء فحوص فى عينيها والغدة الدرقية .. وهناك علمت بنبأ وفاة أخوها الكبير خالد مما زاد من أحزانها وآلامها .

وفى عام ١٩٥٥ تزوجت من الدكتور حسن الحفناوى أبرز أطباء الأمراض الجلدية ، بعد رجوعها من رحلة علاجها الأخيرة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ويبدو أن هناك خلافا حول تاريخ زواج أم كلثوم .. حيث تقول الكاتبة الجزائرية « ايزابيل صياح » فى كتابها الذى صدر باللغة الفرنسية بعنوان « أم كلثوم » .. أنها تزوجت فى شهر يونيو عام ١٩٥٣ ، بينما يؤكد الكاتب محمود عوض فى كتابه « أم كلثوم التى لا يعرفها أحد » أن زواجها تم عام ١٩٥٥ ويؤكد ذلك فى قوله ..

ـ والدكتور حسن الحفناوى من « سميعة » أم كلثوم .. هكذا بدأت علاقتهما ..

مستمع ومطربة . ولكن أم كلثوم كانت تتردد عليه للعلاج فى عام ١٩٥٤ علاقة عادية مجرد : طبيب .. ومريض .. وتطورت هذه العلاقة العادية إلى اتفاق عاطفى .. ثم إلى الزواج .. وتم الزواج بعد عودة أم كلثوم من رحلتها إلى أمريكا للعلاج .. فى عام ١٩٥٥ ، وقد شاركت أم كلثوم بعد ثورة يوليو فى العديد من المناسبات السياسية .. وفى عام ١٩٦٤ ، وتلبية لرغبة جمال عبد الناصر تم تنفيذ عمل مشترك بين أم كلثوم وعبد الوهاب حيث أغنية « أنت عمرى » ..

وهناك كذلك خلاف حول بداية التعاون الفنى بين أم كلثوم وعبد الوهاب .. وهل هذه الأغنية هى بداية التعاون ؟ ويجيب على هذا التساؤل أيضا الكاتب محمود عوض .. حيث يقول : ليس صحيحا أن أغنية « أنت عمرى » كانت أول لقاء فنى بين أم كلثوم وعبد الوهاب .. صحيح أن هذه الأغنية قد أذيعت فى ٦ مارس عام ١٩٦٤ .. ولكن أم كلثوم وعبد الوهاب قد اشتركا معا فى عمل فنى قبل ذلك بـ ٣٧ عاما .. بل أن محمد عبد الوهاب لحن أغنية أخرى غنتها أم كلثوم قبل أغنية « أنت عمرى » بعشرين عاما ..

لقد كان أول لقاء بين المطربة زائعة الصيت أم كلثوم وبين المطرب الشاب محمد عبد الوهاب ، قد تم فى منزل والد المهندس أبو بكر خيرت .. لقد كان صاحب المنزل من هواة الموسيقى والغناء ، وكان بيته مقرا دائما لندوات أهل الفن .. وفى إحدى تلك السهرات تصادف وجود أم كلثوم وعبد الوهاب .. وغنيا معا ، غنيا مونولوجا مشهورا وقتها من أوبريت « العشرة الطيبة » التى وضع ألحانها الموسيقار سيد درويش ، وكان المونولوج من تأليف بديع خيرى ..

وفى عام ١٩٤٤ غنت أم كلثوم من تلحين محمد عبد الوهاب ، لقد تمت هذه المحاولة فى سهرة ضمت : توفيق الحكيم ، وفكرى أباظة ، وأم كلثوم ، وعبد الوهاب ، وآخرين . بالإضافة إلى الشاعر كامل الشناوى ، الذى كتب كلمات أغنية أبدت أم كلثوم استعدادها من أجل غنائها بشرط أن يلحنها محمد عبد الوهاب .. وبالفعل أمسك عبد الوهاب العود ولحن الكلمات ، التى ظلت أم كلثوم تغنيها للحاضرين .. رغم أن هذه المحاولة لم تخرج أيضا إلى دائرة الضوء ..

وبعد هذه المحاولات .. كانت أم كلثوم تقول : إن عبد الوهاب يكتفى بأن يلحن على صفحات الجرايد ..

ويقول عبد الوهاب : إننى أعتقد أن أم كلثوم لا تريد أن ألحن لها فلم يكن أيهما يثق فى الآخر لإنتاج عمل غنائى مشترك ..

* * *

بدأ عام ١٩٦٥ يحمل لأم كلثوم الأسى والحزن .. أصيب محمد القصبجى بشلل ..

وفى يونيو عام ١٩٦٧ .. قامت إسرائيل بالهجوم على مصر .. وكانت أم كلثوم تتابع مثل كل مصرى وكل عربى الاذاعة لتعرف آخر أخبار القوات المسلحة ، ولكن بعد ستة أيام عرفت أن مصر قد فقدت الآلاف من رجالها ، وأن الطيران المصرى دمر على الأرض . عندئذ شعرت أم كلثوم باليأس بعد إحساسها بمرارة هذه الهزيمة ، وفرضت على نفسها عزلة ، وبدأت تشعر بالمرض والإرهاق وعدم القدرة على الخروج من منزلها ، وبدأت الصحف تكتب عن مرضها وعزلتها بعد الهزيمة ، لكنها قررت عدم الاستسلام للمرض واشتركت مع مجموعة من نساء مصر من أجل تقديم خدماتهن للجنود وأهالى الضحايا . وقد استطاعت أن تجمع حوالى خمسة عشر ألف من الجنيهات وتقدمها إلى وزارة الشئون الاجتماعية ، كما قررت أن تقوم بجولة فى العالم العربى من أجل المجهود الحربى ..

وظلت أم كلثوم فى عطاء دائم .. وفى عام ١٩٧٠ فقدت مصر جمال عبد الناصر .. ومن بعدها بدأ العد التنازلى لحياة أم كلثوم فى الحياة الفنية والحياة بشكل عام حتى رحلت عن عالمنا بعد وفاة جمال عبد الناصر بخمس سنوات أى فى عام ١٩٧٥ ..

وكما تتبعنا حياة الزعيم ، والمغنية ورائدة الفن العظيم السيدة كوكب الشرق أم كلثوم .. وحاولنا أن نجعل من تواريخ فى حياتها محطات نقف فوق أرصفتها كى نستعيد ذكريات ونسجل لقطات ، قد نعرفها وقد لا نعرفها .. فهكذا حياة الزعماء .. كل يوم [illegible] .. علينا أن نسجله ونعرف ماذا حدث فيه .. واذا ما كنا قد سجلنا حياة أم كلثوم .. وبدأنا بها حديث هذه التواريخ .. فإننا الآن على عتبات سيرة الزعيم الآخر عبد الناصر ، نحاول أن نستكشف ما فى حياته من تواريخ لها قيمة ومعنى ، ولا يكون دافعنا إلى ذلك سوى الرغبة فى تقريب المسافات بين حياة الزعيمين أم كلثوم ، وعبد الناصر .. وعلى من يقرأ من بعدنا أن يعيش مدلولات هذه التواريخ لأنها خطوات فى

حياة الإنسان .. كل خطوة وكل يوم أو كل شهر أو سنه فيه جديد .. وما علينا من هذه اللحظة إلا أن نسجل فقط ..

* * *

لم يلبث الطفل جمال أن ألتحق بمدرسة العطارين الابتدائية بالاسكندرية حيث نقل إليها أبوه حديثا .. ثم عاد مرة ثانية إلى مدرسة النحاسين وظل بها حتى نال شهادة إتمام الدراسة الابتدائية[1] ..

وهذه النقطة كانت محل خلاف بين بعض الكتاب العرب والأجانب حيث يقول الكاتب الروسى « كوفتوفيتش » : لقد ألتحق جمال عبد الناصر بالمدرسة الابتدائية بمدينة أسيوط ، ثم بمدرسة السكك الحديدية عامى ١٩٢٣ ــ ١٩٢٤ بقرية الخطاطبة .. حيث كان يعمل أبوه .. ثم أرسله والده .. للإقامة بالقاهرة مع عمه خليل حسين .. وهناك ألتحق بمدرسة النحاسين الابتدائية .. وكان جمال عبد الناصر يقضى أجازته المدرسية عادة عند والديه فى الخطاطبة .. وفى عام ١٩٢٦ توفيت والدته .. وكان شديد التعلق بها ، ولم ينقطع عن مراسلتها ..

وكان عم جمال بطبيعة عمله كموظف بوزارة الأوقاف ، يتغيب كثيرا عن القاهرة ، لذا عاد جمال عبد الناصر إلى الاسكندرية للإقامة عند جده لأمه[2] ..

وأحس السيد/ عبد الناصر حسين بكثرة تنقلات ابنه جمال ، فأراد أن يريحه من تكرار الترحال والتنقل معه فى أرجاء البلاد فألحقه بمدرسة حلوان الثانوية بالقسم الداخلى حيث مكث بها عاما واحدا ..

وفى عام ١٩٣٠ التحق بمدرسة رأس التين الثانوية بالاسكندرية .. وفى عام ١٩٣٣ انتقل أبوه للعمل بالقاهرة ، والتحق جمال بمدرسة النهضة التى درس بها سنتين .. وفى هذا العام بدأ عبد الناصر يشارك فى المظاهرات ، وبدأ يفاضل بين الأساليب المختلفة للنضال والثورة ..

---

(١) عبد المنعم شميس ــ المصدر السابق ..

(٢) ثورة الضباط الأحرار فى مصر ــ المصدر السابق ..

وقبل أن ينهى دراسته الثانوية كان قد تعرف على الواقع السياسى فى مصر وعلى نشاط الأحزاب آنذاك .. كما ولع أثناء دراسته بالقراءة والمطالعة واستهوته بشكل خاص قراءة التاريخ العربى والإسلامى والصحافة الوطنية العربية .. كما قرأ وهو ما زال تلميذا مؤلفات شكسبير وفولتير وهوجو ..

وفى عام ١٩٣٦ نال جمال عبد الناصر شهادة الدراسة الثانوية فى يونيو من هذا العام من مدرسة النهضة الثانوية .. ورغب جمال عبد الناصر فى الالتحاق بالكلية الحربية ولكن طلبه آنذاك لم يقبل ، فالتحق بكلية الحقوق بجامعة القاهرة فى أكتوبر عام ١٩٣٦ ، ومكث بها خمسة أشهر ، وعلى أثر إعلان الكلية الحربية عن حاجتها إلى طلبة جدد قدم طلبه فقبل مع أربعين طالبا آخرين .. وكان ذلك فى شهر مارس عام ١٩٣٧ .. وكان عمره آنذاك ١٨ سنة ..

ومكث جمال بالكلية الحربية ستة عشر شهرا تخرج بعدها برتبة الملازم ثان فى أول يونيو عام ١٩٣٨ ..

ومما يدل على النبوغ المبكر لميول الثورة داخل نفس عبد الناصر .. تلك الرسائل التى كان يبعث بها لأصدقائه وزملائه معبرا فيها عن الأوضاع السياسية والاجتماعية التى كانت سيئة آنذاك .. وفى رسالة بعث بها جمال عبد الناصر بتاريخ ٢ ديسمبر عام ١٩٣٥ ، وهو فى سن السابعة عشرة ذكر فيها : أخى على .. خاطبت والدك يوم ٣٠ أغسطس فى التليفون ، وقد سألته عنك فأخبرنى أنك موجود بالمدرسة ، ولذلك عولت على أن أكتب إليك ما كنت سأكلمك فيه تليفونيا ، أن الموقف اليوم دقيق فى مصر ، ونحن فى موقف أدق .. إننا نكاد نودع الحياة ونصافح الموت ، فإن اليأس عظيم الأركان .. فأين من يهدم هذا البناء .. ؟! .

ولقد أنهى جمال عبد الناصر دراسته فى الكلية الحربية ، ومنح رتبة ملازم ثان .. وأرسل للخدمة فى فرقة مشاة منقباد التابعة لمديرية أسيوط فى جنوب الصعيد .. ثم نقل إلى الاسكندرية عام ١٩٣٩ ، ثم إلى السودان حيث أمضى هناك سنتان ..

* * *

ان جمال عبد الناصر طوال فترة دراسته هنا وهناك ، لم يكن بعيدا عن أحداث مصر .. فكما سبق وأن ذكرنا أنه قد بدأ ينخرط فى صفوف المتظاهرين ضد الاحتلال

الانجليزى آنذاك .. وفى عام ١٩٣٥ ، أصبح زعيما للطلبة فى مدرسة النهضة فقاد مظاهرة خرج فيها طلبة المدرسة بالقاهرة فى نوفمبر من نفس العام ، عقب تصريحات وزير خارجية بريطانيا آنذاك ، والذى كان يعارض فى عودة دستور ١٩٢٣ لمصر ، وأصيب جمال خلال هذه المظاهرة التى قامت فيها اثنان من الطلبة حيث تعقبه جندى من البوليس وضربه بعصاه .. وكانت جبهته لا تزال تحمل أثر هذه الإصابة .. ولما سال دمه من أثر الضربة لجأ إلى إحدى دور الصحف هربا واستغاثة ، ونشرت تلك الصحيفة اسمه فى اليوم التالى بين أسماء المكافحين الثائرين .. وكانت هذه أول مرة ينشر فيها اسم جمال عبد الناصر فى الصحف ..

وحين عاد إلى المدرسة علم أنه فصل منها ، فأضرب زملاؤه عن تلقى الدروس تضامنا مع زعيمهم جمال المفصول .. حتى يعود ، فعاد إلى المدرسة ومن يومها صمم جمال على أن يفرغ من دراسته أولا ، ثم يبدأ كفاحه الحقيقى فى سبيل بلده ..

* * *

وحين نعود إلى قصة التوارخ فى حياة جمال عبد الناصر .. نجد أن جمال عبد الناصر وهو فى منقباد فى عام ١٩٣٨ قد تعرف على العديد من زملائه فى الجيش ارتبط بأغلبهم حتى قيام الثورة .. لقد كان فى منقباد يفكر فى المستقبل .. ويبدو أن مصر آنذاك قد ضاقت بجمال عبد الناصر ، وهو لا يزال فى مطلع حياته العسكرية فأراد أن ينفس عن آلامه بعيد عن الوطن ، فلم تكد إدارة الجيش تعلن عن طلب ضباط يسافرون إلى السودان ، حتى سارع إلى طلب نقله ، فألتحق بالكتيبة المشاة الثالثة فى شهر ديسمبر عام ١٩٣٩ .. وهناك تعرف بصديقه عبد الحكيم عامر .. ومن قبل فى منقباد تعرف على كل من أنور السادات وخالد محيى الدين ..

ومن السودان رحل إلى الصحراء الغربية .. ثم عاد إلى القاهرة مرة أخرى حيث عمل مدرساً بالكلية الحربية فى أوائل عام ١٩٤٢ ، وكان آنذاك قد وصل إلى رتبة اليوزباشى .. ومن الأحداث التاريخية التى عاصرها عبد الناصر آنذاك حادث ٤ فبراير حين حاصرت الدبابات قصر عابدين ، فى هذه الفترة ظلت الثورة تشتد فى داخل جمال عبد الناصر ، حتى أبعدوه عن القاهرة .أرسلوه مع القوة المصرية التى كانت تراقب الموقف الحربى فى منطقة العلمين ، أثناء الحرب العالمية الثانية ..

وعاد جمال إلى الجيش قوياً ظافراً وانصرف إلى دراسته العسكرية العالية فى كلية أركان الحرب مع زميله عبد الحكيم عامر .. وتخرج منها يوم ١٢ مايو ١٩٤٨ ، فالتحق بالكتيبة المشاة السادسة بفلسطين فى اليوم التالى لتخرجه ..

ومع بداية حرب فلسطين حصل جمال عبد الناصر ، على ترقية ، وأرسل إلى جبهة القتال .. وهناك أصيب اصابة شديدة فى معارك حصار الفالوجا وعراق المنشية ، وبعد هزيمة الجيوش العربية فى حرب فلسطين رجع جمال عبد الناصر إلى القاهرة ، وبدأ يعد للقيام بثورة يوليو .. حيث شكل فى نهاية عام ١٩٤٨ لجنة تنفيذية للضباط الأحرار شارك فيها العديد من رفاق الثورة .. إلا أن بعض المصادر تؤكد أن بداية تنظيم الضباط الأحرار كان عام ١٩٤١ ، وأن المرحلة الثانية لعمل هؤلاء الضباط بقيادة جمال عبد الناصر قد بدأت فى الفترة من ١٩٤٥ ومايو ١٩٤٨ ، وأن الحركة فى هذه الفترة قد أخذت طابعا تنظيميا ، وكونوا مجموعة كبيرة ..

أما المرحلة الثالثة فقد استمرت حتى عام ١٩٥٢ وكانت هى المرحلة الحاسمة ، إذ تطورت الحركة واتضح أمامها الطريقة لتنفيذ خطة الثورة فى شهر يوليو .

ومن قبل وفى يناير عام ١٩٥٠ اختارت اللجنة التنفيذية للضباط الأحرار جمال عبد الناصر رئيسا لها ، وفى يناير ١٩٥١ أعيد انتخابه لنفس المنصب وظل فيه حتى قيام الثورة فى الثالث والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ ، وظل من بعدها فى صراع مع زملاء حركة الضباط الأحرار .. حيث ظلت الحركة تأكل نفسها .. وبدأت معركة التصفية حتى أصبح جمال عبد الناصر رئيس مجلس قيادة الثورة ، ثم رئيس الجمهورية ، ورئيس الوزراء ..

وظلت التواريخ بعد ذلك تلعب دورها فى حياة جمال عبد الناصر ، وحياة التاريخ المصرى .. لأن كل ما كان يقوم به سواء من حسنات أو أخطاء كانت تنعكس فعلا على الشعب المصرى .. بدءاً من حرب عام ١٩٥٦ التى أعقبت تأميم قناة السويس ، ثم هزيمة عام ١٩٦٧ .. وأخيرا الرحيل الأخير .. حيث فارق جمال عبد الناصر الحياة عام ١٩٧٠ ..

الفصل الثانى

بعد حصار الفالوجا.. كان هذا اللقاء

لا نعرف على وجه التحديد .. أهي المصادفة .. التى كانت وراء تدبير أول لقاء بين جمال عبد الناصر ، وأم كلثوم .. أم القدر الذى لا نعرف حدوده .. من أين يبدأ أو كيف ينتهى ؟ أم هما معا ؟ المصادفة والقدر .. حين يلتقيان ينصهر كل منهما فى الآخر ويصيرا شيء واحد .. هذا الشيء كان يعلوه القدر وتحركه المصادفة .. وكان اللقاء الأول .. دون سابق معرفة .. المكان فى فيلا أم كلثوم بحى الزمالك ، والزمان فى فبراير عام ١٩٤٩ ..

ويبدو أن هذا اللقاء .. كان مجرد إعداد للقاءات عديدة .. سوف تكون بين أم كلثوم ، وعبد الناصر .. فقط أنها مجرد أيام أو سنوات تمر فى حياة كل منهما .. وفرصة للاعداد .. لقد كان جمال عبد الناصر بالفعل يعد نفسه من أجل أن يقود الشعب المصرى فى مجال العمل السياسى .. وكذلك أم كلثوم التى كانت تؤهل حياتها من أجل أن تقود أيضا الانسان المصرى نحو أحاسيسه وأمجاده .. وتغزو قلبه وعقله .. وكان كل منهما يخطو خطوات محسوبة على هذا الطريق أو ذاك .. وان كانت أم كلثوم قد سبقته بمراحل بحكم مولدها أولا قبل جمال عبد الناصر بإحدى عشر عاما .. هذا التوقيت المبكر فى رؤية الحياة جعلها تأخذ فرصتها أكثر فى مجالها الذى بدأته ، وكما تقول سيرتها التاريخية منذ كانت تبلغ من العمر خمس سنوات ..

ففى الوقت الذى كان فيه جمال عبد الناصر يبحث فيما حوله .. ويدقق الاختيار من أجل المهمة الانتحارية التى سوف يقدم عليها .. ولم يكن يعلم مصيره ومصيرها إلا الله .. وفى الوقت الذى كان فيه إيمانه يزداد يقينا بضرورة القيام بمثل هذا العمل الثورى .. هو ورفاقه هنا وهناك .. كانت أم كلثوم تملأ أسماع الدنيا بصوتها .. وينتظر حفلاتها الشهرية كل مصرى .. وربما كان هذا الصوت هو البلسم الشافى لهذا الشعب من جروح وآلام الاحتلال البريطانى آنذاك .. قبل سقوط الملك فاروق فى أخطائه العديدة التى عجلت برحيله على يد جمال عبد الناصر ..

* * *

ومن أجل التعرف على طبيعة هذا اللقاء وبدايته كان لنا أن نغوص فى الأوراق الصفراء .. ونعد أنفسنا لإجراء لقاءات حيوية مع بعض الشخصيات المصرية التى عاصرت هذا اللقاء الغريب واكتشفنا أن كل التفاصيل لم نعثر عليها فى الأوراق .. وإنما كان دليلنا إلى معرفة الحكاية بدقة .. لقاء الكاتب الصحفى مصطفى أمين الذى حضر حفل التكريم الذى أقامته أم كلثوم فى عام ١٩٤٩ تكريما لنضباط الأحرار المصريين العائدين من حصار الفالوجا .. وكان يحضره أيضا الضابط الجريح جمال عبد الناصر ..

هذا التقييم .. أو هذا البحث .. يلقى بنا فى أحضان تاريخ حقبة هامة من حياتنا كانت أم كلثوم ، أحد أضلاع مثلث هذه الحقبة .. حيث الملك والإنجليز .. وهما الضلعان الآخران ..

ونقول أن أم كلثوم .. كانت بمثابة أحد أضلاع هذا المثلث لأنه فى هذه الفترة ، قد ذاع صيتها فى مجال فنها .. واشتهرت كمطربة مصرية يرق لها الوجدان .. وكان الأعيان والأمراء والباشوات يسارعون إلى حضور حفلاتها والتقرب منها ، ولم يتوقف هذا التكريم وهذه الشهرة عند حدود عامة الشعب وبعض الأمراء والباشوات .. بل استطاعت أم كلثوم أن تدير أكبر رأس فى بلدنا آنذاك .. وهو الملك فاروق الذى كان يحرص هو الآخر على حضور حفلاتها هو وضيوفه الأجانب ..

ومن شدة إعجابه بفنها .. منحها وسام الكمال للفنون عام ١٩٤٦ .. وأصبحت منذ ذلك التاريخ صاحبة العصمة ..

ويقول الكاتب الصحفى مصطفى أمين فى لقاء شخصى معنا عن هذه الفترة ، وعن علاقة أم كلثوم المبكرة ردا على ما أشيع فى المجالس الخاصة من توسطه لدى الملك فاروق من أجل منح أم كلثوم هذا الوسام .. أنه لم يحدث أن توسط أحد لأم كلثوم لدى الملك فاروق .. فقد كانت شهرتها آنذاك تجوب الآفاق ، وليست فى حاجة إلى وسيط يقدمها إلى ملك البلاد .. وكل ما حدث أنه فى أحد ليالى الخميس كانت أم كلثوم تحيى حفلا خاصاً بأحد نوادى القاهرة .. وفوجئنا بمقدم حاشية فاروق الذين أعلنوا أن الملك سوف يحضر هذا الحفل .. وبالفعل فوجئنا بمقدم الملك فاروق عندئذ ارتبكت أم كلثوم .. ولكننى طمأنتها .. وبالفعل واصلت الغناء .. وكانت تغنى « يا ليلة العيد أنستينا » .. وفى هذه الليلة أبدعت وذكرت اسم الملك فى الأغنية .. وبعد انتهاء الوصلة الغنائية .. نادانى الملك كى أعلن على الحاضرين منحها وسام الكمال لأم كلثوم ..

* * *

لقد كانت أم كلثوم فى فترة من فترات حياتها هى كل شىء .. واسألوا جمهورها فى كل مكان .. هذا الجمهور الذى انتقل انفعاله بصوتها كما يقول الكاتب محمود عوض من جيل إلى جيل .. ويكفى أن نقرأ ما كتبه أحد الصحفيين فى عام ١٩٢٦ ، يقول :

ــ وكانت الآنسة أم كلثوم ، وما زالت إلى اليوم ، موضع إعجاب الناس من الفنانين والموسيقيين وأصحاب الأذواق السليمة .. وكانت لا تحيى ليلة تنشد فيها إلا ويمتلىء المكان .. وذاع اسمها فانتشر صيتها وتهافت الأمراء والأعيان على الإستمتاع بصوتها المطرب فى حفلاتهم .. لقد كان الجمهور المصرى يقبل من أم كلثوم ما لا يقبله من غيرها .. لقد نجحت أم كلثوم آنذاك فى تحويل الحب إلى ملكية عامة .. هذا الحب الذى يجعل النهار أطول ، والليل أقصر ، والقمر يسطع ، والنجوم تصبح أجمل ..

* * *

ولا يزال السؤال يدور ويلف فى عقولنا .. يدق بعنف من أجل بصيص من الإجابة تروى ظمأ حروفه الحائرة .. والسؤال يردد بصوت مرتفع : وأين كان عبد الناصر قبل لقاء الفالوجا ؟ ونحن بدورنا نضم صوتنا إلى هذا السؤال .. ونحاول أن نجيب عليه ..

يقول الكاتب عبد المنعم شميس : لقد كان جمال عبد الناصر دارسا فى كلية أركان

الحرب مع زميله عبد الحكيم عامر ، وتخرج منها يوم ١٢ مايو ١٩٤٨ ، فألحق بالكتيبة المشاة السادسة بفلسطين فى اليوم الثانى من تخرجه ، وكانت أول كتيبة تدخل حرب فلسطين فى ١٥ مايو عام ١٩٤٨ ..

كان دور جمال عبد الناصر آنذاك دورا منقطع النظير .. فقد انطلق قبل أن تدخل مصر حرب فلسطين يريد أن يحمل السلاح فى سبيل تحرير الأرض المقدسة من الصهيونية ..

وقدم جمال عبد الناصر استقالته من الجيش كى يتطوع فى هذه الحرب فرفض رئيس الوزراء آنذاك المرحوم النقراشى .. وغضب جمال لهذا الرفض فذهب إلى مفتى فلسطين أمين الحسينى وطلب إليه أن يتحدث مع رئيس الوزراء من أجل أن يقبل استقالته حتى يتسنى له التطوع للدفاع عن فلسطين فرفض رئيس الوزراء الطلب من جديد . وتحقق لجمال ما أراد من جهاد .. فكان أول المسافرين إلى فلسطين حين أعلنت مصر الحرب فى ١٥ مايو ١٩٤٨ ..

وهناك حارب مع جنوده ورفاقه حتى أصيب فى الحرب فى صدره ونقل للعلاج فى مستشفى غزة وعولج من الإصابة .. وعاد من جديد إلى المعركة حتى حوصر فى الفالوجا واستمر حصاره هناك حتى فبراير عام ١٩٤٩ .. وحين عاد أنعم الملك بنوط الشجاعة هو وزملاء الحصار وعلى رأسهم الضبع الأسود السيد طه ..

ومعركة الفالوجا وعراق المنشية تجرنا إلى الحديث والألم والشجن حديث أول حرب خاضتها مصر والعرب ضد اسرائيل ، قبل أن نعيش لحظات اللقاء بين جمال عبد الناصر وأم كلثوم حين عاد من هذا الحصار ..

* * *

● من أوراق قائد ميدانى :

لو حصرنا كم الكتب الهائل التى تحدثت عن حرب فلسطين لوجدناها تتعدى الآلاف .. سواء باللغة العربية أو بغيرها من اللغات .. ونفس هذا الحصر ينطبق على معركة الفالوجا وحصارها الذى دام عدة أشهر .. ولكن فى سعينا نحو تحرى الحقيقة المحايدة عثرنا على

كلمات هامة من كتاب أحد رجال العسكرية المصرية الذين غاصروا كل حروب مصر .. إنه اللواء عبد المنعم خليل الذى يحدثنا عن هذه الحرب بكل ما لها وما عليها بقوله فى منتصف ليلة ١٤/١٥ مايو عام ١٩٤٨ أصدر مجلس الوزراء المصرى البلاغ الرسمى التالى :

ــ صدرت التعليمات إلى قوات من الجيش المصرى بدخول فلسطين لإعادة الأمن والنظام فيها ، ولإيقاف المذابح التى تقترفها العصابات الإرهابية الصهيونية ضد العرب وضد الإنسانية ..

ثم صدر البلاغ العسكرى المصرى رقم (١) وأعقبه بلاغات أخرى عربية ومصرية متعددة [١] ..

ثم بدأت الرحلة إلى فلسطين من محطة القاهرة إلى العريش .. حيث دفعت بريطانيا الجيوش العربية إلى دخول فلسطين فى ١٥ مايو ١٩٤٨ ، وهى غير مستعدة ، ولذا سمى عام ١٩٤٨ بعام النكبة الكبرى .. حيث اغتصبت اسرائيل فلسطين ..

وفى يوم الجمعة ١٤ مايو ١٩٤٨ أعلنت الأحكام العرفية فى القطر المصرى استعدادا لحماية ظهر الجيش عند دخول فلسطين ، وبعد منتصف ليلة ١٤/١٥ مايو دخلت القوات المصرية الحدود الفلسطينية عند رفح فى عربات نقل متعهد فلسطينى ، وكانت الخطة التى وضعتها انجلترا لمصر آنذاك لدخول فلسطين هى أن تحشد القوات المصرية فى منطقة العريش ــ رفح بهدف التحرك إلى غزة يوم ١٥ مايو ، وتقوم البحرية الملكية بمراقبة النشاط اليهودى فى منطقة غزة ــ رفح وفرض الحصار عليها بالاشتراك مع القوات الجوية المصرية ..

اجتازت القوات المصرية الحدود عند رفح قبل فجر ١٥ مايو ١٩٤٨ بهدف الوصول إلى غزة بأسرع ما يمكن .. وقد نجحت هذه القوات فى دخول غزة عصر يوم ١٥ مايو .. وفى ١٦ مايو حاولت القوات المصرية الاستيلاء على مستعمرة بيروت اسحق بالقرب من غزة .. واستمر الجيش المصرى فى التقدم إلى بقية فلسطين ..

---

(١) حروب مصر المعاصرة ــ لواء عبد المنعم خليل ..

وفى ١٧ مايو صدرت الأوامر إلى قوات المتطوعين بقيادة أحمد عبد العزيز بالتقدم إلى بئر سبع عن طريق غزة ..

وفى يوم ٢٦ مايو دخلت قواتنا المصرية بلدة أسدود وأصبحت على مسافة أقل من ٣٠ ميلا من تل أبيب .. كما نجحت قوات مصرية أخرى فى دخول الفالوجا وعراق المنشية فى الطريق إلى الخليل واستولت القوات المصرية على حصن منيع لتأمين طريق الفالوجا ..

وفى ليلة ٥/٦ يونيو عام ١٩٤٨ قام اليهود بهجوم ليلى صامت إلى أن وصلوا إلى الخطوط الأمامية لقوات الكتيبة التاسعة مشاة ونجحت القوات المصرية فى القضاء على هذا الهجوم اليهودى ..

وفى ليلة ١٠/ ١١ يونيو صدرت الأوامر بالانتقال القيادى إلى غزة وتم إيقاف القتال يوم ١١ يونيو .. ووصل عدد كبير من المراقبين إلى أماكنهم لمراقبة تنفيذ وقف إطلاق النار ..

وفى ٨ يوليو عام ١٩٤٨ تم استئناف القتال .. إلا أن الملك عبد الله أصدر أوامره إلى قائد قواته فى فلسطين سحب القوات الأردنية من منطقة اللد والرملة والسماح للقوات الإسرائيلية بدخولها ..

وفى ١٨ يوليو أعلنت الهدنة فى القدس .. أما فى باقى الجبهات فقد تحدد فى الساعة الخامسة بعد ظهر يوم ١٩ يوليو توقيت وقف القتال ..

وفى يوم ١٨ يوليو .. عرف الجميع قصة الأسلحة الفاسدة التى أهداها الملك فاروق إلى الجيش المصرى المحارب فى فلسطين ..

وفى يوم ٨ سبتمبر ١٩٤٨ استولى اليهود على قرية المحجز فى منطقة جنوب الفالوجا .. وتمكن اليهود من السيطرة على جميع طرق الإمداد المؤدية إلى الفالوجا ..

وفى فجر ١٠ أكتوبر تحركت بعض القوات المصرية على الطريق الرئيسى من غزة إلى الفالوجا ، وعراق المنشية ، حيث كان يحاصر جمال عبد الناصر ورفاقه من الجنود والضباط المصريين .. وكان عبد الناصر على رأس الكتيبة السادسة مشاة .. وكان يومها برتبة صاغ ..

وقبل فجر يوم ١٦ أكتوبر عام ١٩٤٨ قام اليهود بهجوم مضاد جديد استخدموا فيه الطائرات .. ونسفوا الكوبرى الرئيسى على طريق غزة ــ المجدل وعدد من الكبارى الأخرى الفرعية .. وتمكنوا هذه المرة من قطع طريق الإمداد الرئيسى .. كما قاموا بغارات مكثفة على معظم المواقع المصرية فى قطاع الفالوجا المحاصر وعراق المنشية .. ثم تعرضت غزة فى يوم ١٩ أكتوبر لقصف جوى عنيف من عدة طائرات وفى صباح اليوم التالى هاجمت مدينة غزة من اتجاه البحر .. ثلاث مدرعات يهودية ورغم صدور قرار وقف إطلاق النار يوم ٢١ اكتوبر ١٩٤٨ ، فقد أغرقت المدمرة المصرية « فاروق » بواسطة طوربيد من بارجة أمريكية ..

وفى ٢٧ أكتوبر أصدرت قيادة القوات المصرية فى فلسطين أوامر أخرى بانسحاب القوات المسلحة من مواقعها فى أسدود ، ثم صدرت أوامر جديدة يوم ٣٠ أكتوبر بانسحاب بقية القوات من فلسطين ..

ولم يبق للجيش المصرى فى فلسطين ، سوى الكتيبة السادسة مشاة المحاصرة فى قطاع الفالوجا وعراق المنشية بقيادة الضبع الأسود القائمقام السيد طه .. وأركان حرب الكتيبة الصاغ جمال عبد الناصر .. واستمر كفاح هؤلاء الجنود والضباط المحاصرين .. حتى يوم ٢٨ فبراير ١٩٤٩ .. حين رجعوا إلى رفح ومنها إلى القاهرة ..

* * *

● *من الضباط المحاصرين ..*

إلى أم كلثوم :

لقد كانت أم كلثوم .. الشغل الشاغل لكل مصرى سواء على أرض مصر أو خارجها .. كانت هى كل حياته .. وكانت تحمل عبر صوتها أرق الذكريات التى تجعل الانسان فى تواصل مستمر مع يومه وغده .. فكم سمعنا عبر موجات الأثير .. كيف كان الناس خارج مصر يحرصون على طلب سماع أغنيات أم كلثوم ، وهم على بعد ملايين الكيلو مترات خارج أرض مصر .. أنها تعيد اليهم الماضى والحاضر والمستقبل ، وتقدم إليهم عبر هذا الصوت الذى هو قيثارة السماء .. مصر بترابها وسمائها ..

ولا ننسى حين نقول دائما ونردد ورائها « مصر التى فى خاطرى وفى دمى » هذه حقيقة .. لقد بلغ الشوق بالإنسان المصرى حداً لم يجد بعده أو قبله حدودا أخرى ، حيث تمثلت له أم كلثوم فى كل مكان رسول الشوق وحامل رسائل الغرام والحب ، حتى ولو عبر الهواء ، وكم كنا وكانوا يجدون فى صوتها وكلماتها التواصل والاستمرارية ، التى تعبر عن حلاوة الحياة ، حتى ولو كانوا وكنا فى أحلك الظلمات ..

فها هم الضباط المحاصرون فى الفالوجا .. لا يجدون أمامهم سوى صوت أم كلثوم .. رسول الخير والمستقبل والأمل .. والحب والحنين إلى أرض الوطن التى باعد بينهم وبينها حب الكفاح ..

يقول الكاتب الكبير مصطفى أمين :

ـ لقد اتصل به الفريق محمد حيدر باشا وزير الحربية المصرى آنذاك فى عهد الملك فاروق ، وأبلغه أن ضباط الفالوجا المحاصرون قد بعثوا برسالة لاسلكية غريبة من موقع الحصار .. أما مضمون الرسالة التى وجهها هؤلاء الضباط لحيدر باشا شخصيا ، فهى طلب مقدم منهم بأن تغنى أم كلثوم فى حفلتها المذاعة بعد أيام أغنية « غلبت أصالح فى روحى » .. وطلب حيدر باشا من مصطفى أمين أن يخبر أم كلثوم بتلك الرغبة ..

وبالفعل تحدث مصطفى أمين مع أم كلثوم ، وأخبرها برسالة حيدر باشا ، ونقل إليها من خلال هذه الرسالة رغبة ضباط الفالوجا فى أن تغنى لهم هذه الأغنية ، وكان الحفل سيقام بعد أيام قليلة ، إلا أن أم كلثوم قالت أنها وعدت أن تهدى الوصلة الأولى لزوجة الأمير فيصل .. والوصلة الثانية لزوجة الملك الغازى ، وأم الملك فيصل الثانى ملك العراق آنذاك ، أما الوصلة الثالثة فهى لإحدى الأميرات المصريات ولم تكن هذه الأغنية من بين الأغانى المختارة للحفل .. ومع ذلك قالت أم كلثوم وبلا تردد لمصطفى أمين : أنها سوف تلغى طلب الأميرة المصرية من أجل تلبية رغبة الضباط وتغنى أغنية « غلبت أصالح فى روحى » ..

ولم يكن هذا الطلب أو تحقيق هذه الأمنية كافيا بالنسبة لفنانة وطنية مثل أم كلثوم .. فقد أبلغت الكاتب مصطفى أمين أيضا أنها سوف تغنى لهم أغنية أخرى هى « أنا فى انتظارك » فى الوصلة التى خصصتها من قبل للملك العراق .. وبعد عودة هؤلاء الضباط إلى القاهرة فى أول فبراير عام ١٩٤٩ سألهم حيدر باشا وزير الحربية فى هذه الأيام حين

استقبلهم عن أية مطالب لهم .. وكانت المفاجأة الثانية .. هو إجماع هؤلاء الضباط العائدين على مقابلة أم كلثوم وتقديم الشكر الخاص لها ..

وهناك رواية أخرى يذكرها الكاتب محمود عوض فيما يتعلق بطلبات الضباط المحاصرون بالفالوجا .. اذ يقول : لقد بدأت شخصية أم كلثوم تتحول إلى رمز لكل ماهو جميل وباق ومحبوب ومستمر فى مصر .. ولقد بدأت هذه الشخصية تحمل هذه البذور منذ فترة طويلة مضت .. لقد دخلت إلى المسرح تغنى مرة فى شهر فبراير عام ١٩٤٩ ، ولكنها وقبل أن تغنى فوجئت بضابط يستوقفها كى يقدم لها خطابا مغلقا ما هذا الخطاب ؟ وماذا بداخله ؟ ورقة ؟ آه .. ما هو مكتوب فى الورقة مش معقول ؟ أنه رجاء يقدمه إليها ضباط وجنود الفرقة المصرية السادسة المسلحة والتى يحاصرها اليهود فى الفالوجا نريد أن نسمع منك فى حفل الليلة المذاع بالراديو أغنية « غلبت أصالح فى روحى » ..

قطعة غنائية تحولت إلى مهمة وطنية ، ليلتها قطعت أم كلثوم وصلتها الأولى كى تقدم الأغنية المطلوبة كما لم تغنها من قبل[1] ..

ونحن نختلف مع الكاتب محمود عوض فى هذه الرواية .. ونؤيد ما ذكره الكاتب الكبير مصطفى أمين .. لسببين أحدهما أننا فى لقاء مع الأستاذ مصطفى أمين أكد لنا صدق الرواية التى ارتبطت بشخص الفريق حيدر باشا .. وثانيا لأنا قرأنا هذه الرواية فى العديد من المصادر .. وعلى آية حال ليس الغرض هو ذكر الواقعة فى حد ذاتها ، ولكن من أجل توضيح مدى وطنية واحساس أم كلثوم المرهف والمدى الذى تدخل فيه القدر كى يجمع بين الزعيمين القادمين مع رياح مصر شمالا وجنوبا ..

لقد أكد الضباط العائدون من حصار الفالوجا بما فيهم القائمقام السيد طه قائد الكتيبة السادسة مشاه وأركان حرب الكتيبة جمال عبد الناصر .. وبقية الزملاء على ضرورة مقابلة أم كلثوم .. حيث أعلنوا فى صوت واحد أن صوتها من هناك عبر الأثير كان الشىء الوحيد الذى ربطهم بمصر بعد أن انقطعت كل سبل الاتصال بينهم وبين بلدهم الحبيب مصر .. وكان اللقاء فى صالونها الكبير بفيلتها فى شارع أبو الفدا بحى الزمالك على ضفاف نيل مصر ..

(١) محمود عوض ــ المصدر السابق ..

وفى هذا اللقاء كان الأستاذ مصطفى أمين هو المدنى الوحيد وسط كافة المدعوين من العسكريين وعلى رأسهم حيدر باشا وزير الحربية فى هذه الأيام .

وذكر الأستاذ مصطفى أمين أنه قد التقى فى صالون أم كلثوم آنذاك بابراهيم البغدادى ،وهو من ضباط الفالوجا والذى أصبح فيما بعد محافظا للقاهرة ، وكان يجلس على مائدة جمال عبد الناصر .. حينئذ سأل مصطفى أمين عن سر هذا الطلب من الضباط وهم تحت الحصار .. أجاب ابراهيم بغدادى : بأنه فى أحد ليالى الحصار .. كنا قد التففنا حول النار هناك .. واقترح أحد الضباط أن نبعث برسالة نطلب أن تغنى لنا أم كلثوم فى حفل الخميس القادم أغنية ..

وقال بعض الضباط : هو ده معقول ؟.. طبعا الأغانى محجوزة والوقت متأخر .. وأكيد الأمراء والوزراء طلبوا أغانى معينة ، إلا أن الضابط جمال عبد الناصر .. هو الضابط الوحيد الذى قال إن أم كلثوم لا يمكن أن ترفض لنا هذا الطلب ، لأنها فلاحة مصرية وطنية ، ولابد أن تشعر بنا هنا ونحن محاصرون ..

وكان تقدير جمال عبد الناصر لإحساس أم كلثوم الإنسانية والوطنية تقديرا فى محله .. وحين قامت الثورة ومن بعدها ــ والكلام ما يزال على لسان الكاتب مصطفى أمين ــ وحين تولى جمال عبد الناصر رئاسة الجمهورية هو وعبد الحكيم عامر ترددوا كثيرا على فيلا أم كلثوم ..

أما عن أحاسيس الكاتب الصحفى الكبير مصطفى أمين حين تعرف على الضابط جمال عبد الناصر .. فإنه يكمل الحديث بقوله :

ــ « لما كنت أنا المدنى الوحيد المدعو لهذا الحفل بحكم صلتى وصداقتى بأم كلثوم كنت أتنقل بين أماكن هؤلاء الضباط .. ومن حين لآخر كان يلفت نظرى هناك الضابط جمال عبد الناصر ، الذى كان يفضل أن يجلس بمفرده صامتا ، رغم أن بقية زملائه من الضباط كانوا يمرحون ويضحكون ويتناوبون الحديث مع أم كلثوم .. هذا السلوك الهادىء من جانب الضابط جمال عبد الناصر .. كان محل تساؤل أم كلثوم أيضا .. فقد كنا نرى كذلك أنه حتى قائد الكتيبة « الضبع الأسود » السيد طه يمرح ويضحك ويتنقل من مكان إلى آخر فى صالون فيلتها إلا جمال عبد الناصر الذى استمر

فى جلسته الصامتة طويلا حتى انتهى اللقاء .. وبين الحين والحين كنت ألاحظ نظرات متبادلة بين أم كلثوم وعبد الناصر .. ولم أستطع وقتها أن أترجم هذه النظرات فى حينها ، فربما كانت نظرات لقاء قادم ومصير مشترك بين زعيمين ، لا يزال دورهما حتى هذه اللحظة فى علم الغيب(١) » ..

وعن إحساس أم كلثوم الوطنى وحبها الشديد لأبناء وطنها الحبيب مصر تقول بخصوص ضباط الفالوجا فى مذكراتها :

ــ « عندما بدأت حرب فلسطين ضد العصابات الصهيونية التى كنا نعرف أنها رأس حربة الاستعمار ، أو هى الاستعمار بصورة أخرى وبجلادين جدد عندما بدأت الحرب كان قلبى مع كل مقاتل هناك ، وكنت أقرأ فى الصحف فى الخاصة صباح كل يوم ، واستمع إلى الراديو فى كل محطات العالم كما أسمع آخر أنباء المعارك .. وحين حوصر أبطالنا فى الفالوجا كان الدسوقى ابن شقيقتى ينقل لى الأخبار من هناك .. ويقول لى أنهم يريدون أغانى كذا وكذا ، فأغنى لهم وأذهب إلى الاذاعة لأقدم لهم ما يطلبون ، وأعيش معهم على البعد بجميع أعصابى وكل حماستى ..

وعندما عادوا كان الملك يخاف منهم ويخشى غضبهم بعد واقعة الأسلحة الفاسدة ، وكانت النقابات قد قررت الاحتفاء بالعائدين وكنت يومئذ نقيبة للموسيقيين المصريين .. ومن هؤلاء الذين قرروا الاحتفال ببطولاتهم الضبع الأسود سيد طه وجمال عبد الناصر وصلاح سالم وغيرهم .. ولهذا أمر القصر الملكى هذه النقابات بإلغاء هذه الحفاوات .. وكنت قد وجهت الدعوة لكل القادمين من الفالوجا .. دعوة خاصة إلى بيتى ، وجاءنى الأمر بألا أفعل ورفضت تنفيذ الأمر .

وتعللت بأنى وجهت الدعوة بالفعل .. وحضر إلى بيتى فى الزمالك حوالى ٥٠ ضابطا وأكثر منهم من الجنود وملأوا البيت والحديقة وأدرت لهم كل التسجيلات التى كانوا يطلبونها وهم فى الفالوجا ..

* * *

(١) حديث الكاتب الكبير مصطفى أمين مع كاتب هذه السطور .

• كلمات على جدران فيلا الذكريات :

لا يمكن بأى حال من الأحوال أن نترك الحديث عن فيلا أم كلثوم وصالونها الشهير .. ما دمنا لا نزال فى رحاب حى الزمالك .. وما دامت جدران هذه الفيلا قد جار عليها الزمان .. وسقطت بفعل فاعل .. وأنهدمت رغما عن أنف أم كلثوم وألبوم الذكريات ..

إن الحديث عن هذا المكان .. ليس من أجل عيون المكان وصاحبته .. بل من أجل كلمات كتبت على جدران هذه الفيلا .. وأبدا لم تسقط ولم تدوسها الأقدام التى صاحبت هذه الفيلا .. وظلت باقية فى عيون الورق الأصفر وعقول عشاق أم كلثوم ..

وعن فيلا أم كلثوم وحكايتها مع الهدم والبناء تحدثنا الصحفية علا المستكاوى من خلال تحقيق صحفى نشرته فى مجلة « آخر ساعة » قالت فيه :

ــ هنا الأطلال .. أطلال بيت أم كلثوم .. عش الكروان الذى ملأ السماء بأروع الأغانى .. هنا فيلا أم كلثوم التى شهدت حجرتها ذكرياتها وأيامها الأخيرة وحياتها الخاصة ..

هذه فيلتها .. بشارع أبو الفدا بحى الزمالك .. المطل على نيل القاهرة .. الدور الأول حجرات الصالون والسفرة .. الصالون على يسار المدخل .. حجرة صغيرة وأخرى كبيرة .. كل الحجرات خاوية تماما إلا من الباركيه والرخام .. وهذا الصالون الكبير شهد لقاءات أم كلثوم بكبار الشخصيات المصرية والعالمية ..

والفيلا بناها المهندس على لبيب جبر كما تعلن اللافتة الرخامية المعلقة فى مدخل الفيلا ، فى عام ١٩٣٥ ، وكانت أم كلثوم تسكن من قبل فى شقة فى عمارة « بهلر » فى شارع ٢٦ يوليو بعد كوبرى أبو العلا . وقد اختارت أم كلثوم الرسوم الهندسية للفيلا بنفسها . كما كانت تتردد عليها يوميا لمتابعة العمل والبناء وبعد الإنشاءات عهدت أم كلثوم لمهندس ديكور فرنسى تصميم الديكور ، وتأثيث الفيلا على الطراز الفرنسى . ولم تكن أم كلثوم أبدا من هواة تغيير الأثاث فى منزلها .. فلم تغير أى قطعة من الأثاث منذ عام ١٩٣٥ وحتى عام ١٩٦٠ ..

أما بالنسبة لحكاية هدم الفيلا .. فتقول تفاصيلها أنه : بعد وفاة أم كلثوم اشتراها

رجل أعمال سعودى من الورثة ، وقرر هدمها ليقيم عليها مشروعا استثماريا وعمارة كبيرة .. وقد بيعت أنقاض هذه الفيلا بحوالى ١٣ ألف جنيه .. بالإضافة إلى ألفى جنيه تأمين .. والمفروض أن يتم إزالتها من فوق الأرض فى خمسة أشهر وقد تم استخراج رخصة الهدم من حى غرب القاهرة رقم ٢٩٤ بتاريخ ١٩٨١/١٢/٢٩ واستلم مقاول الهرم الفيلا مجهزة للازالة فى ٦ فبراير ١٩٨٢ ..

* * *

والأستاذ الكاتب الكبير مصطفى أمين له رأى آخر فى مسألة فيلا أم كلثوم وهدمها ــ وقد ذكر هذا الرأى فى كتابه شخصيات لا تنسى .. تحت عنوان « أم كلثوم الأخرى » .. حيث قال :

ــ عرف الناس أم كلثوم .. وأنا عرفت أم كلثوم الأخرى ، عرفوا الأسطورة وعرفت الإنسانة ، عرفوها بخيلة وعرفتها كريمة .. وتحدثت الدنيا كلها عن جريمة فيلا أم كلثوم فى الزمالك ، وأصبحت الألسنة مشانق يعلق فيها ورثة أم كلثوم العاقون الذين باعوا فيلا أم كلثوم الخالدة .. وقد يذهل الناس إذا عرفوا أن أم كلثوم لم تعتبر « فيلتها » هذه أثرا تاريخيا يجب أن تحافظ عليه الأجيال القادمة ، بل الذى حدث أنها أخبرتنى أنها تريد هدم هذه الفيلا وبناء عمارة من عدة طوابق .. وأخبرت الأستاذ أحمد عنان مدير شركة مصر للتأمين فى ذلك الوقت ، عن رغبتها وجاءها بالمهندس محمد رياض مدير بلدية القاهرة فى ذلك الوقت ، ووضع رسومات العمارة الجديدة ..

وبدأت أم كلثوم تبحث فعلا عن شقة تقيم فيها .. واختارت أن تقيم فى شقة فى الزمالك تملكها ابنة عبد الفتاح يحيى باشا رئيس الوزراء الأسبق .. وبدأت مفاوضات استئجارها .. وفجأة قامت ثورة ٢٣ يوليو ، وبعد فترة قليلة ذاعت شائعات أن الثورة تفكر فى تأميم العمارات ، عندئذ عدلت أم كلثوم عن هذا المشروع ويستطيع ورثة أم كلثوم أن يجدوا فى أوراقها الخاصة رسوم عمارة من عدة طوابق ، وقد اختارت أم كلثوم فيها شقة فى الطابق العلوى على الناحية البحرية تطل على النيل ، لأن أم كلثوم كانت تكره الحر كرها شديدا ..

فرجل الأعمال السعودى الذى اشترى فيلا أم كلثوم لم يهدم الفيلا ، وإنما فعل بعد ثلاثين عاما ما تمنت أن تفعله أم كلثوم عام ١٩٥٢ [1]..

(١) شخصيات لا تنسى ــ مصطفى أمين ..

الفصل الثالث

من الاسكندرية إلى مجلس قيادة الثورة

حين أعلنت الاذاعة المصرية فى صباح اليوم الثالث والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ بيان الثورة الأول .. قطعت كوكب الشرق أم كلثوم إجازتها السنوية ، التى كانت تقضيها كل عام بالاسكندرية فى شهر يوليو .. وجاءت مسرعة إلى القاهرة ، حيث مجلس قيادة الثورة من أجل إعلان تأييدها لهذا العمل البطولى الجليل ..

كانت أم كلثوم مثل ملايين المصريين الذين كانوا ينتظرون هذا الحدث .. ومثل ملايين العرب والأجانب ، الذين كانوا يرقبون الساحة السياسية والعسكرية المصرية انتظارا لحدوث شيء ماقد اختلف المؤرخون قبل وقوعه وبعد إعلانه فى تسميته أهو ثورة أم انقلاب عسكرى ؟؟ ، ومهما قيل عن التسمية ، وعن دوافع هذا الحدث ، ومن وراءه .. فهو واقع عظيم .. ومرحلة تاريخية هامة إمتدت آثارها خارج مصر وتغيرت على إثرها خريطة العالم العربى ، بل كان لهذا الحدث الأثر العظيم فى خلخلة واقع المجتمع المصرى .. وتغيير جذوره .. وما زال النقاش يدور حول نتائج هذا التحول .. ليس فى مصر وحدها بل وفى كافة أنحاء العالم .. وما دام الأمر يبعد كثيرا عن موضوع كتابنا فنحن لن نقترب منه من بعيد أو قريب ..

والشيء اللافت للنظر والذى يدل على الوعى الوطنى لكوكب الشرق الزعيمة

المصرية الجليلة .. أم كلثوم .. هو إسراعها غير العادى نحو مجلس قيادة الثورة ، ولقاء الضباط الأحرار .. ثم إعلان تأييدها المطلق لهذه الثورة .. هذا الوعى وهذا الإدراك داخل أم كلثوم ، لم ينشأ من فراغ .. ويدل دلالة واضحة على أن أم كلثوم لم تكن فقط مطربة تشنف أذان سامعيها .. بل كانت فنانة وطنية لها دورها قبل الثورة وبعدها ..

ويكفى القول .. بأنها كانت تتفاعل باستمرار مع أحداث مصر السياسية والعسكرية .. ويتضح لنا ذلك من قولها فى مذكراتها الخاصة أنها قد عاصرت ثلاثة حروب .. سبقتها ذكريات عن أيام « طماى الزهايرة » حين كانت طفلة تلعب فى شوارع القرية ، وفى أثناء ذهابها وغدوها من البيت إلى كتاب القرية .. كانت ترى الجنود الانجليز يأخذون الشباب إلى السلطة .. إلى الحرب يأخذونها قسرا وعنفا ، ومن بعد رحيلهم تتخرب بيوتهم .. لقد كرهت أم كلثوم الانجليز لأنهم ينزعون الشباب من الشوارع ، ويلقون بهم فى الحروب ، بل أكثر من ذلك كانت تعرف أنهم يأخذون قوت يومهم ، حين يفرضون ثمنا منخفضا على القمح والقطن .. لقد كرهت الاستعمار ..

هذه النظرة وهذه الذكريات ظلت عالقة فى ذهنها منذ أيام القرية .. وهى نفسها التى دفعتها من أجل تلبية طلبات ضباط حصار الفالوجا .. وجعلتها تستقبلهم فى بيتها رغم الأمر الملكى الذى صدر آنذاك من أجل منع الأحتفال بهؤلاء الأبطال العائدين ..

ويكفينا قولها :«أناعرفت أن الحكومة والملك ، خافوا هؤلاء الضباط العائدين ، وكان منهم جمال عبد الناصر وآخرين ، خاصة بعد فضيحة الأسلحة الفاسدة » .

ولم تكن أم كلثوم كذلك فى مجال فنها بعيدة كل البعد عن العمل السياسى .. بل مارسته عن قرب .. حين رشحت نفسها مرات عديدة لمنصب نقيب الموسيقيين .. وفازت بهذا المنصب للمرة السابعة فى عام ١٩٥٠ ..

وجاء فى ديباجة الفوز .. « أنه للمرة السابعة تتجدد ثقة حضرات الموسيقيين بالنقيبة الفنانة أم كلثوم ، التى كانت طيلة هذه المدة أمينة على الثقة عاملة على الأحتفاظ بها ، بما أدت لزملائها من خدمات شعارها الحرص على مصالحهم ، والمحافظة على كيانهم ، والرفع من شأنهم فى كل مجال ، وعند كل جهة » ..

وقد أجريت انتخابات النقيب فى ١٥ مايو عام ١٩٥٠ بحضور أعضاء الجمعية

العمومية وتولى سكرتير عام النقابة إعلان النتيجة بفوز أم كلثوم بهذا المنصب للمرة السابعة على التوالى ..

وقد تكون مصادفة .. قيام أم كلثوم قبل الثورة بثلاثة أشهر بتسجيل قصيدة شاعر الشعب حافظ إبراهيم « مصر التى فى خاطرى » لتكون كرد فعل لحالة الغليان التى تعيشها البلاد منذ حريق القاهرة ..

ويبدو أن رجال الثورة فى أيامها الأولى .. لم يصدقوا هذا التأييد الجارف من جانب أم كلثوم .. فأصدروا قرارهم بوقف أغانيها فى الاذاعة ..

طلبت أم كلثوم مصطفى أمين فى مكتبه بأخبار اليوم لمعرفة حكاية منع إذاعة أغانيها .. وعلى الفور اتصل مصطفى أمين بمكتب قيادة الثورة وأبلغ جمال عبد الناصر بالخبر الذى لم يكن يعلم به .. وعلى الفور اتصل بالمسئولين عن الاذاعة الذين عللوا سبب عدم إذاعة أغانيها بأنها من مخلفات العهد الملكى البائد ..

استنكر جمال عبد الناصر ، هذا الموقف من المسئولين عن الاذاعة المصرية ، وأمر بإعادة أغانيها مرة أخرى معللا قراره ، إذا كانت أم كلثوم من رموز العهد الماضى فلماذا لم يردموا النيل ، ويهدموا الهرم ، فإنهما من العصر الماضى أيضا ..

ومن بعد هذا التعليل .. أصدر عبد الناصر أوامره بإعادة إذاعة أغانى أم كلثوم فوراً ..

وهناك موقف آخر .. كان لعبد الناصر الفضل فيه بالنسبة لإعادة حقوق أم كلثوم .. فقد كان عليها أن تتقاضى أربعون جنيها نظير حق الأداء العلنى من الاذاعة عن إذاعة قصيدة « مصر التى فى خاطرى » والتى كانت تذاع قبل بيان الثورة .. ومرت عدة أشهر دون أن يصل أم كلثوم حقها فى الأداء فلما سألت .. أجابها مندوب القيادة العامة بأن التسجيلات أصبحت منذ قيام الثورة ملكا للدولة فتوجهت أم كلثوم فى اليوم التالى لمجلس قيادة الثورة ، وهناك استقبلها أعضاؤها وعلى رأسهم جمال عبد الناصر .. وحكت لهم قصتها مع « حق الأداء العلنى » فاتصل عبد الناصر فورا بمندوب القيادة العامة فى الاذاعة ، ولم تمض نصف ساعة حتى جاءها المندوب بحقيبة بها كل مستحقاتها ..

ولم يكن هذا هو الموقف الأول أو الثانى المعارض لتأييد أم كلثوم لثورة يوليو من

جانب بعض الضباط الأحرار ، بل كان هناك الموقف الخطير الثالث الذى فجر فى نفس أم كلثوم ألما تجاه بعض ضباط الثورة .. ففى عام ١٩٥٣ وفى آخر انتخابات نقابة الموسيقيين .. حدث تنافس شديد على هذا المنصب بين المطرب الشاب محمد عبد الوهاب الذى كان يسانده بعض ضباط الثورة .. وحين علمت أم كلثوم بهذا الخبر قررت إعلان اعتزالها الغناء .. وأبلغت بذلك أحد المقربين لها الذى نقل الخبر إلى أعضاء مجلس قيادة الثورة .. وأمام جرأتها وتصميمها تم إبلاغ صلاح سالم الذى أبلغه بدوره لجمال عبد الناصر ..

ويحكى الراوى أنه رغم أن الليل قد انتصف .. اتصلوا بمنزلها فى الزمالك وأبلغوها بأن عبد الناصر ورفاقه سيكونون على موعد معها غدا صباح اليوم التالى ..

وقد كان .. ففى الموعد المحدد انطلق جمال عبد الناصر وبصحبة صلاح سالم وجمال سالم وعبد الحكيم عامر وأعضاء آخرون من مجلس قيادة الثورة والتقوا بأم كلثوم .. وفى هذه الجلسة الخاصة تم تسوية جميع الموضوعات بين أم كلثوم ورجال الثورة .. ومن ثم عادت أم كلثوم للغناء من جديد .. ويبدو أن هذا اللقاء هو الذى عمق الصلة أكثر بين الزعيم جمال عبد الناصر ، وزعيمة الغناء العربى أم كلثوم .. فقد نزلت على إرادته ورجعت من جديد مع عصر جديد ..

● *الثورة .. فى عيون هؤلاء :*

ولا يمكن أن يأتى ذكر ثورة أو انقلاب يوليو ، إلا ويكون لنا معها وقفات قد تطول وقد تقصر .. لأنها فى رأينا كانت ثورة فى كل مكان فى الجيش ، وفى الشارع حيث كان الناس يعيشون لحظات إنفجارها .. وحين وقعت أحداثها انطلق الناس فى الشوارع يعبرون عنها .. بصرف النظر عن أخطائها الكثيرة .. لقد كانت الثورة بداية حقيقية للإنسان المصرى الذى استطاع أن يطفوا فوق سطح الأحداث بعدما كان مغروزا فى الطين طوال آلاف السنين .. من هنا .. لابد أن نعيش لحظات وقوع هذا الحدث .. ولن نبعد كثيرا عن أم كلثوم ، وجمال عبد الناصر .. لأنهما طرفا هذا الحدث ..

لقد عاشت مصر طوال الفترة التى أعقبت هزيمة حرب فلسطين ، وفضيحة الأسلحة الفاسدة ، فى غليان مستمر على كافة المستويات .. الشعبية والرسمية والعسكرية

والسياسية ، لذا حينما جاءت الثورة وجدت الطريق أمامها ممهدا وفرضت مبادئها بالطرق السلمية ..

وقد بدأت ملامح الأزمة السياسية فى الحياة فى مصر آنذاك ابتداء من عام ١٩٥٢ .. حين قدم مصطفى النحاس باشا استقالة وزارته للملك فاروق ليلة حريق القاهرة ، فرفضها .. وإزاء هذا الموقف وفى مساء ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ .. وعندما استمرت حرائق القاهرة ، تم إعلان حالة الطوارىء فى البلاد ..

وفى ضوء إعلان حالة الطوارىء هذه أقال الملك حكومة الوفد ، وعين على ماهر رئيسا للوزراء الذى أعلن بدوره على الفور أن المهمة الرئيسية لحكومته تهيئة الوضع للدخول فى مفاوضات مع الانجليز .. وتلى هذه الخطوة تعطيل الدستور وفرض رقابة شديدة على النشر ..

ولما كان على ماهر من المعروفين بعدائهم الشديد للانجليز فقد رفضوا إجراء أية مفاوضات مع من لا يعد موضع ثقتهم .. ووقع الملك على قرار إقالة مجلس الوزراء حين رفض على ماهر ، كما رفض النحاس من قبل .. وكلف الملك فاروق نجيب الهلالى بتشكيل الحكومة الجديدة .. وقد ولدت هذه الحكومة ضعيفة وبلا شعبية ، وعجزت تماما عن الإقدام على حل قضية إجلاء القوات البريطانية عن مصر وازدادت عزلة حكومة الهلالى بعد أن تقرر حل البرلمان ، الذى كانت غالبية أعضائه من الوفديين ، وأوقفت جلساته اعتبارا من ٢٧ يناير عام ١٩٥٢ ، وأخيرا سقطت حكومة الهلالى فى النصف الثانى من يونيو بعد أن استمرت فى الحكم أربعة شهور ونصف ..

وتم تكليف حسين سرى باشا بتشكيل وزارة جديدةبشرط تعيين كريم ثابت وزيرا فرفض ، وظلت البلاد بلا حكومة لفترة ، ولجأ الملك إلى حيلة أخرى فأخذ يهدد بتكليف بهى الدين بركات من المستقلين بتشكيل الوزارة ، فتراجع حسين سرى باشا ووافق على تعيين كريم ثابت وزيرا ..

وفى اليوم الرابع من يوليو عام ١٩٥٢ ، عقد مجلس الوزراء الجديد أول اجتماع له فى الاسكندرية المقر الصيفي للملك والحكومة .. وسعى الملك منذ الأيام الأولى لعمل

الحكومة الجديدة لإغلاق نادى الضباط الذى كان فى يناير عام ١٩٥٢ ، قد انتخب اللواء محمد نجيب رئيسا له .. وقد أغلق الملك النادى فعلا رغم محاولات رئيس الوزراء ، مما أدى إلى اتساع شعبية محمد نجيب والضباط الوطنيين .

وقد حاول حسين سرى من جديد إقناع الملك فاروق بالعدول عن سياسة قمع الضباط التى اعتبرها خطرا كبيرا يهدد النظام القائم ، وأوضح للملك ضرورة اتخاذ إجراءات عاجلة لاستيعاب المعارضة المنتشرة بين الضباط ، واقترح فى هذا الصدد تعيين الفريق عزيز المصرى أو اللواء محمد نجيب وزيرا للحربية ، إلا أن الملك اعتبر أن هذا سيكون إضعافا لمركزه ، وأصر على تعيين سرى عامر وزيرا للحربية ..

فقدم حسين سرى استقالته فى ٢١ يوليو عام ١٩٥٢ ، فقبلها الملك على الفور ، وكلف الهلالى مرة أخرى بتشكيل الوزارة ، فعكف نجيب الهلالى طوال اليوم التالى ٢٢ يوليو على اختيار بقية وزراء حكومته ، ولم يكن يعلم أن ساعات النظام قد أصبحت معدودة .. وأن الضباط الأحرار فى طريقهم إلى الملك وحاشيته ، حيث قام هؤلاء الضباط بحركتهم فى فجر اليوم الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢ ..

* * *

هذه حكاية الشارع السياسى المصرى قبيل ثورة يوليو .. ولن نتسائل عن مكانة أم كلثوم هذه الأيام والأيام التى قبلها أو بعدها .. لقد كانت أم كلثوم قريبة بقلبها من الحس العام للشارع السياسى المصرى آنذاك .. تسمع مثل غيرها من ملايين المصريين الذين عاشوا هذا العبث السياسى ، وسط جو مشحون بالغموض والمؤامرات .. ومن المؤكد أنها كانت تعرف ما يدور تحت سطح هذا الشارع السياسى الملتهب .. هناك فى صفوف الجيش المصرى وضباطه الوطنيين بقيادة جمال عبد الناصر قائد تنظيم الضباط الأحرار ..

وما دمنا قد اقتربنا من حديث هؤلاء الضباط .. علينا أن نتوقف ولو لحظات عند حكاية الشارع العسكرى ، وما كان يجرى فيه .. من إعداد لهذه الثورة أو هذا الانقلاب ..

وبداية نؤكد .. كما يؤكد غيرنا من المؤرخين .. أن معاهدة عام ١٩٣٦ ، قد حررت الجيش المصرى قليلا من السيطرة الانجليزية .. حيث لم يكن لمصر قبل هذا العام

جيش وطنى فى ظل الاحتلال البريطانى .. وقامت حكومة الوفد عام ١٩٣٦ ، ولأول مرة بفتح أبواب الكلية الحربية لجميع المصريين بصرف النظر عن أصولهم الاجتماعية .. وكان من شأن هذا الإجراء أن تحولت القوات المسلحة المصرية إلى جزء من سكان البلاد .. وعلى أثر هذا القرار التحق العديد من الشباب المصرى بالكلية الحربية تدفعهم المشاعر الوطنية المهانة من جراء استمرار احتلال الانجليز للبلاد ..

ومن قادة ثورة يوليو عام ١٩٥٢ وعددهم أحد عشر .. التحق ثمانية بالكلية الحربية عام ١٩٣٧ وهم : جمال عبد الناصر ــ محمد أنور السادات ــ عبد الحكيم عامر ــ عبد اللطيف البغدادى ــ جمال سالم ــ حسين الشافعى ــ زكريا محيى الدين ــ وصلاح سالم ..

أما حسن إبراهيم وكمال الدين حسين فقد التحقا بالحربية عام ١٩٣٨ ، وخالد محيى الدين عام ١٩٣٩ .. وبعد نجاح ثورة يوليو أصبح جمال عبد الناصر مؤسس وقائد حركة الضباط الأحرار ، أول حاكم مصرى لمصر .. بعد عدة قرون من الاحتلال .

ويؤكد الكثير من المؤرخين كما يؤكد أنور السادات ، أن ظهور تنظيم الضباط الأحرار قد ارتبط ارتباطا وثيقا بنشاط جمال عبد الناصر فى منقباد عام ١٩٣٩ ، حيث أسسوا فى بداية الأمر جمعية سرية تستهدف تحرير البلاد .. وقد لعبت حرب فلسطين عام ٤٨ ــ ١٩٤٩ دورا هاما فى تطوير وإنضاج حركة الضباط الأحرار وخاصة ــ حصار الفالوجا ــ وقضية الأسلحة الفاسدة .. حيث شكل جمال عبد الناصر فى نهاية عام ١٩٤٩ وبعد عودته من الجبهة أول لجنة تنفيذية للضباط الأحرار شارك فيها العديد من ضباط الثورة ..

وفى يناير عام ١٩٥٠ اختارت اللجنة التنفيذية للضباط الأحرار جمال عبد الناصر رئيسا لها أعيد انتخابه لنفس المنصب فى يناير عام ١٩٥١ ..

وفى ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ حيث الفوضى التى سادت مصر أثناء حريق القاهرة .. طرح هؤلاء الضباط قضية إمكانية تدخل الجيش فى ظل هذه الفوضى وهذا الافلاس السياسى .. وعقدت اللجنة التنفيذية للضباط الأحرار اجتماعا فى ١٠ فبراير ١٩٥٢ .. واتخذت قرارا بالتحرك فى مارس عام ١٩٥٢ .. إلا أن الضباط اضطروا إلى تأجيل القيام

بحركتهم نظرا لانشغال الغالبية من الجنود والضباط بالمقاومة الشعبية ضد الانجليز فى منطقة القناة ..

وتأجل الموعد إلى شهر أغسطس وبالتحديد فى اليوم الخامس من الشهر لسببين .. أولهما أن الضباط الأحرار قد فضلوا انتظار عدة أيام بعد بداية الشهر لاستلام رواتبهم ، وثانيا لحين عودة فوج المشاه ١٣ من فلسطين .. والذى من المفروض أن يلعب الدور الرئيسى فى تنفيذ الانقلاب .. إلا أن الظروف اضطرت الضباط للتبكير بتنفيذ الخطة .. وذلك لأن البوليس السياسى قام بأوامر من الملك فاروق بتكريس كل جهوده للكشف عن أسماء قادة الضباط الأحرار ..

من أجل ذلك تم تحديد مساء يوم ٢١ يوليو للتحرك .. ثم تأخر الموعد ٢٤ ساعة لوضع تفاصيل دقيقة لمهمة كل وحدة من وحدات الجيش المشاركة فى الانقلاب .. وبالفعل تحرك الضباط فى ليلة الثالث والعشرين من نفس الشهر ، ونجحت تحركاتهم فى الاستيلاء على مقر قيادة الجيش بكوبرى القبة .. وتلاها العديد من الخطوات التى أكدت هذا النجاح .. باتخاذ قرار ترحيل الملك فاروق خارج البلاد يوم ٢٦ يوليو .. وقد أصدر هؤلاء الضباط بيانهم الأول باسم اللواء محمد نجيب القائد العام للقوات المسلحة ..

* * *

● هل غنت أم كلثوم بأمر عبد الناصر عام ١٩٥٤ ؟

يبدو من استعراضنا للأحداث السياسية والقومية والفنية فى مصر ، فى مطلع الخمسينات أن مؤشر العلاقة بين أم كلثوم وعبد الناصر .. كان فى ازدياد مستمر ابتداء من عام ١٩٥٣ ..

صحيح أن هذا المؤشر قد تعرض فى فترات كثيرة ، منذ قيام الثورة لهزات عديدة جعله يتأرجح صعودا وهبوطا ، وفقا لظروف الزعيمين عبد الناصر وأم كلثوم .. وربما يرجع ذلك إلى انتظار أم كلثوم لما سوف تسفر عنه الأيام ، والتى ستعقب حركة

الضباط الأحرار سواء بالسلب أو بالإيجاب .. رغم أنها بادرت من تلقاء نفسها لتأييد هذه الحركة وإعلان الوقوف بجانب أبطالها .. ورغم ما عانت منه من منع إذاعة أغانيها وحفلاتها فى أيام الثورة الأولى ..

أما بخصوص جمال عبد الناصر .. فكان هو الآخر بعيد عن أم كلثوم .. بحكم انشغاله وارتباطه بحركة الضباط الأحرار ، وإصراره على إثبات وجوده داخل مجلس قيادة الثورة .. ومع ذلك كان فى فترات الخصومة الأولى بين الثورة ، وبين أم كلثوم يتدخل فورا لإنهاء هذه الخصومة ، من أجل إعادة أم كلثوم إلى حظيرة الثورة وإثبات وجوده أمام أم كلثوم كزعيم ..

ولم تتوقف أم كلثوم عن ممارسة حياتها العامة .. بعدما قررت الرجوع إلى عالم الطرب حين اعترف رجال الثورة بوجودها وسمحوا لها بالغناء فى الاذاعة المصرية .. ولا شك أن جمال عبد الناصر كان صاحب الفضل الأول فى استعادة مكانتها على الساحة الغنائية فى مصر .. وكما ذكرنا لم يكن أبدا بعيدا عن توطيد علاقته بأم كلثوم من خلال مواقفه المشرفه تجاهها ، وتجاه استعادة مكانتها فى عالم الفن ..

فعبد الناصر .. لم ينسى لأم كلثوم موقفها حين قطعت إجازتها لتكون بالاسكندرية وبادرت إلى تأييد هذه الثورة .. وأم كلثوم أيضا لم تنسى لعبد الناصر ، تدخله فى الوقت المناسب لإعادة أغانيها مرة أخرى .. بعدما منعها مدير الاذاعة بسبب غنائها للملك ، معلنا أمام زملائه أنه يجب ألا ينسى الضباط الأحرار ، دور أم كلثوم فى إشعال الحماس والوطنية .. فهى مصرية وطنية وليست معادية للثورة .

وقد اتصل جمال عبد الناصر بأم كلثوم كى يخبرها بأن أغانيها ستذاع ، وأنه يجب أن تستعد من الآن لتقديم أغان وطنية جديدة ..

كما لم تنسى أم كلثوم لعبد الناصر وقوفه معها فى مرضها .. حيث كانت قد اصيبت قبل الثورة بالغدة الدرقية .. وسافرت للعلاج إلى الولايات المتحدة الأمريكية .. ولما بذلت أم كلثوم مجهودا نفسيا وعضليا كبيرا أثر على أحداث الثورة .. عاودتها الاصابة ووصلت إلى عينها مما اضطر طبيبها إلى أن ينصحها بضرورة العودة إلى الولايات المتحدة .. ولكنها نظرا لارتباطها بإحياء حفل وطنى لرجال الثورة أجلت السفر .. وفى

الحفل غنت قصيدة من كلمات الشاعر الراحل أحمد رامى .. ومن القاهرة رحلت أم كلثوم إلى أمريكا بعد الحفل لإجراء فحوص على عينيها وعلى الغدة الدرقية ..

وذات صباح ، فوجئت قبيل سفرها بمكالمة تليفونية من جمال عبد الناصر ، عرفت منه أنها سوف تعالج فى مستشفى البحرية الأمريكية .. وكان الرئيس السادات ضابط مجلس قيادة الثورة آنذاك هو الذى توجه لتوديعها فى مطار القاهرة بأمر خاص من جمال عبد الناصر أيضا .. وفى المستشفى فى واشنطن داوم جمال عبد الناصر ، وبقية أعضاء مجلس قيادة الثورة الاطمئنان على أم كلثوم بشكل يومى ..

* * *

فى هذا الوقت — وكما ذكرنا — خصص جمال عبد الناصر وقته كله من أجل تثبيت زعامته داخل مجلس قيادة الثورة .. حيث عمل بهمة ونشاط فى هذه الفترة لجذب أكبر عدد من الضباط لجانبه .. وكانت عينيه لا زالت مركزة على منصب رئيس الجمهورية الذى كان يتقلده فى هذا الوقت اللواء محمد نجيب وبالفعل اضطر اللواء محمد نجيب فى النصف الثانى من فبراير عام ١٩٥٣ إلى تقديم استقالته وقبلها مجلس قيادة الثورة وعين جمال عبد الناصر رئيسا للوزارة ..

وفى ١٨ يونيو عام ١٩٥٣ تم إعلان الجمهورية ، ونجح عبد الناصر فى تعيين أقرب أصدقاءه .. عبد الحكيم عامر قائدا عاما للقوات المسلحة .. وفى ١٧ ابريل عام ١٩٥٤ اختير جمال عبد الناصر للمرة الثانية رئيسا للوزارة ..

وفى تلك الفترة وقعت عدة أحداث سياسية .. ارتبطت بحرمان السياسيون السابقون من ممارسة حقوقهم السياسية وإغلاق بعض الصحف المصرية .. كما تم توقيع اتفاقية الجلاء الأولى فى يونيو عام ١٩٥٤ .. والتى تنص على خروج القوات البريطانية من منطقة القناة خلال عشرين شهرا .. وبقاء طاقم فنى مدنى من الخبراء الانجليز فى هذه المنطقة ..

وعلى أثر توقيع هذه الاتفاقية وما شابها من تسهيلات قدمها عبد الناصر للانجليز ذكرها فى حينها المؤرخون المصريون والعرب .. شن الاخوان المسلمون حملات ضد الثورة .. تتهم الضباط بالتآمر مع الانجليز ضد مصر ..

وفى ٢٦ أكتوبر عام ١٩٥٤ .. وقع حادث المنشية حيث كان جمال عبد الناصر يلقى خطابه حين أطلق عليه الرصاص .. وتم القاء القبض على المتهم .. وتبين وكما تقول التحقيقات أنه من الأخوان المسلمين ..

وعلى أية حال .. هناك خلاف حاد ما يزال قائما بين جماعات الاخوان ، وبعض المؤرخين المؤيدين لهم .. وبين بعض معارضى الثورة حول طبيعة هذا الحادث .. وشخصية مرتكبه .. المهم أن جمال عبد الناصر ، وبقية أعضاء قيادة الثورة اتخذوا من هذا الحادث ذريعة للتخلص من قيادات الاخوان المسلمين .. ليس هذا فقط بل أنه فى ١٤ نوفمبر عام ١٩٥٤ تم توريط اللواء محمد نجيب فى هذا الحادث وكشف ارتباطه بجماعات الاخوان ، ومن ثم كان ذريعة لتنحيته عن رئاسة الجمهورية وتم تحديد إقامته ..

وبذلك استطاع جمال عبد الناصر ورفاقه القضاء على جميع القوى المعارضة .. وفى نفس الوقت تم تعزيز موقعه داخل مجلس قيادة الثورة .. وبدأ على الفور عصر جديد .. احتل مواقعه الأولى جمال عبد الناصر ..

وهنا أيضا .. حين نبحث عن موقع أم كلثوم إزاء هذه الأحداث .. نجدها لم تبتعد كثيرا .. وإن كانت قد بدأت تهتم بحياتها الخاصة حيث اختارت شريك حياتها الدكتور حسن الحفناوى بعد عودتها من رحلة العلاج الأخيرة .. ولهذا الزواج قصة تقول :

لقد كانت أم كلثوم تتردد على عيادة الدكتور الحفناوى للعلاج ، منذ بداية عام ١٩٥٤ .. ثم تطورت هذه العلاقة العادية إلى اتفاق عاطفى ، ثم الزواج الذى تم بعد عودتها من رحلتها العلاجية فى عام ١٩٥٤ .. وكان قد تردد فى هذه الآونة ، أن أم كلثوم تم إبلاغها من قبل جمال عبد الناصر ، ومجلس قيادة الثورة بأول مهمة رسمية وطنية تتعلق بمستقبل هذه الثورة ..

فبعد حادث المنشية طلب عبد الناصر ورفاقه من أم كلثوم أن تغنى أغنية وطنية ، وقد قبلت أم كلثوم هذه المهمة ، فلجأت إلى الشاعر بيرم التونسى الذى كتب لها قصيدة يقول مطلعها :

ياجمال يامثال الوطنية — أجمل أعيادنا المصرية

وقام بتلحين هذه القصيدة رياض السنباطى .. إلا أن كاتبنا الكبير مصطفى أمين يدافع عن أم كلثوم فيما يتعلق بهذه الواقعة باعتبار أن مشاركتها فى حفل رجال الثورة .. لم يكن بأوامر من رجال الثورة أو من عبد الناصر .. بل كان من وحى إحساسها بالشعور العام الذى كان سائدا آنذاك .. حين نجى الرئيس جمال عبد الناصر من الموت ..

مثل هذا الموقف يجرنا حتما للحديث عن المواقف الوطنية العديدة التى عاشتها أم كلثوم وعبرت عنها فى أغانيها ..

هذه الأغانى وهذه القصائد التى كانت وقودا حماسيا للناس يرددونها فى المناسبات الوطنية العديدة التى تمر بهم .. وإن كنا لا نناقش هل اشتركت أم كلثوم بقصيدة « يا جمال يا مثال الوطنية » وإذاعتها رغما عنها .. أم برغبتها كما يقول الاستاذ مصطفى أمين ..

على أية حال .. إن الحديث عن وطنية أم كلثوم يجعلنا نعود إلى الوراء كثيرا من أجل أن نتتبع مشوار حياتها فى الغناء الحماسى المصرى ، حتى نعود ونلتقى مع أغانيها التى غنتها بعد الثورة .. ؟! ..

* * *

يقول الكاتب الصحفى كمال النجمى : لقد انسدل الستار على الغناء الوطنى والثورى فى مصر فى أواخر العشرينات بعد موت سيد درويش ، وتراكم الرماد على ثورة ١٩١٩ ..

ولكن الروح الوطنية انتعشت من جديد فى الثلاثينات قبل عقد معاهدة ١٩٣٦ فبدأت الأغانى الوطنية والأناشيد تظهر من جديد .. وإن لم تكن تحمل الثورية التى كانت لها خلال عواصف ١٩١٩ وسنوات الصراع الوطنى قبل موت سعد زغلول[1] ..

---

(١) الغناء المصرى – كمال النجمى ..

وقبل أن يتولى حزب الوفد الحكم متوجا رأسه بمعاهدة ١٩٣٦ ، اندفعت وزارة على ماهر حينذاك وراء موجة الحماسة الوطنية ، فأقامت مسابقة لتأليف نشيد قومى أسفرت عن فوز النشيد المعروف الذى ما يزال يتردد حتى الآن ومطلعة « بلادى .. بلادى فداك دمى » من تأليف محمود صادق .. وفاز معه نشيدان اشتهر أحدهما وهو من تأليف مصطفى صادق الرافعى .. وبعد أن أصبح نشيد بلادى .. بلادى فداك دمى النشيد القومى الرسمى ، بدأت موجة خفيفة للأناشيد الحماسية تزحف على أفلام السينما المصرية ودواوين الشعر والزجالين .

وكان نشيد « الجامعة » الذى لحنه السنباطى وغنته أم كلثوم فى فيلم « نشيد الأمل » عام ١٩٣٦ من آثار تلك الموجة الخفيفة للأناشيد الوطنية وهو من تأليف شاعر الشباب أحمد رامى ..

والحقيقة أن أناشيد الثلاثينات كانت نسخة واحدة مكررة يتناولها الشعراء ، بحسب مقدرة كل منهم على النظم ، بلا اختلاف جوهرى فى مضمون الكلام .

وفى فيلم « دنانير » غنت أم كلثوم نشيدا وطنيا آخر عن بغداد حيث كان الفيلم يروى قصة مطربة بغدادية قديمة فى عصر هارون الرشيد[١] ..

ولم يقتصر نشاط أم كلثوم الفنى فى مجال الأغنية الحماسية على الأفلام ، بل أقدمت على تقديم نوعية جديدة من الأفلام الحماسية والوطنية ، فجربت أن تتغنى بالوطن غناء عاطفيا أو شبه عاطفى .. من ذلك أغنيتها التى لحنها زكريا أحمد وغنتها فى فيلم « عايدة » عن القطن المصرى ..

وفى بداية الأربعينات وبعد إنشاء الدعوة إلى إنشاء الجامعة العربية غنت أم كلثوم أول قصيدة عروبية أحيت بها حفلة أقامها مندوبو الدول العربية فى بداية تأسيس الجامعة ..

ومن أبيات هذه القصيدة :

هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم   فصافحوها تصافح نفسها العرب

وكانت لهذه القصيدة ضجة فى حينها ، فقد كانت أول قصيدة تتناول العروبة وتغنيها

(١) المصدر السابق ..

أم كلثوم ويلحنها الشيخ زكريا أحمد ومن تأليف الشاعر المرحوم محمد الأسمر ..

* * *

ثم انتهت الحرب العالمية الثانية ، ونهضت مصر تطالب الانجليز بالجلاء عنها .. فانتشرت الأناشيد والأغانى الحماسية ، وكان أشهرها بيت أحمد شوق الذى غنته أم كلثوم من قصيدة « سلو قلبى » ..

ومانيــل المطالــب بالتمنــى　　　ولكــن تؤخـذ الدنيـا غلابـا

وكانت كلمة « المطالب » هى مفتاح الحماسة فى هذا البيت ، لأن الأهداف الوطنية كان اسمها فى ذلك العهد « المطالب الوطنية » .. كما كان بعضهم يسميها « الأمانى الوطنية » ..

ثم توالت القصائد الحماسية تغنيها أم كلثوم من شعر شوق وأشهرها فى تلك الأيام قصيدة « النيل » وقصيدة « السودان » ..

وفى الخمسينات الأولى وقبيل ثورة يوليو كان الهدف إلغاء معاهدة عام ١٩٣٦ .. عندئذ غنت أم كلثوم أبياتا من قصيدة الشاعر الكبير حافظ إبراهيم والذى يقول فيها : « وقف الخلق ينظرون جميعا كيف أبنى قواعد المجد وحدى » .

ويقول كمال النجمى : أن رياض السنباطى قد بلغ فى تلحين هذه الأغنية الوطنية قمة النجاح فى الملاءمة بين الحماسة والتطريب ، ثم جاءت ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ .. وفى بدايتها حيتها أم كلثوم بقصيدة من شعر أحمد رامى وألحان رياض السنباطى أيضا .. يقول مطلعها :

مصـر التـى فى خاطـرى وفى دمـى　　　أحبهـا من كـل روحـى ودمـى

وتدفقت ثورة ٢٣ يوليو ، وتدفقت معها الأغانى والأناشيد الوطنية ، وكان لأم كلثوم نصيب كبير فى هذه الأغانى وهذه الأناشيد .. فبعد أن غنت قصيدة « يا جمال يا مثال الوطنية » بعد أحداث عام ١٩٥٤ توالت القصائد التى غنتها أم كلثوم فى مناسبات وطنية عديدة نذكر منها هذه القصائد :

ـ والله زمان يا سلاحى ..

ـ محلاك يا مصرى .

ـ ثـــوار ..

ـ الزعيم للشعب وفى العهود ..

ـ طوف وشوف ..

ـ على باب مصر ..

ـ الحب الكبير .. .

وهذا يعنى فى المقام الأول .. أن أم كلثوم كانت بالفعل تنتظر هذا الحدث القومى الذى تمثل لها ولغيرها من المصريين كمنقذ من الاستعمار والملك والحاشية ، سواء كان قائده جمال عبد الناصر أو غيره ..

ولكن الموقف فى تصورنا قد تغير كثيرا حين استطاع جمال عبد الناصر أن يحصد كل ما حوله ويصبح هو السيد والآمر الوحيد داخل مجلس قيادة الثورة وداخل مصر كلها .. من يومها فقط نظر جمال عبد الناصر إلى أم كلثوم كأداة يمكن أن تكون طيع يديه من أجل مؤازرته فى تحقيق أحلامه الشخصية والوطنية .. مستغلا فى ذلك تأثيرها السحرى على الشعب المصرى .. ثم تأثيرها فيما بعد على الشعب العربى كله ..

ويبدو أن صمت جمال عبد الناصر أثناء مقابلته الأولى لأم كلثوم فى فيلتها بالزمالك عشية رجوعه هو وزملائه من حصار الفالوجا ، كان صمت تأمل وتفكير فى القادم القريب .. وكيف لو نجح فى مهمته الثورية أن تكون بجواره سيدة الغناء العربى أم كلثوم .. تلك السيدة التى يحبها الشعب كله ، ولا فرق فى ذلك بين الأمير أو الغفير ..

ومما يؤكد نظرتنا هذه .. أن جمال عبد الناصر قد اختار لأم كلثوم مهمتها الوطنية الأولى من أجل حفر اسمه وحبه داخل نفوس المصريين عشية حادث المنشية .. وغنت له .. « يا جمال يا مثال الوطنية » .. هذه المهمة كانت تحت سمعه وبصره وبتوجيهات خاصة منه ... رغم أننا لم نناقش أو نعارض دفاع الأستاذ مصطفى أمين عن أم كلثوم فى هذا الموقف الوطنى ، حيث رأى أن أم كلثوم كان دافعها فى غناء هذه القصيدة إحساس

وطنى غلب عليها مثل آلاف المصريين الذين تأثروا بحادث المنشية ، واحتفلوا بنجاة قائد الثورة وأول رئيس جمهورية لمصر منذ حكم الفراعنة ..

وكان جمال عبد الناصر فى فترة ما قبل فوزه بكل مناصب القيادة والرئاسة .. يحاول التقرب من أم كلثوم بشتى الطرق .. وكم دافع عنها .. من أجل إذاعة أغانيها بعد ما قرر بعضهم منعها من الاذاعة .. كما ساهم كثيرا فى سفرها إلى الخارج للعلاج .. ولا شك أن هذه المجهودات الطبية من جانب جمال عبد الناصر لاقت الصدى الطيب فى نفس أم كلثوم لأنها وجدت من يدافع عنها ويخدمها ، وسط هذا المد الثورى الذى كان يقتلع أمامه كل شىء حتى المبادىء والأخلاق وكله من أجل تأكيد المفهوم الثورى فى نفس الإنسان المصرى الذى أعمته شعاراتها المزيفة ومشى وراءها مسلوب الارادة ..

ويبدو أن أم كلثوم قد نجحت فى الاختبار الذى وضعه لها جمال عبد الناصر .. وكان بدايته قبولها أن تغنى قصيدة باسمه تشدو بها على الملأ ويرددها الناس فى مجالسهم الخاصة .. وربما كانت هذه سنة صارت من بعد جمال عبد الناصر فى ذكر اسم الرئيس فى أغانى المطربين ..

● لم يجد أمامه سوى فيلا أم كلثوم لحماية أسرته عام ١٩٥٦ :

ويظل مؤشر العلاقة بين أم كلثوم وعبد الناصر فى تصاعد مستمر .. فبعد أن نجحت فى اختبار عام ١٩٥٤ .. اقتربت أم كلثوم أكثر من قلب وعقل جمال عبد الناصر وأحس بقيمتها فى تنفيذ سياسته والترويج له داخل نفوس وعقول المصريين .. ثم فى عقول ونفوس العرب فيما بعد .. هذا التقارب استطاع جمال عبد الناصر أن يحوله إلى تقارب عائلى بين أم كلثوم وزوجها الدكتور الحفناوى وبين أسرته وأولاده الصغار آنذاك ..

من ناحية أخرى بدأ جمال عبد الناصر الاهتمام بأم كلثوم وتتبع آخر أخبارها الفنية .. بل والتدخل فيما بعد فى مسيرة هذه الحياة الفنية .. وكلنا نعرف قصة إقناع عبد الناصر لعبد الوهاب من أجل إتمام عمل فنى مع أم كلثوم .. والذى أثمر أخيرا عن قصيدة

« أنت عمرى » وكان ذلك بعد عدة سنوات من توطيد العلاقة بين كل من الزعيمين ..

ورويدا رويدا نقترب من عام ١٩٥٦ .. وبعد مرور أكثر من أربع سنوات على قيام الثورة .. هذا العام الملىء بالأحداث السياسية والعسكرية ، على المستويين المحلى والدولى ، والذى كان فى قمته العدوان الثلاثى الذى وقع على مصر فى أكتوبر عام ١٩٥٦ ..

وفى أثناء بحثنا عن العلاقات الخفية بين جمال عبد الناصر وأم كلثوم .. عرفنا بالمصادفة أن جمال عبد الناصر .. لم يجد أمامه مكاناً آمناً لحماية أسرته سوى فيلا أم كلثوم .. وقد اختلف الرواة فى تحديد الوقت الذى وقعت فيه هذه الحادثة . بعضهم رأى أنها وقعت فى أثناء حرب عام ١٩٦٧ .. أما البعض الآخر وهم الأكثر رأيا والأصوب على وجه الترجيح - وعلى رأسهم الكاتب مصطفى أمين والمحامى الأديب صلاح الأسوانى - الذين يرون أن هذه الواقعة قد ارتبطت بالعدوان الثلاثى على مصر ..

من أجل ذلك انطلقنا نبحث عن تفاصيل هذه الواقعة التى أكدها لنا الكاتب مصطفى أمين .. مؤكدا أن جمال عبد الناصر فى أثناء العدوان الثلاثى فى عام ١٩٥٦ ، لم يجد أمامه مكانا آمنا فى مصر كلها على حياة أسرته سوى فيلا أم كلثوم بحى الزمالك ..

* * *

ولكن .. ما هى حكاية العدوان الثلاثى على مصر .. هذا ما سوف نحاول إلقاء الضوء عليه ، من خلال تواريخ مسجلة فى السجلات العسكرية .. أوردها لنا موثقه القائد اللواء عبد المنعم خليل ..

يرى العديد من المؤرخين السياسيين والعسكريين ، أن العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ .. كانت له جذور عميقة ربما تمتد إلى ما بعد قيام ثورة يوليو بعدة أشهر .. ويرى البعض الآخر أن هناك أسبابا أخرى قد زودت رغبة الغرب واسرائيل بالذات فى إتمام مثل هذا العدوان .. بعضها يتعلق باتفاقية الجلاء مع بريطانيا ورفض عبد الناصر الارتباط مع أى حلف من الأحلاف العسكرية التى كانت قائمة آنذاك .. والبعض الآخر يتعلق باتجاه عبد الناصر منذ عام ١٩٥٥ إلى الكتلة الشرقية وعقد صفقة الأسلحة

التشيكية .. إلا أن أكثر الأسباب التى عجلت بهذا العدوان هو تأميم قناة السويس ..

على أية حال .. لقد كانت الحرب مازالت قائمة بين مصر وإسرائيل .. التى أقامت الدنيا ضد عبد الناصر .. بسبب توقيعه لصفقة الأسلحة التشيكية عام ١٩٥٥ وإدعاء إسرائيل أن عبد الناصر يسعى إلى استخدام هذه الأسلحة لتدميرها وبالفعل كانت مصر تقف منذ قيام الثورة ضد إسرائيل بشكل عملى أذهل العالم كله .. فقد منعت جميع سفنها من المرور فى قناة السويس .. كما فرضت حصارا بحريا على مضايق تيران منذ عام ١٩٥٣ .. كما منعت تحليق الطائرات الاسرائيلية فوق المضيق منذ عام ١٩٥٥ ..

وجاءت الضربة القاصمة للغرب كله ولاسرائيل على السواء .. حين أعلن عبد الناصر فى السادس والعشرين من يوليو عام ١٩٥٦ تأميم قناة السويس وأنهى بذلك آخر معاقل الوجود الأجنبى فى مصر بعد نجاحه فى توقيع اتفاقية الجلاء عن مصر فى يونيو عام ١٩٥٦ ..

وعلى أثر الأحداث السياسية والعسكرية .. تم الاتفاق بين فرنسا واسرائيل خلال أغسطس عام ١٩٥٦ على الغزو المشترك لمصر .. كما بدأت وزارة الدفاع البريطانية التخطيط لعملية قناة السويس(١) ..

وفى سبتمبر عام ١٩٥٦ استعدت القوات الفرنسية البريطانية المشتركة للعدوان ، إلا أنه تم تأجيل بدء العملية العسكرية ضد مصر ، حتى تستعد القوات الاسرائيلية للمشاركة فى هذا العدوان ..

وفى ٢٩ أكتوبر هاجمت القوات الاسرائيلية بالفعل منطقة قناة السويس حيث أسقطت كتيبة مظلات شرق ممر متلا قبل غروب شمس نفس اليوم على أن تلحقها القوة الرئيسية فى مساء نفس اليوم أيضا .. وقد نجحت القوات المصرية فى التعامل مع هذه الكتيبة وأربكت أعمالها وأحدثت بها خسائر فادحة وعطلتها عن إتمام مهمتها .. كما عطلت تقدم القوات الرئيسية بقيادة شارون حتى نهاية اكتوبر عام ١٩٥٦ ..

وفى ليلة الثلاثين والواحد والثلاثين من شهر أكتوبر وبعد أن تأكدت اسرائيل من

(١) حروب مصر المعاصرة ـ المصدر السابق ..

تدخل القوات البريطانية والفرنسية .. دفعت اسرائيل بثلاث لواءات .. اثنان مشاه وواحد مدرع تعاونها مدفعية الميدان والقوات الجوية الإسرائيلية فى أبو عجيلة عدة مرات ، لكنها باءت بالفشل لصمود القوات المصرية هناك ..

وفى السادسة من مساء اليوم الثلاثين من أكتوبر عام ١٩٥٦ وجهت بريطانيا وفرنسا إنذارا رسميا لمصر بضرورة الاستجابة لعدة مطالب منها : وقف الأعمال الحربية .. وانسحاب القوات المصرية إلى الضفة الغربية لقناة السويس ، وأن تقبل مصر مؤقتا احتلال بور سعيد والسويس والاسماعيلية من جانب القوات المشتركة ، حتى يمكن الفصل بين القوات المتحاربة المصرية والاسرائيلية ..

وكان مطلوب الرد خلال ١٢ ساعة فقط على هذا الانذار .. وبالطبع رفضت مصر الانذار البريطانى الفرنسى .. فبدأ العدوان من جديد ..

إذ فى الساعة السابعة من مساء ٣١ أكتوبر عام ١٩٥٦ بدأ الطيران البريطانى والفرنسى فى قصف القواعد الجوية المصرية فى كل مكان حتى مطار القاهرة الدولى ..

وفى صباح أول نوفمبر ١٩٥٦ والأيام التالية تكرر القصف الجوى للقواعد الجوية المصرية من قبل القوات البريطانية والفرنسية فى الدلتا ومنطقة القناة .. وعلى أثر هذا الهجوم أصدرت القيادة العليا للقوات المسلحة قرار انسحاب القوات المصرية من سيناء لتفادى عزلها عن الكماشة الاسرائيلية الفرنسية البريطانية ..

وفى ٥ نوفمبر من نفس العام تم إسقاط قوات مظلية بريطانية فرنسية على الضفة الشرقية لقناة السويس ..

وكانت المقاومة المصرية للقوات المسلحة والشعب البور سعيدى ضد قوات الغزو مثالا رائعاً للبسالة والشجاعة رغم التفوق التكنولوجى لقوات العدو المشترك آنذاك ..

وفى منتصف الليلة ٧ نوفمبر ١٩٥٦ صدرت الأوامر بالتوقف عن العمليات العسكرية .. وتوقف القتال بعد ما أتمت اسرائيل احتلال شبه جزيرة سيناء والتى لم تنسحب منها إلا فى مارس عام ١٩٥٧ وحل محلها قوات الطوارىء الدولية فى رفح وقطاع غزة وشرم الشيخ .. أما القوات المشتركة الفرنسية ــ البريطانية فقد تم انسحابها عائدة إلى بريطانيا فى ديسمبر عام ١٩٥٦ ..

ورغم أن مصر آنذاك لم تحقق نصرا عسكريا ، ولم تفشل عسكريا فى نفس الوقت إلا أن هذا العدوان ، قد دعم كيان وتواجد جمال عبد الناصر فى نفوس الناس .. وأثار شهية العالم المترقب لهذه الأحداث .. بعد ما نجح عبد الناصر من قبل فى الوصول إلى مؤتمر باندونج واتباعه ما سمى آنذاك بسياسة الحياد الايجابى ..

* * *

ولا زلنا فى رحلب واقعة إرسال أسرة جمال عبد الناصر إلى أحد المنازل لحمايتها من هول القصف الجوى الذى كان يخشى عبد الناصر على نفسه أن تطوله أو تطول أسرته إحدى هذه القذائف ..

ولعلنا نتساءل عن موقع أم كلثوم من هذا الحدث العسكرى والسياسى الخطير .. ويتبادر إلى الذهن التساؤل عن وجودها على خريطة الحياة العامة فى مصر آنذاك وموقفها من هذا العدوان .. وتقول أم كلثوم فى أوراقها الخاصة عن هذا العدوان وهذه الحرب :

ـ فى عام ١٩٥٦ كانت صفارات الإنذار تطلق منذرة بالغارة ، أخرج إلى الشرفة حين يجب أن أختبىء .. وأبحث عن الطائرات فى السماء ، وأتمنى لو تطولها يدى .. وأراقب بفرحة طفولية مدافعنا وهى تحاصرها وتجبرها على الفرار أو الاختفاء فى أعلى طبقات الفضاء .. فرحة يلهث لها صدرى وأنا أردد دعاء النصر .. وكنت أحس أننى أريد أن أغنى .. وأحارب بصوتى .. وجاءنى كمال الطويل بنشيد « والله زمان يا سلاحى » وحفظته على أضواء الشموع لأن الكهرباء كانت تنقطع عندما تبدأ الغارة ..

وبدأنا الاتصال بالموسيقيين ليذهبوا إلى محطة الاذاعة فى الشريفين لتسجيل النشيد .. ولكن أكثرهم رفض الذهاب إلى الشريفين لأن إذاعة إسرائيل كانت تهدد بضربها بعد ما أصابت إذاعة أبو زعبل .. وقلت لهم اننا لو لم نسجل فى القاهرة فسوف أسجلها فى بنها أو أسيوط وطلبت ستديو مصر واتفقنا على تسجيلها هناك ..

الدنيا ليل وظلام ، ولكن بلا خوف ، بل بثقة وإيمان وحماسة تبدد كل ما تردد .. أرسل لى الزعيم جمال عبد الناصر سيارة من سيارات رئاسة الجمهورية ، وكان يقودها سائقه الخاص .. هذا جواز مرور أكيد المفعول لأن المرور كان ممنوعا ، وكان

معى فى السيارة المهندس محمد الدسوقى ابن شقيقتى ، وكمال الطويل والسائق لا يريد أن يتوقف فهو سائق الزعيم .. كيف يستوقفه الجنود ..

على أنه كان يضطر للوقوف حين أقول له من داخل السيارة قف .. ولا يكاد يقول من هو حتى ترتفع أيدى الجنود له بالتحية ويفتح له الطريق .. وسجلنا النشيد الذى بقى ليسجل للأجيال .. وأصبح من بعدها نشيد المعركة العربية فى كل أرض عربية .. والنشيد الوطنى لمصر ..

* * *

تزوج جمال عبد الناصر فى عام ١٩٤٣ وأنجب بنتان هما هدى ومنى وثلاثة أولاد هم : خالد وعبد الحميد وعبد الحكيم ..

وحين بدأت القوات المشتركة لبريطانيا وفرنسا فى قصف المواقع العسكرية والمدنية بالقاهرة وغيرها من مدن مصر ، أثناء العدوان الثلاثى .. فكر عبد الناصر فى مكان أمين لحماية أسرته من هول هذا القصف ، لأنه اعتقد أن طيران العدو حتما سيفكر فى قصف منزله الذى كان يعيش فيه بمنشية البكرى ..

وقد اختلفت روايات الرواة فى الحديث عن الطريقة التى أرسل بها جمال عبد الناصر أسرته إلى مكان آمن .. هناك فى حى الزمالك على الضفة الغربية لنيل الجيزة .. كما أختلفوا فى تحديد هذا المكان .. بعضهم يرى أن جمال عبد الناصر ، قد أرسل أسرته على الفور ودون سابق ترتيب إلى فيلا أم كلثوم بالزمالك باعتباره مكان أمين فى ظل هذه الظروف العسكرية المعاكسة ..

والبعض الآخر يرى أن جمال عبد الناصر حين أرسل أولاده إلى حى الزمالك لم يكن يعرف أن المكان الذى نزلت به أسرته يجاور فيلا أم كلثوم .. ولا شك أن هذه الرواية الأخيرة لا يصدقها أحد .. فكيف لا يعرف الزعيم بعد أربع سنوات من قيام الثورة حى الزمالك وكل بناياته .. رغم أن هذا الحى كان معروفا قبل الثورة بضاحية الفئات الارستقراطية ..

ورغم أننا وكما قلنا أنها رواية قابلة للتشكك إلا أننا نرويها كما سمعناها من الكاتب الكبير مصطفى أمين .. الذى قال عن هذه الواقعة :

حين بدأت القوات الجوية الفرنسية والانجليزية فى قصف المواقع العسكرية والمدنية داخل القاهرة .. أمر جمال عبد الناصر حرسه الخاص بنقل أولاده إلى مبنى حكومى محكم فى حى الزمالك .. من أجل إبعادهم عن جو المعركة وحفاظا على حياتهم .. وبالفعل رحلت أسرة عبد الناصر إلى حى الزمالك ، وفى المبنى الذى حدده جمال عبد الناصر ..

وتشاء الظروف وكما يروى مصطفى أمين أن يكون هذا المبنى الذى تقيم فيه أسرة جمال عبد الناصر بالقرب من فيلا أم كلثوم .. لقد كان هذا المبنى أحد البيوت أو القصور التى تم الاستيلاء عليها بعد قيام الثورة ..

المهم .. عرفت أم كلثوم بمكان أسرة الزعيم .. وعلى الفور بادرت بالاتصال بهم .. وقدمت لهم كل الرعاية والعون .. وظلت هذه الأسرة فى هذا المبنى المجاور لفيلا أم كلثوم أياما طويلة حتى أنتهى العدوان ورجعوا إلى منزلهم من جديد بمنشية البكرى ..

ويواصل مصطفى أمين روايته بقوله :

ـ إن مثل هذه الرعاية التى أولتها أم كلثوم لأسرة عبد الناصر ، قد تركت فى نفس الزعيم أثرا طيبا خاصة حينما عرف أن أم كلثوم ، كانت الوحيدة التى وقفت بجوار أسرته فى هذه المحنة .. ومنذ هذه اللحظة زاد ارتباط أم كلثوم بعبد الناصر .. وتحولت العلاقة بينهما إلى علاقة عائلية .. وعلاقة خارج البروتوكول وخارج المكاتب .. لقد كان عبد الناصر يتصل يوميا بأم كلثوم ، وبالتالى أم كلثوم كانت تزور منزل الزعيم من حين لآخر فى منشية البكرى ..

أكثر من ذلك أن الكاتب مصطفى أمين يرى أن هذا الحادث بالنسبة لأم كلثوم وعبد الناصر قد أذاب ما بينهما من فوارق ، الأمر الذى جعل أم كلثوم تحرص كل الحرص على إحياء المناسبات السعيدة فى منزل جمال عبد الناصر .. كما أصبحت .. صديقة لزوجته السيدة الراحلة

وهذا هو الاختيار الثانى لأم كلثوم من جانب عبد الناصر ورفاقه ، بصرف النظر عن مناقشة ، أهى الصدفة التى كانت وراء لقاء أم كلثوم بأسرة عبد الناصر ، أم الترتيب المسبق .. ولا شك أن أم كلثوم كانت قد نجحت فى هذا الاختيار بدرجة ممتاز .. وعبرت من خلال هذا الاختبار حاجز الخوف والتردد فى إقامة علاقتها مع الزعيم المرعب جمال عبد الناصر والذى بدأ نجمه يسطع حينا بعد حين ..

وكان هذا الاختبار قد أُعد إعداداً محكماً لأم كلثوم من جانب رفاق عبد الناصر للتعرف على مدى ولائها للثورة وللزعيم .. ولاشك أن أم كلثوم إزاء هذا الموقف قد تصرفت بحكمة وذكاء ووطنية ..

الأمر الذى جعل تصرفها حيال أسرة عبد الناصر تصرفا إنسانيا ووطنيا بصرف النظر عن رؤيتها المستقبلية لتأثير هذا الموقف فى نفس عبد الناصر .. لأن أم كلثوم كانت فى حاجة إلى أن تعود إليها المكانة التى كانت قد وصلت إليها قبل الثورة . حين كانت تجالس الأمراء ، ويتقرب منها الملك حين سمح لها بأن تكون صاحبة العصمة ، ومنحها وسام الكمال الملكى ..

إن الأيام والروايات التى سوف نسوقها هنا بعد الانتهاء من هذا الفصل سوف تفصح عن وجهة نظرنا هذه ، بل وتكون خير دليل لما ذهبنا إليه ، لأننا سوف نجد أن عبد الناصر قد تدخل كثيرا فى حياة أم كلثوم الفنية .. وكانت بمثابة الواجهة الحضارية التى يعرض من خلالها عبد الناصر على ضيوفه الحياة الفنية فى مصر ..

الفصل الرابع

الفــول والكـــرة ... وأم كلثـــوم والإقـــتــراب مـــن عـــام ١٩٦٧

كان من المفروض حتى تتوفر الحيدة .. أن نبدأ عنوان هذا الفصل بالسؤال .. هل ؟..

هل كانت أم كلثوم أحد أسباب هزيمة عام ١٩٦٧ ؟.. بجانب الاستغراق فى إلتهام طعام الفول بكافة أصنافه .. وتوابعه من المأكولات الشعبية التى انتشرت وانتشر الإقبال عليها بعد قيام ثورة يوليو .. إذ اتضح من تتبعنا لبيانات استهلاك الإنسان المصرى .. أن الفول أصبح صاحب المقام الأول على مائدة المصرى ، مهما كان وضعه أو منزلته أو منصبه وأن الاستهلاك من هذا النوع من البقول ، قد زاد بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو .. بشكل يدعو للتساؤل .. !!!! ..

وليس مجال مناقشتنا هنا .. مدلول هذه الزيادة المفاجئة فى استهلاك الفول .. باعتبار أن الانسان فى مصر أصبح المشارك الفعلى للحيوان فى الصراع على طبق الفول .. طبعا مع الفارق فى التوقيت وطريقة التحضير ..

وليس « الفول » وحده هو العنصر المشارك لأم كلثوم فى هزيمة عام ١٩٦٧ .. بل هناك العنصر الثالث .. وهو انتشار كرة القدم إلى حد العصبية والجهل ..

هذا الهوس الذى كان يطل علينا برأسه ، وزاد عن الحد أيضا بعد ثورة ٢٣ يوليو .. فلم نعد نرى أو نسمع أى حديث مهما كان قائله ، إلا والقاسم المشترك فى هذا الحديث بعد الفول وأم كلثوم .. كرة القدم .. والأهلى والزمالك ..

لقد انتشرت هذه اللعبة فى كل مكان فى مصر وبسرعة خيالية .. فلم تترك شارع أو حارة أو قرية أو مدينة ، وساعد على زيادة هذا الهوس تشجيع رجال الثورة لهذه اللعبة .. بل وانضمام الغالبية العظمى منهم لهذا النادى أو ذاك .. وبذل العطايا والهبات للفائزين .. بل والحرص كل الحرص على حضور المباريات .. مما جعل الشباب يتطلع أولا إلى هذه اللعبة ليس على سبيل التشجيع .. بل على سبيل المشاركة الفعلية فى هذا النادى ، أو ذاك جلبا للشهرة والمال والنفوذ .. والتقرب من ذوى السلطان ..

إن الستينات من هذا القرن .. كانت فترة مليئة بالأحلام التى أضرت بمصر كثيرا .. فقد أصبح حلم كل شاب خلال هذه الفترة الزمنية القريبة ، أن يكون لاعب كرة قدم مشهور أو ممثلا أو مطرب مشهور .. ولم يعد فى حسبان هؤلاء الشباب وفقا لهذه النظرية .. أن يتفوق أحدهم فى علم ما ، أو يحصل على درجة علمية ينفع بها المجتمع .. أو يتقدم باختراع يحل به مشاكلنا ..

والحديث عن هوس هذه اللعبة ، قد لا يسعه مثل صفحات هذا الكتاب .. ولكننا نحاول أن نقترب من هذا الجنون الذى أطاح بمصر فى النهاية ، وعطل مواهب شبابها ..

لقد كان العديد من القادة يحرصون على تشجيع نوادى كرة القدم .. وتقديم المساعدات المالية والهدايا للفريق الفائز .. بل وصل الأمر إلى إصدار الأوامر العسكرية للأغنياء المغلوبين على أمرهم للمساهمة فى إثراء هذه الرياضة .. ودفع التبرعات والهبات للاعبين والنوادى ..

وليس هذا فقط .. بل حرصت العديد من هذه القيادات الانضمام إلى هذا النادى أو ذاك والتقرب من اللاعبين .. حتى أصبح الطابع العسكرى هو الغالب على هذه النوادى من كافة النواحى ، مما أثار شهية الشباب بضرورة الإسراع نحو تعلم هذه اللعبة لمجالسة مثل هؤلاء القوم ..

كما أصبح الناس فى يومهم وغدهم يبحثون عن البطل .. ويظل الحديث طويلا عن هذا الشاب أو ذاك ، الذى تمكن من إحراز الهدف .. مما أدى إلى إنتشار العصبية القبلية وتفرق الناس مع أو ضد هذا النادى .. والسبب الكرة اللعينة ..

وقد حاول بعض علماء النفس تحليل هذه الظاهرة فى حينها .. بالقول بأن سبب هذا الهوس والجنون الذى يجرى وراء قطعة من الجلد الملفوف .. هو افتقاد الشباب إلى القدوة ، وبحثهم الدائم عن البطل الذى يقلدونه .. وليس أمامهم إلا بطل كرة القدم ..

ولا شك أن الثورة وقادتها كانوا وراء نشر مثل هذا الهوس ، وهذا التعصب حتى ينسى الناس الهموم .. لا .. ليست الهموم بالضبط .. بل حتى ينسى الناس ما كان يحدث فى الظلام ليلا .. وتحت الأرض .. من تجاوزات بلغت حدا لا يصدقه عقل .. إنها أخطاء الثورة ، فى كافة المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ..

ولعلنا لا نغالى حين نقول أن هذا الهوس ، بدأ يدب بنشاط فى أوصال الشعب المصرى فى أوائل الستينات من هذا القرن .. بعدما تمكن جمال عبد الناصر من الانفراد بالحكم .. والقضاء على فلول المعارضة بكافة أشكالها .. ثم بعد أن قرر الانتقام من شخصية الانسان المصرى الكريم ، فى صور عديدة ، نعرف بعضها ولا نعرف البعض الآخر .. ويكفى أن نردد ما سمعناه عن زوار الفجر ، وظلام المعتقلات والتأميم والمصادرة .. وتحطيم كرامة الانسان المصرى بكافة الأشكال والطرق ..

ويرى بعض المؤرخين غير المصريين أن أم كلثوم كانت الضلع الثالث فى هذا المثلث المرعب ، الذى حاولت الثورة أن تزرعه فى نفس الانسان المصرى .. لنفس الأسباب والأغراض التى أوردناها منذ لحظات .. أى من أجل التعمية على مساوىء رجال الثورة وأفعالهم التى فاقت كل الوصف ..

وأقول أن أقوى الجهات التى كانت تردد هذا الاتهام .. هى إذاعة إسرائيل فى الفترة التى أعقبت إعلان العداء السافر بين جمال عبد الناصر وبين اليهود .. والذى كان من جرائه حرب فلسطين والعدوان الثلاثى ومن بعدهما هزيمة عام ١٩٦٧ وانتصارنا فى حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ..

لقد لعبت إسرائيل الدور البارز فى نشر هذه الدعاية بكافة الوسائل والطرق .. واستخدمت فى أسلوبها أحدث وسائل الاعلام المسموع والمرئى .. وجندت كل إمكانياتها من أجل أن تصل هذه المقولات إلى الانسان المصرى ، الذى كان دائم الأستماع إلى إذاعة إسرائيل ، التى كانت تحرص فى نفس الوقت على إذاعة أغانى أم كلثوم وبصفة قد تصل إلى حد الهوس .

وحين يتطرق حديث الهزيمة عام ١٩٦٧ .. لا يمكن أبدا أن نغفل الضلع الرابع لهذا المثلث .. إن جاز لنا أن نضيف ضلعا رابعا للمثلث فى حساب الرياضيات .. وهو جمال عبد الناصر نفسه .. سواء كان يعلم أو لا يعلم بما كان يفعله رجاله من ورائه أو من خلفه أو من أمامه .. ونحن نذكر هنا ذلك حتى نكون منصفين للوطن والتاريخ .. ولا يعيب الإنسان أبدا أن يخطىء .. ولم لا ؟.. فقد اعترف جمال عبد الناصر نفسه بأنه المسئول الأول والأخير عن هذه الهزيمة ..

* * *

وحين نترك الأضلاع السابقة لمثلث الهزيمة المروعة التى حاقت بنا عام ١٩٦٧ .. ونتحدث عن أم كلثوم ، والثورة وعبد الناصر لنعرف كيف وصل الذكاء أعلى درجاته داخل عقل عبد الناصر ، حين قرر أن يستخدم أم كلثوم كمؤسسة إعلامية مستقلة من أجل تدعيم الثورة والمبادىء وعبد الناصر ذاته فى نفوس وقلوب المصريين ، مستغلا فى ذلك هذا الحب الجنونى ، الذى كان يصيب الانسان المصرى وهو جالس يستمع إلى أم كلثوم سواء ليلا فى إحدى حفلاتها أو نهارا عبر الاذاعة ..

وسبق الحديث عن الاختبارات الصعبة التى مرت بها أم كلثوم حتى أمن لها عبد الناصر ورفاقه .. وعرفوا من هذه الاختبارات أنها خير من يصلح لهذه المهمة السياسية والثقافية والخداعية العظيمة من أجل نجاح الثورة واستمرارها ..

هذه الاختبارات كان أقساها فى فترة العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ .. حيث كان اختيارا إنسانيا وفنيا .. إذ أثبتت أم كلثوم ولاءها وحبها لعبد الناصر ولأسرته .. بل وانفعلت فنيا بالحدث وغامرت بحياتها ، من أجل تسجيل نشيد حماسى تحت وطأة

الغارات الجوية ، كى تشارك فى تنشيط وطنية الانسان المصرى والدعوة لعبد الناصر ورفاقه ..

وها هى تركب سيارة الزعيم وتجوب بها شوارع القاهرة أثناء هذا العدوان بل أكثر من ذلك أن النشيد الحماسى الذى غنته أصبح منذ اللحظة النشيد القومى لمصر .

ومن بعدها .. باتت أم كلثوم – وفقا لدورها كمؤسسة إعلامية – تنشر الحماسة داخل نفوس الناس .. من القصائد والأناشيد الوطنية والحماسية التى بدأت تغنيها حتى فى حفلاتها العامة .. ولم تكتف بذلك .. بل كانت أول مطربة بل .. وأول فنان مصرى أو عربى يزج باسم الرئيس فى الأغانى والقصائد ، حتى صارت من بعدها سنة سعى إلى استمرارها كل من جاء من بعده من الرؤساء .. وكانت وفقا لهذا الدور تكلف الشعراء والملحنين للبحث عن أفضل الكلمات والقصائد ، التى تبرهن من خلالها على مشاركتها فى أحداث مصر السياسية والعسكرية .. خاصة وبعد أن أطمأنت أم كلثوم لوضعها الجديد بعد الثورة واقترابها من الزعيم فى مصر .. وإحساسها بأنها أصبحت تشارك جمال عبد الناصر الأحداث التى تمر بها مصر بعد العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ..

* * *

فى هذا الوقت بات جمال عبد الناصر بعد عام ١٩٥٦ يسعى إلى تأكيد مكانته فى العالم الخارجى .. بعدما نجح فى تصوره وتصور الشعب المصرى ، وفقا لدور الاعلام القومى ، الذى بدأ ينشط بقوة فى هذه الآونة .. أنه أصبح زعيما عالميا تتطلع إليه الشعوب المقهورة تحت وطأة الاستعمار .. خاصة الدول العربية والافريقية وبعض دول آسيا .. وقد استطاع جمال عبد الناصر بالفعل أن يلعب دورا ، نختلف فى تحديد مداه أو نتفق على المستوى الدولى فيما يتعلق بآمال هذه الشعوب .. وقدم لهم النموذج الحيوى الذى من الممكن احتذائه فى سبيل ضرب القوى الاستعمارية ، وبالتالى التحرر من وطأة هذه القوى ..

وقد ركز جمال عبد الناصر جهاده فى هذا الميدان فى ثلاثة مجالات ، وكما يقول الدكتور أحمد شلبى .. أولهم فى مجال القومية العربية ، حيث عمل هو ورفاقه على

تصدير حركات التحرر المصرية إلى الدول العربية ، بحيث تستطيع أن تنهض وتثور وتحصل على استقلالها ، وقد كان حيث نجحت العديد من هذه الدول فى الحصول على استقلالها ، وبمباركة وتأييد وإمكانيات جمال عبد الناصر ..

أما المجال الثانى الذى ركز عليه عبد الناصر فى انتشاره على المستوى الدولى هو قارة افريقيا ، إذ صدر إليها كذلك حركة التحرر ، وقدم لأغلب دولها النموذج الثورى الذى يمكن أن يكون طريقها نحو الحصول على الاستقلال .. وقد كان إذ تمكنت العديد من هذه الدول من الحصول على استقلالها .. ومن ثم أقنع رؤساء هذه الدول بضرورة تكوين ما أسماه بمنظمة الوحدة الافريقية ..

وثالثا : المجال الإسلامى .. وإن لم يكن قد أحرز فيه نجاحاً مماثلا لأسباب كثيرة بعضها معروف والبعض الآخر مجهول ..

هذه الميادين التى ركز على اجتياحها عبد الناصر فى الفترة التى تلت ١٩٥٦ ، وسانده فى هذا الاجتياح إعلام ناجح من كافة النواحى .. لم تكن هدفه الأول والأخير .. بل مد جذور حركاته الثورية إلى أبعد من ذلك ، حيث بدأ بعلاقة سياسية هادفة مع أندونيسيا ، وتم ما اصطلح على تسميته آنذاك بالحياد الايجابى ..

ليس هذا فقط .. بل فرغ جمال عبد الناصر نفسه من أجل مد جذور علاقاته بالشرق ، والذى نعنيه هو الشرق صاحب الاشتراكية والماركسية والشيوعية ، والمتمثل فى تشيكوسلوفاكيا أولا .. ثم الصين والاتحاد السوفيتى رائد الشيوعية الأول آنذاك ..

هذا النجاح كان مثار قلق شديد للدول الغربية ، ومن بعدها الولايات المتحدة الأمريكية ، لأن المؤرخين آنذاك اعتبروا أن جمال عبد الناصر هو صاحب الفضل فى إخراج الدب السوفيتى الشيوعى من بحر البلطيق حيث الحصار العربى ، والسماح له بالانتشار بأفكاره إلى افريقيا عن طريق بوابة مصر الناصرية ..

ولا شك أن إقدام جمال عبد الناصر على مثل هذه الخطوة ، كان بداية دق مسمار فى نعشه ونعش المصريين جميعا على كافة المستويات داخليا وخارجيا ..

لأن جمال عبد الناصر رأى من خلال تأكيد علاقاته بالشرق الشيوعى أن ينقل تجاربهم الغبية على المجتمع والانسان المصرى إلينا .. وكان ما كان من التأميم والمصادرة وخلافه ..

* * *

وكان لابد إزاء هذه التطورات الخطيرة فى واقع المجتمع المصرى ، فى كافة نواحيه أن تنشط المؤسسة الاعلامية الأولى آنذاك ، وهى أم كلثوم .. وتوابعها حيث أضلاع المثلث المرعب ، الذى كونت كرة القدم رأسه المسمومة ، وضلعيه الفول والطرب ..

وفى الحقيقة أن رجال الثورة ومن فوقهم جمال عبد الناصر ، كانوا فى غاية الذكاء فيما يتعلق بدور هذه المؤسسة وكيفية التعامل معها .. فلم تكن أم كلثوم وحدها داخل هذه المؤسسة .. بل سعى رجال الثورة إلى تنشيط المؤسسة ، وإضافة أعضاء جدد إليها .. وكان تركيزهم آنذاك على الشباب المقبل على الحياة فى عالم الفن سواء فى مجال الشعر ، أو التلحين أو الغناء ..

حينئذ ظهر عبد الحليم حافظ ، وفريد الأطرش ، ومحمد عبد الوهاب وآخرون .. وكلهم يغنون للثورة ولرجالها .. وقد احتفظ عبد الناصر لأم كلثوم بدور الزعيم داخل هذه المؤسسة الاعلامية الخطيرة .. حيث كان يوليها برعايته الشخصية ، ويتدخل كثيرا فى توجيهها نحو الفن الهادف من وجهة نظره هو .. كما كانت المطربة الأولى دائما التى جعلها قبلة الزائرين من الضيوف العرب والأجانب ..

ليس هذا فقط .. بل سعى جمال عبد الناصر بذكائه الحاد إلى فتح أسوق جديدة لصوت أم كلثوم .. وكثيرا ما كان يربط بين صوته فى خطاباته ، وصوتها فى الغناء الذى يعقب كلمات الخطاب ..

وكما ذكرنا من قبل .. فقد نجح جمال عبد الناصر فى أن يكون نصير الحرية والاستقلال للدول العربية والأفريقية ، وبعض الدول الإسلامية ..

ومن هذا المنطلق .. كان جمال عبد الناصر وأم كلثوم فى كفة واحدة .. داخل أية دولة عربية .. من حيث حرص المواطنين هناك على سماع صوت عبد الناصر ، وهو يخطب ويشتم فى العالم شرقه وغربه فى كل المناسبات الوطنية .. وفى الليل .. يسهر هؤلاء على صوت أم كلثوم التى باتت من حرص الناس على سماعها ، أن أصبحت توازى كلمات خطاب جمال عبد الناصر ..

فما كاد عام ١٩٥٩ ينصرم .. ويأتى من بعده عام ١٩٦٠ حتى استدار جمال عبد الناصر إلى تأكيد ذاتيته ، مستغلا فى ذلك أم كلثوم ورفاقها من أهل الفن من أجل تحقيق أهداف عديدة ومتنوعة .. على وجه الخصوص فى الداخل حتى لا يشعر الناس بما كان يحدث لجيرانهم وأشقائهم وأقاربهم ، إلى درجة أن تحول الناس بفعل هذا المخدر إلى مجرد إنسان يصفق فقط .. بينما الأغلبية هناك تئن تحت وطأة ضربات الكرابيج والأحذية .. لا هذا يشعر بذاك ولا ذاك يشعر بنفسه .. حقا لقد نجح جمال عبد الناصر فى استغلال أم كلثوم كمؤسسة إعلامية على المستويين المحلى والعربى .. حتى صارا معا أسطورة .. مع اختلاف المنصب والمكانة والأداء والأهداف ..

* * *

● ***أوسمة ونياشين بالجملة ..***

ووسط هذا المجهود السياسى الضخم ، الذى بدأ يبذله جمال عبد الناصر منذ بداية الستينات ، ومن بعد العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ .. كان يرى فى أم كلثوم على المستوى الشخصى الصدر الحنون الذى يلقى فوق رأسه الهموم والمتعب بالمشاكل داخليا وخارجيا بعيدا عن هموم المكاتب ورسميات المنصب ..

فلم تكن أم كلثوم بالنسبة لجمال عبد الناصر مجرد فنانة فقط ، تشاركه تدعيم الثورة فى داخل المجتمع المصرى .. وتخدير أفئدة الناس حتى ينسوا المظالم ويعيشوا واقع الشعارات المزيف .. بل كانت بالنسبة له كيان هام وعظيم ، وبالنسبة لأسرته فنانة قديرة تساهم كثيرا فى إحياء حفلاتهم ومناسباتهم الخاصة .. كما كانت الوجه الخفى الذى يتحدث معه جمال عبد الناصر فى وقت الأزمات من خلف الستار ، دون أن يعلم ذلك حتى سكرتيره الشخصى ..

كل هذه الأعمال الجليلة التى نفذتها أم كلثوم بحرفية وذكاء تحسد عليهما .. كان لابد من تقديم المكافأة المناسبة ، لهذه الأدوار ولهذه الأعمال .. وإلا فكيف يكافئها الملك السابق فاروق ، وينعم عليها بنيشان الكمال ولقب « سيدة العصمة » دون أن يكافئها رجال الثورة .. وهى التى قدمت إليهم هذه الخدمات الاعلامية والفنية العظيمة ..

مثل هذا التكريم لم يكن بعيدا عن ذهن جمال عبد الناصر .. ولكنه كان يتروى دائما فى إعطاء الهبات والعطايا .. وكثيرا ما كان يبحث لها عن مناسبة ..

وقد كان .. ففى الشهر الأول .. وفى إحدى الحفلات المسائية التى كانت تقيمها كوكب الشرق كل خميس .. والتى كان يحرص جمال عبد الناصر ورفاقه على حضورها .. تلقت أم كلثوم أول تكريم من رجال الجيش وفى حضور رئيس الجمهورية آنذاك ورجاله .. هذا التكريم كان فى صورة « رمز الجيش » ..

وتعالوا معنا نقرأ تفاصيل هذا التكريم كما نقلته لنا إحدى الصحف الصادرة وقتذاك :

ــ فى نهاية الوصلة الثانية التى غنتها أم كلثوم « دليلى إحتار وحيرنى » توجهت أم كلثوم إلى الشرفة الرئيسية التى يجلس فيها الرئيس جمال عبد الناصر .. حياها الفريق عامر .. ثم تقدمت أم كلثوم وحيت الرئيس جمال عبد الناصر وسط تصفيق الحاضرين .. ثم حيت نائبى الرئيس والجالسين فى المقصورة ، وقدم لها الفريق على عامر رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة الرمز التذكارى الذى قدمه الجيش تقديرا لفن أم كلثوم ..

وقالت أم كلثوم بعد تلقيها رمز الجيش :

ــ إننى أعتز بهذا التقدير وأعتبره موجها للفن ، وليس موجها لشخصى .. وأننى أحب الجماهير ، واعتبر هذا اللقاء دائما لقاء قلوب .. هذا إلى جانب إننى أحيا أجمل لحظات حياتى فى أيام الجيش ..

وكان حصول أم كلثوم على هذا الرمز .. هو أول تكريم رسمى من جانب الثورة .. مما يدفعنا إلى البحث فى الأوراق الخاصة بها .. من أجل التعرف على الأوسمة والنياشين التى حصلت عليها من داخل مصر وخارجها .. ولسوف نتوقف فى بحثنا عن

هذه النياشين والأوسمة عند حصولها على وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى عام ١٩٦٠ ..

يقول المؤرخ الموسيقى محمود كامل أن سيدة الغناء العربى .. كوكب الشرق أم كلثوم سيدة مجتمع من الدرجة الأولى ، ومتحدثة لبقة ، وعلى قسط وافر من الذكاء وسرعة الخاطر .. تجيد اللغتين الانجليزية والفرنسية وتحفظ مئات الأبيات من الشعر لفحول الشعراء .. وزارت معظم دول العالم .. وحصلت على أرفع الأوسمة والنياشين من الرؤساء والملوك فى مصر والعالم العربى .. منها نيشان الكمال فى سبتمبر عام ١٩٤٦ أثناء غنائها بالنادى الأهلى ..

ونيشان الرافدين من الدرجة الأولى من الملك فيصل عام ١٩٤٦ ..

وفى عام ١٩٥٥ منحت ثلاثة أوسمة منها وسام الأرز اللبنانى .. ووسام النهضة من ملك الأردن .. ووسام الاستحقاق من الدرجة الأولى من الرئيس السورى هاشم الأتاسى ..

وفى عام ١٩٥٩ منحت وسام الأرز اللبنانى برتبة كومندر من الحكومة اللبنانية .. وأهداها الوسام السيد رشيد كرامى رئيس الوزراء اللبنانى فى حفل رسمى أقيم فى ٢٠ نوفمبر عام ١٩٥٩ ..

كما حصلت أم كلثوم أيضا على نجمة الامتياز من باكستان ، على أثر تكريمها للشاعر محمد إقبال حين غنت قصيدة « حديث الروح » .. وقد أقامت السفارة الباكستانية بالقاهرة حفلا فى يوم ٢٣ مارس عام ١٩٦٨ لتقليدها الوسام ..

وفى مارس عام ١٩٦٠ منحها الرئيس جمال عبد الناصر وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى .. وقد أقامت لها اللجنة الموسيقية العليا حفل تكريم بهذه المناسبة[1] ..

---

(١) كوكب الشرق أم كلثوم – خليل المصرى ومحمود كامل ..

● *الثورة .. بين العدالة الاجتماعية وعدالة أهل الفن :*

شهدت الأيام الأولى من الستينات .. وبعد مرور ثماني سنوات على قيام ثورة ٢٣ يوليو .. بدايات هدم المجتمع المصرى .. سواء كان ذلك عن عمد أو غير عمد ..

ونحن لا نتقول على التاريخ لأننا عشنا هذه الفترة وكنا فى مرحلة الطفولة المتأخرة .. وكان وعينا لما يحدث قليل أو متأثر بحملات وسائل الاعلام التى كانت نشطة خلال هذه الفترة إلى حد مخيف ..

ومن أجل الإنصاف كان اعتمادنا على مصادر عديدة كى تنقل إلينا الصورة بلا رتوش .. وبداية نؤكد أن الثورة لابد لها من أخطاء ..بشرط ألا تتجاوز الأخطاء حدود الإنسانية .. مهما كان هدفها .. فذلك هو الغريب فى الأمر ..

وكلنا يعرف حتى ولو من مصادر التاريخ أن الثورة فى بداياتها وضعت لنفسها أهدافا .. بصرف النظر عن تحقيقها أو عدم تحقيقها .. فقد كانت النية صادقة .. أو على الأقل نية الأغلبية العظمى من الضباط الأحرار لأنهم فى الأول والآخر مصريون .. كانت النية صادقة فيما يتعلق برفع شأن الانسان المصرى ، الذى طال انتظاره لهذه الانتفاضة .. ولكن تحقق العكس .. فقد جاءت الثورة فى أغلب ما قامت به من أعمال ضد الإنسان المصرى ..

وتحولت هذه الأهداف إلى شعارات ، يطلقها كل مسئول فى الدولة .. وأصبح الناس يعيشون صباحا ومساء على الكلمات فقط دون الأفعال .. اللهم إلا هذه الأفعال التى من شأنها إطالة عمر رجال الثورة .. لذلك نجد أغلب المشاريع التى أقامتها الثورة ، مشاريع دعائية أكثر منها نافعة ، ويحيط بأغلبها الشكوك سواء فى التنفيذ أو التمويل ..

لقد بدأ سيل عارم من الشعارات تجوب أرض مصر من أسوان إلى الاسكندرية فى كافة نواحى الحياة اقتصاديا واجتماعيا .. مثل هذه الشعارات كانت مغلفة بالرقص والطرب والغناء .. وما يحدث تحت الأ ـ ـ كان شىء مخيف ومفزع .. ولا يعرف عنه من الناس شىء ما داموا ينامون على أصوات العشق والغرام ..

ولسنا هنا فى مقام الحديث عن مثالب الثورة أو ايجابياتها .. بقدر ما يخدم

موضوعنا .. من حيث علاقة الفن بزعامة أم كلثوم ، والسياسة بزعامة جمال عبد الناصر ..

والفن والسياسة كانا ومنذ قيام الثورة متلازمين ، حتى ولو لم يكن ذلك واضحا فى حينه .. لأن رجال الثورة رأوا فى الفن ملهاة سهلة لهذا الشعب المسكين ، الذى فطره الله على حب الحياة ..

ووسط هذا الهوس بالفن والطرب .. ضاعت معالم الانسان المصرى .. وتاه وسط شعارات العدالة الاجتماعية .. و « الاشتراكية » و « البدلة الشعبية » أحسن من الجلابية .. وكان ذلك يتم بتخطيط عجز عن فهمه فى حينه الصفوة من المفكرين المصريين ..

وفى بحثنا عن أحسن تصوير لما كان عليه الانسان المصرى وسط هذا الهوس المجنون من الشعارات .. عثرنا على كلمات ثمينة وغالية سطرها أستاذ الأجيال الدكتور زكى نجيب محمود فى آخر كتبه « حصاد السنين » حيث يقول :

ــ فى صباح يوم صائف .. وهو الثالث والعشرون من شهر يوليو عام ١٩٥٢ ، فوجئنا بمتحدث فى الاذاعة يذيع نبأ الضباط الأحرار ، وما هى إلا أيام قلائل حتى دوت أرضنا وسماؤنا بما يعلن عن ثورة لإقامة عدالة اجتماعية .. وها هنا تطابق الصوت مع الصدى ، وجاء الواقع محققا للحلم ، نعم أنها « عدالة إجتماعية » ما يريده الشعب .. وسرعان ما أخذت بشائر إنصاف الجماهير يعلن عنها واحدة إثر واحدة .. وكانت فتحة التغيير إعادة النظر فى ملكية الأرض الزراعية ، ولم تمض بضعة أشهر حتى أنشئت وزارة جديدة أسموها وزارة الإرشاد القومى(١) ..

وفى موضع آخر يقول الدكتور زكى نجيب محمود :

ــ لكن أحدا لم يسأل : ما هى تلك « العدالة » المنشودة .. وماذا فى خصائصها قد جعلها « إجتماعية » .. أهى من جنس نفس العدالة التى تسعى إلى تحقيقها المحاكم ، بأن ترد إلى أصحاب الحقوق حقوقهم ممن اغتصبوها ظلما .. وإن كان ذلك كذلك فأين

(١) حصاد السنين ــ زكى نجيب محمود ..

الجديد الذى تنشده الثورة ، وينشده معها أبناء الشعب كله .. ألم تكون عدالة المحاكم تعنى بحقوق الأفراد أو من يتخذ لنفسه صبغة الفردية من هيئات وجماعات ..

وأما « العدالة الاجتماعية » التى جاءت الثورة لتحقيق وجودها بعد إن لم يكن فمقصود بها نسبة القائمة بين طبقات المجتمع .. وإذا كان هذا هو شأنها فقد افترضت مقدما ــ إذن ــ وجود طبقات اجتماعية منها ما يعلو ومنها ما يسفل على نحو لا يبرر للأعلى أن يكون الأعلى .. وللأسفل أن يكون أسفل ..

وكانت الفرصة مواتية ، بعد إجماع الجهود على تأييد الثورة ودعوتها إلى عدالة اجتماعية لكننا لم نلبث ــ والكلام ما يزال للأستاذ الدكتور زكى نجيب محمود ــ على اتفاقنا إلا قليلا ، ثم أخذنا نتعرف غايات مختلفة .. إذا فسرت العدالة الاجتماعية تفسيرات تناقض بعضها مع بعض تناقض لم يبق من الغاية المشتركة إلا الصيغة اللفظية التى سميت بها .. وكيف نتفق وبعضنا يريد أن يعيد الماضى ليكون هو الحاضر أيضا(١) ..

هذا التشويش الذى تراءى لأستاذنا الدكتور زكى نجيب محمود بإعتباره من القمم الثقافية والحضارية ، التى عاصرت هذا الحدث ، والتى لم تستوعب مثل هذه الشعارات المزيفة .. كان مصدره تخبط رجال الثورة أنفسهم فى تفسيرهم لهذه العدالة .. هذا التخبط الذى أدى بهم إلى « الهبش » من هنا وهناك من أجل تغطية تطبيق هذه العدالة .. فتارة نجدهم يميلون إلى اليمين بشدة .. عندئذ يغيرون على أملاك عباد الله وتأميمها ، ثم فرض الحراسة على المتبقى منها ، وإذا كانت الثورة قد بدأت مشوار الشعارات بتطبيق قانون الاصلاح الزراعى .. وخلق طبقة جديدة من الفلاحين ملاك الأرض .. فإنها سرعان ما وقعت فى أخطاء كثيرة مؤسفة ، فيما يتعلق بفرض الحراسات على أموال الناس بعد عملية التأميم الكبرى ، التى شملت المؤسسات الاقتصادية الضخمة ..

وكم من الذين عاصروا هذه الاجراءات .. انتقدوها سواء فى حينها أو بعد حين طويل .. ونذكر من هؤلاء الدكتور ثروت عكاشة الذى تولى وزارة الثقافة فى فترة الستينات أكثر من مرة .. والذى انتقد بشدة إجراءات فرض الحراسة على أموال

(١) المصدر السابق ..

المصريين ، والاستيلاء على بعضه من جانب بعض رجال الثورة تحت سمع وبصر حارس الثورة ، الذى كان عليه إصدار القرارات والقوانين التى تحمى هذا النهب ..

وتارة أخرى يميلون إلى أقصى اليسار .. فينقلون إلينا أنظمة اقتصادية واجتماعية وفكرية ، لم يستوعبها المجتمع تحت مسميات عديدة منها الأشتراكية والشيوعية .. وفى كل مرة يربطون بين هذه الاجراءات المحلية والدولية وبين تطبيق العدالة الاجتماعية ..

وإن كنا لا ننكر أبدا أنه كانت هناك بعض الصور المضيئة ، فى هذا المجال ربما أقدموا عليها لتغطية بقية الاجراءات التعسفية التى ارتكبوها فى حق أكثر من نصف المجتمع المصرى بمختلف طبقاته .. ومنها على سبيل المثال السعى إلى تطبيق نظام التأمينات الاجتماعية .. ومجانية التعليم .. وإنزال الثقافة من السماء إلى الأرض إلا فى حدود ..

وينقل لنا الدكتور زكى نجيب محمود موقفه تجاه هذه الشعارات المزيفة التى حاول بعضهم أن يكون ضمن مروجيها .. فيقول :

ــ ولم تمض بضعة أشهر أخرى حتى أنشئت وزارة جديدة أسموها وزارة الارشاد القومى وخوطب صاحبنا يوم إنشائها ، ليضيف إلى عمله الجامعى منصب قيادى فى تلك الوزارة الناشئة .. فظنها فرصة سانحة ، تمكن من أن ينقل بعض رؤاه فيما يتصل بالمواطن المصرى ثقافيا ، لكنه سرعان ما تبين له أنه يحلم فى واد ، وأما واقع الحياة فى تيارها الجارى فى واد آخر .. لقد حسب إخونا أن عبارة الارشاد القومى يراد بها رسم خريطة جديدة لمستقبل الثقافة على تفاوت مستوياتها ، وإذا بالمقصود هو المشاركة فى ترتيب « الدعاية » وتوجيهها فى سبيل التبشير بالثورة وأهدافها ، وأنها لثورة ، وأنها لأهداف جاءت حقا معبرة عن أصدق تعبير عما كان يضرب فى صدورنا جميعا ، لكن الدعاية لها بتلك الصورة المباشرة المطلوبة هى آخر ما كان يستطيعه صاحبنا ..

ولتغطية هذا الفشل فى مجال تطبيق العدالة الاجتماعية التى راودت أحلام ملايين المصريين وصارت فيما بعد سرابا .. أقدمت الثورة تحت سمع وبصر جمال عبد الناصر على تطبيق العديد من الإجراءات الاستثنائية بحجة حماية الثورة .. كان على رأسها خنق حريات الناس .. والزج فى السجون بكل ما يعارض هذه الاجراءات .. حتى بلغ عدد المسجونين السياسيين فى بداية الستينات حوالى ١٨ ألف مصرى معارض فى سجون القلعة والسجن الحربى من كل فئات المجتمع ..

وامتدت إجراءات تغطية حالات الفشل ، إلى تطبيق نظام سياسى داخلى يضمن الولاء للثورة ولرجالها .. حيث كونوا الاتحاد الاشتراكى ، ومن داخله التنظيم الطليعى .. وبذلك قتلت الديمقراطية وغابت الحريات .. حتى اختفى الرأى الآخر ودانت لهم مصر بلا صوت واحد يعارض ..

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد .. بل وتأكيدا لعامل الفشل الذى كان على وشك الصياح فى وجه عبد الناصر ورفاقه .. اتجهت الأنظار خارج مصر من أجل تصدير الثورة ، ومحاولة إقناع بعض الدول العربية بإتمام الوحدة .. وكان الدور على سوريا ، ولما فشلت الوحدة .. اتجه عبد الناصر إلى اليمن ، واستمر مغروزا فى رمالها لمدة خمس سنوات .. وكانت حجته المقنعة لمن حوله .. ضرورة الانتقام من المملكة العربية السعودية لأنها وقفت بجانب الحركة الإنفصالية التى أدت إلى فشل الوحدة بين مصر وسوريا .. وقد بلغ عدد الجنود المصريون فى اليمن آنذاك حوالى سبعين ألف مقاتل .. كما بلغ عدد الشهداء فيها أكثر من عشرة آلاف مقاتل ..

ويظل مؤشر الفشل فى ارتفاع مستمر حتى يصل إلى قمته بوقوع كارثة عام ١٩٦٧ ..

* * *

وكان لابد من أجل علاج هذا الفشل .. اللجوء إلى عواطف وقلوب الغلابة من المصريين حتى ولو بشكل مؤقت .. لقد كان الناس بالفعل فى حاجة إلى مخدر قوى ينسون أثر تناوله ما يحدث فى مصر ، خاصة ما سمى فى حينه بالعدالة الاجتماعية .. وتفتق ذهن الشياطين حيث لجأوا إلى الطرب والغناء مصحوبا بالأدخنة السوداء والبيضاء المنبعثة من أفواههم بعد مرورها فوق نار المعسل .. وكانت تقف فى مقدمة أداء هذه المهمة .. أم كلثوم .. سواء بإرادتها باعتبارها المؤسسة الاعلامية الأولى التى كانت تقدم خدماتها لرجال الثورة .. أم بغير إرادتها وتحت ضغط الحفاظ على الشهرة والحياة الكريمة بعيدا عن غياهب السجون ..

وشاركها فى تلك المهمة أيضا فنانون مصريون كثيرون بالإضافة إلى الفنانين العرب الذين وفدوا إلى مصر ، وفقا لمفاهيم القومية العربية ، والترويج للثورة سواء فى مصر أو

لنقلها إلى بلادهم ، مع قليل من الاهتمام بالثقافة التي تلونت وفقا لأغراض رجال الثورة وبتوجيهات من السيد الرئيس جمال عبد الناصر ..

وباعتبار أم كلثوم رائدة التخدير ، وتطبيق أهداف زعيم الثورة فى التغنى بإسمه وإنجازاته الورقية .. فقد كان جمال عبد الناصر يتدخل كثيرا فى توجيه هذه المؤسسة الغنائية من أجل تقديم خدمة متميزة فى مجال الفن ، كما يريد هو باعتباره يعبر عن نبض جميع « السميعه » فى مصر ..

وقد كان .. فقد تدخل جمال عبد الناصر شخصيا من أجل إنتاج عمل فنى مشترك بين أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب .. بعدما فشل غيره فى تحقيق هذا الحلم الفنى ..

ويحكى لنا الكاتب محمود عوض عن هذا التدخل من جانب أعلى سلطة فى الدولة المتمثلة فى شخص جمال عبد الناصر من أجل إتمام هذا التعاون الفنى الذى كان ينتظره ملايين المعجبين من المصريين والعرب على السواء ..

ففى احتفال ٢٣ يوليو من عام - ١٩ أقام نادى الضباط حفلة ساهرة حضرها الرئيس جمال عبد الناصر .. وكانت أم كلثوم وعبد الوهاب من بين المشاركين فى هذا الحفل ..

وفى الاستراحة دعاهما الرئيس جمال عبد الناصر إلى تناول العشاء على مائدته .. وقال عبد الناصر وقتها لكل من أم كلثوم وعبد الوهاب :

ــ أين الأغنية التى نقرأ فى الصحف إن أم كلثوم ستغنيها ويلحنها عبد الوهاب .. ألم يحن الوقت بعد لكى تتحول الأغنية من كلام جرايد .. إلى كلام يردده الناس .. ؟! ..

وبالفعل وكأنما صدرت الأوامر العليا بضرورة تنفيذ هذا العمل الفنى المنتظر .. فخلال أسابيع قليلة كان العمل قد بدأ فى الاعداد للأغنية الجديدة .. كلمات اختارها محمد عبد الوهاب اصلا كى يغنيها هو ، ولكنه عندما بدأ يلحن اكتشف أن اللحن لن تعبر عنه غير أم كلثوم .. واتصل عبد الوهاب بأم كلثوم التى لم تمانع .. بل ووعدته بجلسة قادمة لبحث تنفيذ هذا العمل الفنى المشترك ، الذى تهتم به الدولة فى صورة السيد الرئيس ..

ومن بعد هذا اللقاء خرجت أغنية « أنت عمرى ».. وكلماتها رغم ما فيها من حب وهيام إلا أن عنوانها قد يخفى معناه عن البعض .. ولكن حين نعود إلى قصيدة أو أغنية « يا جمال يا مثال الوطنية » من المؤكد أنه جمال عبد الناصر ، هو عمرى ، وعمر أم كلثوم وسميعة مصر كلها ..

وحينما نعود إلى عمل احصاء سريع لعدد الأغنيات التى غنتها أم كلثوم من مطلع الخمسينات وحتى عام ١٩٦٤ ، قبل إتمام التعاون بين أم كلثوم وعبد الوهاب نجد أن عددها يتجاوز الثلاثين قصيدة .. منهم مالا يقل عن عشرة أغنيات وطنية .. والباق أغانى عاطفية ودينية .. وقد بدأتها مع مطلع عام ١٩٦٠ بغناء قصيدة قصة السد فى يناير من نفس العام من كلمات الشاعر عزيز أباظة وتلحين رياض السنباطى .. ثم فى عام ١٩٦١ غنت أغنية عاطفية جديدة بعنوان « الحب كده » من تأليف الشاعر بيرم التونسى وتلحين الموسيقار رياض السنباطى أيضا ..

وفى يوليو من نفس العام غنت أم كلثوم أغنية « ثوار » من تأليف الشاعر عبد الفتاح مصطفى وتلحين رياض السنباطى ..

والملاحظة التى يمكن أن نوردها بعد تقصى هذا الاحصاء أن الأغنية العاطفية قد زاد لهيبها .. ويبدو أن التعليمات التى صدرت من رجال الثورة آنذاك للمؤسسة الغنائية أم كلثوم قد ركزت على إشاعة نوع من الحب ، والغرام والهيام وإباحته مادام يخدم أهواء الثورة وأهدافها .. ومادام لا يكلف شيئا ..

المهم أن يتم تخدير الناس بكافة الوسائل حتى يعيشوا فى ظلام النسيان فى الوقت الذى كانت فيه مصر من « تحت لتحت » تعيش تحت وطأة الظلم والعدوان على حقوق الآخرين .. ونحن لا ننسى أبدا كلمات وعناوين هذه الأغانى والقصائد التى غنتها أم كلثوم فى فترة الستينات .. والتى كان يقول أغلبها « حيرت قلبى معاك » ــ « الحب كده » ــ « ثورة الشك » ــ « لسه فاكر » ــ أنها كلمات أقصى ما تنادى به هو تشجيع العشق والحب .. وترك الفضائل .. ولعلنا لا نغالى حين نطالب بضرورة تصدى علماء النفس والاجتماع لدراسة تأثير أغانى هذه الفترة من تاريخ مصر فى حياة أهل مصر ..

وحتما سوف يصل هؤلاء العلماء إلى نتائج مذهلة ، ولعل أكثر هذه النتائج التى

لاتحتاج منا إلى تعليق أو دراسة .. هى ما فعلته بنا إسرائيل عام ١٩٦٧ ، فبينما نحن نعيش الحب والغرام مع بعض التنافس الكروى والعصبية ،كانت إسرائيل تعد العدة للهجوم الكبير .. وقد كان .. إنها الهزيمة ..

●أم كلثوم تتوسط لدى عبد الناصر من أجل مصطفى أمين ..

كانت أم كلثوم تجيد تنفيذ دورها الاعلامى بالالتصاق بشخصية جمال عبد الناصر .. كلما كان رصيدها الفنى والوطنى يزداد ليس على المستوى المحلى فقط .. بل على المستوى العربى .. وسبق أن أوضحنا أن هوس الثورة وحركات التحرر ، قد بدأ يغزو بعض الدول العربية التى كانت تحت وطأة الاستعمار .. ورأوا أن جمال عبد الناصر هو المنقذ الوحيد لهم من هول هذا الاستعمار .. لذلك نجد أن أية دولة تتحرر يميل شعبها ويدين بالولاء لبعض لعبد الناصر ولدوره فى هذا الميدان ..

وكان عبد الناصر فى منتهى الذكاء من حيث استغلال هذه المناسبات القومية إعلاميا .. إلى درجة أن أصبح صوته وكلماته فى خطبه ملتقى الشباب العربى ، من خلال الاذاعات المحلية لهذه الدول ومن خلال وسائل الاعلام المصرية ، التى لعبت دورا كبيرا فى تأكيد الهوية المصرية العربية آنذاك ..

ولما كان هناك شبه ارتباط بين المهمة التى يقوم بها جمال عبد الناصر على المستوى العربى وبين دور أم كلثوم فى تأكيد هذه المهمة .. فقد اتسعت آفاق أغنيات أم كلثوم سواء عن طريق استمرارية اذاعتها من كل محطات الاذاعة من القاهرة أو من خلال الاستدعاء الرسمى لبعض الشخصيات العربية لحضور هذه الحفلات .. الأمر الذى جعل بعض الصحف العالمية تصف الإقبال العربى على صوت أم كلثوم بأنه الهوس نفسه ..

فكتبت مجلة تايم الأمريكية تقول : إن أسطورة أم كلثوم تكبر وتستمر منذ ٣٢ عاما لأنها أشهر وأقوى شخصية فنية فى الوطن العربى .. وليست هناك علامة على أن كوكب الشرق تتأثر بالزمن لأن العرب يؤمنون بأنه يزيدها قوة ويضيف إلى صوتها صفاء .. وفى الشرق الأوسط هناك شيئان لا يتغيران ولا ينال منهما الزمن .. أم كلثوم والهرم ..

أما جريدة الاوبزرفر البريطانية فتقول : إن أم كلثوم هي نجمة الغناء العربي التي تجمع كل العرب حول أجهزة الراديو فى الخميس من كل شهر خلال موسمها ابتداء من الخريف وحتى فصل الصيف ..

أما جريدة « فرانس سوار » فتقول : إن شهرة أم كلثوم فاقت شهرة أعظم المطربين فى العالم الذين استمع إليهم الفرنسيون .. إن شهرة أم كلثوم فى المنطقة العربية لا ترتفع إليها ، ولا تعادلها شهرة أي نجمة للغناء فى هذا الجزء من العالم ..

وإزاء هذا النجاح المنقطع النظير لأم كلثوم .. وانتقال تأثيرها على الملايين من العرب حيث زادت من انتماءاتهم المصرية أكثر من انتائهم لوطنهم تحت لواء القومية العربية التى سعى عبد الناصر كثيرا إلى ترويجها كسبيل للسيطرة على العالم العربي .. فكر عبد الناصر ورجاله فى زيادة مكافأة أم كلثوم بعيدا عن الأوسمة والجوائز .. وذلك عندما استدعى الرئيس جمال عبد الناصر الكاتب الصحفى مصطفى أمين إلى مكتبه بمنشية البكرى من أجل أن يبلغه بقرار تخصيص موجة إذاعة مستقلة لأم كلثوم ..

نعم محطة إذاعة ما زالت إلى الآن تحمل اسم أم كلثوم ، لأنها تخصصت ولا زالت فى إذاعة أغانى أم كلثوم من الساعة الخامسة بعد الظهر وحتى الساعة العاشرة من مساء كل يوم ..

وعلى الفور اتصل مصطفى أمين كى يبلغها هذا الخبر .. عندئذ وكما قال لنا مصطفى أمين .. صعقت أم كلثوم من هذا الخبر وكاد يغشى عليها ، لأنها خافت من تأثير إذاعة أغانيها يوميا على الناس .. فربما يؤدى ذلك إلى ابتعادهم عن صوتها .. ولما كان هذا القرار من القرارات السيادية ، حيث أصدره رئيس الدولة جمال عبد الناصر .. فلا رجعة فيه ..

وحاولت أم كلثوم أن تخبر عبد الناصر بقلقها إزاء هذا القرار المخيف من وجهة نظرها ووسطت مصطفى أمين .. فأحال الموضوع إلى نائبه المشير عبد الحكيم عامر ..

وقصة هذه الاذاعة .. كما يرويها مصطفى أمين .. أن جمال عبد الناصر بعد افتتاح التليفزيون المصرى .. وبعد الاعداد لخطة غزو اعلامى كبير من جانب رجال الثورة .. قرر تخصيص محطة إذاعية على تردد معين يتم استخدامها فى وقت الحرب .. وحتى لا

تكون محطة إرسال بلا مواد إذاعية .. قرر عبد الناصر وعبد الحكيم عامر تخصيص هذه المحطة لاذاعة أغانى أم كلثوم يوميا داخل مصر وخارجها .. وطبعا هذه الرواية لا تحتاج إلى أى تعليق أو مناقشة فى ضوء الأهداف القومية والوطنية التى تحققها أم كلثوم وفقا لخطط مرسومة بإحكام ..

* * *

وقصة إذاعة أم كلثوم .. ودور مصطفى أمين فيها ولو بطريق غير مباشر .. يقودنا إلى الحديث عن الدور الذى لعبته أم كلثوم من أجل الإفراج عن الكاتب الصحفى مصطفى أمين الذى قبض عليه ودخل السجن باتهامات باطلة .. مثل غيره من رجال الاعلام والساسة الذين قبض عليهم لأسباب شخصية ، وأسباب مضحكة وحجج واهية دون التفريق بين ما هو وطنى وغير وطنى .. المهم أن الكاتب مصطفى أمين بعد جهوده المضنية والتصاقه بأحداث الثورة من بداياتها وخدماته لها .. كان مصيره السجن .. ولما كانت أم كلثوم من أقرب الناس إليه وتعرف جيدا مدى وطنيته وإخلاصه .. فقد حاولت مرات عديدة التوسط لدى جمال عبد الناصر من أجل الافراج عنه ولكنها فشلت ..

والقليل منا من يعرف عمق العلاقة بين أم كلثوم ومصطفى أمين هذه العلاقة التى بدأت منذ أكثر من خمسين عاما .. حين كانت أم كلثوم تخطو خطواتها الأولى نحو المجد .. ولم يكن بالنسبة لها مجرد صحفى ، أو صاحب جريدة بل كان أكثر من صديق تستشيره حتى فى أدق أمور وشئون حياتها الخاصة ..

وقد مر علينا اتصالها بالكاتب مصطفى أمين فور وقوع الثورة فى يوليو من أجل أن تعرف التفاصيل والأهداف .. بل أكثر من ذلك كان مصطفى أمين بالنسبة لأم كلثوم الوسيط الأمين الذكى الذى كان ينقل للضباط ، وعلى رأسهم جمال عبد الناصر متاعبها وآلامها وآمالها مع رجال الثورة فى أيامها الأولى .. وكان مصطفى أمين أقرب الرجال إلى قلب وحياة أم كلثوم وعن طريقه عرفت بالكثير من الخبايا الفنية ، التى أثرت فى مسيرة حياتها فى عالم الطرب ..

وفوق كل ذلك كان مصطفى أمين الصحفى الوحيد تقريبا الذى كان يقف دائما مع

أم كلثوم إذا ما تعرضت لمحنة ما سواء شخصية أو فنية ، ومصطفى أمين يعبر عن هذه العلاقة بقوله :

ـ **عرف الناس أم كلثوم** .. وأنا عرفت أم كلثوم أخرى .. عرفوا الأسطورة وعرفت الإنسانة .. عرفوها بخيلة وعرفتها كريمة .. عرفوها فوق المسرح والأضواء مسلطة عليها وصوتها يملأ الدنيا متعة وهناء .. وعرفتها فى غرفتها الصغيرة فى الطابق العلوى من بيتها منزوية فوق كنبة صغيرة تبكى فى صمت ..

هذه العلاقة الخاصة بين أم كلثوم ، والكاتب الصحفى مصطفى أمين جعلت الكثيرون يعتقدون أنه قد تزوجها فى فترة من فترات حياته .. وحين توجهت إليه بسؤال فيما يخص واقعة الزواج هذه .. أجاب :

ـ **ولم أتزوجها ؟!** .. لقد كنا أكثر من مجرد صديقين .. نلتقى كل ساعة .. بل كل دقيقة ولو من خلال التليفون ..

ومن المواقف التى لا ينساها أبدا مصطفى أمين .. موقف أم كلثوم من إقراضه الأموال .. خاصة بعدما قبضوا عليه وجردوه من ملابسه ونقوده .. وقادوه إلى السّجن معصوب العينين ..

ويقول الكاتب الصحفى مصطفى أمين :

ـ **ودخلت السجن ووضعونى تحت الحراسة** .. وصادروا أموالى ، وكان القرار أن أموت جوعا ، وسدوا على جميع المساعى حتى لا يصلنى قرشا واحدا من أخى « على » الذى كان موجودا فى لندن .. كنت أعرف أن كثيرين من أصدقائى سوف يقبلون أن يقرضونى فى هذه المحنة ، ولكننى رفضت أن أحرجهم لأننى أعرف أنهم كانوا يقبضون على كل من يمد يده لمساعدة مسجون سياسى ..

وفكرت أن ألجأ إلى أم كلثوم وقلت لها : إننى محتاج إلى مائتى جنيه فورا ، وأحب أن أنبهها إلى أن هذا المبلغ سوف يعرضها لوضع أموالها كلها تحت الحراسة .. وقلت لها إننى لن أتضايق ، إذا رفضت أن تدفع هذا المبلغ ولأن الظروف لا تسمح لها بأن تقرضنى هذا المبلغ ، وقلت فى ختام رسالتى : أننى قد استطيع أن أرد المبلغ قبل عشر سنوات ، وقد لا أستطيع أن أرده أبدا ..

وأرسلت لى أم كلثوم خمسمائة جنيه وقالت أنها مستعدة أن ترسل لى خمسة آلاف ..

أما بالنسبة لواقعة التوسط لدى عبد الناصر للإفراج عن مصطفى امين فقد روى بعضها فى كتابه « سنة أولى سجن ».. كى يبين لنا قيمة الأصدقاء فى وقت الشدة .. حيث قال : لقد قال لى هيكل .. أنه كانت هناك حفلة يوم ٢٣ يوليو بعد القبض على بيومين .. وكان هناك عبد الوهاب وقال له الرئيس جمال عبد الناصر : طبعا انت زعلان علشان مصطفى أمين .. فقال عبد الوهاب : ابدا يافندم .. المسىء يلقى جزاءه .. وأضاف عبد الوهاب إنه لم يكن صديقى إلا من مدة قليلة .. وقال هيكل للرئيس أن عبد الوهاب كان يأكل عندى كل ليلة .. ولست أعرف ما إذا كانت هذه الرواية حقيقية أم تشنيعة من هيكل على عبد الوهاب .. إن عبد الوهاب بطبيعته خواف يرتعش من أى شيء ويذعر من خياله .. فماذا يستطيع أن يفعل فى جو الإرهاب الذى تعيش فيه البلاد[1] ..

أما بالنسبة لأم كلثوم فكان موقفها مختلف تماما عن موقف محمد عبد الوهاب .. إذا كانت تتعمد حين تجلس مع عبد الناصر أن تحدثه فى أمر اعتقال مصطفى أمين .. ففى عام ١٩٦٥ وفى جلسة خاصة ضمت أم كلثوم وعبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر بادر الرئيس عبد الناصر أم كلثوم بسؤالها عن صديقها الذى تم القبض عليه فقالت :

ــ أعرف مصطفى أمين طوال حياته وأعرف وطنيته .. وأعرف كيف أدخل كل مليم فى أخبار اليوم .

إلا أن عبد الناصر أشاح بوجهه ، ولكنها استمرت تدافع عن مصطفى أمين بحماس منقطع النظير ..ولم تتوقف مساعيها أبدا لدى عبد الناصر أو المشير عام من أجل الإفراج عنه حتى فشلت ..

ورغم ذلك فإن علاقتها لم تنقطع بمصطفى أمين حتى وهو داخل الجدران السوداء فكانت تبعث إليه برسائل سرية مع أطباء السجن ، وبعض الأصدقاء .. ومن هذه الرسائل وكما يحكى مصطفى أمين أنه فوجىء بطبيب السجن يهمس فى أذنه فى يوم من الأيام بأن أم كلثوم كلفته بأن يوصل إليه أنها سوف تغنى له الخميس القادم قصيدة فيها بيتان أو ثلاثة توجههم إليه ..

(٢٠) سنة أولى سجن ــ مصطفى أمين ..

وجلس مصطفى أمين فى زنزانته أياما ينتظر قصيدة أم كلثوم والأبيات الثلاثة .. وفى مساء الخميس الموعود غنت أم كلثوم قصيدة الأطلال .. وكانت إذاعة السجن تذيع الحفل كله بناء على إلحاح المسجونين ..

وفجأة سمع مصطفى أمين أم كلثوم تغنى :

أعطنى حريتى .. أطلق يديا	إننى أعطيت ما استبقيت شيئا
آه من قيدك ؟ أدمى معصمى	لم أبقيه ؟ وماأبقى عليا
ما احتفاظى بعهود لم تصنها	وآلاما الأسر والدنيا لديا

ويقول مصطفى أمين عن شعوره فى هذه اللحظات : « لقد انتفضت فى فراشى وأنا أسمع هذه الأبيات ، أحسست كأن أم كلثوم تغنى لى وحدى أحسست أنها ترفع صوتى الخافت ، تدوى بصوتى المحبوس ، تقول ما كنت أتمنى أن أقوله للدنيا كلها ..

وقد بقى صوتها يدوى فى أذنى ، وهى تغنى هذه الكلمات أياما طويلة بغير إذاعة ، وبغير راديو وبغير اسطوانة .. ولم تتوقف أم كلثوم عن المطالبة بالإفراج عنى » ..

* * *

● كلمات على هامش

هزيمة عام ١٩٦٧ :

الأيام تدور وبعضها يجر بعضا بثقل شديد .. والكارثة على الأبواب ولا أحد يدرى بها .. رغم أن لها علامات .. عرفها البعض .. ولكن التوقيت مجهول ..

حالة من التخدير على المستوى الشعبى والانغماس ، فى كل ما هو غريب وعجيب وغير مفيد .. ومن فوقنا هم هناك يلعبون ويمرحون فى كل مكان ، ٠لا رحمة وأجسادنا وأعراضنا كانت نهبا لهم .. ولا نجد من يقول لهم كفى .. لأن الأصوات نفسها كلها حبسوها داخل السجون ، والبقية الباقية من هذه الأصوات اغتالوها أو هم فى الطريق .. الا من يغنى ويرقص ويطرب الناس وللثورة وللزعيم ..

كما قلنا كانت للهزيمة علامات بدأت مع مطلع الستينات ، ولا يعرف بها أحد من داخل مصر أو خارجها إلا هم .. هناك يعيشون خلف الرمال .. يخططون ونحن نرقص .. يدرسون ونحن نأكل الفول .. ونلعب الكرة ونقول النكتة ونضحك منها على أنفسنا .. وربما كان يعرف بها هؤلاء المظلومين داخل غياهب السجون .. وصرخاتهم التى كانت تقطع سكون الليل ودموعهم التى كانت تذيب أحجار القلعة .. ودعواتهم ودعائهم المستمر على هؤلاء القوم الظالمين ..

وأبدا لا نبرأ الفن .. فهو شريك كامل فى هذه الكارثة .. أنه المخدر القوى الذى طمس على عقل الانسان المصرى .. بل والعربى كذلك .. وجعله يعيش فى عالم من الأحلام تصيغه الكلمات والألحان وتغذيه الشعارات فى كل مجال .

وخير دليل على مسئولية الفن تجاه وقوع هذه الكارثة .. شهادة الأستاذ فتحى رضوان أحد الذين تولوا وزارة الارشاد القومى .. والتى سجلها فى كتابه « عبد الناصر » حيث يقول :

ــ كان الرئيس عبد الناصر قد قال لى فى مناسبة سابقة ، أنه يسهر مع الاذاعة حتى نهاية برامجها مع أم كلثوم وأضواء المدينة .. ثم توقف قليلا وقال : أنا عارف أن فتحى رضوان غير راض عن طول حفلات أم كلثوم واستمرارها إلى الرابعة صباحا .. وكثرة ترديد المقطع الواحد عشرين مرة أو أكثر .. والصياح والصراخ والوقوف على المقاعد ..

وقد عجبت حقيقة ، كيف عرف عبد الناصر هذا الرأى .. فقد حاولت أن أذكر متى سمع منى هذا الكلام ولم أستطع ، ولكنه ضحك بطريقته وقال : فى ليلة أقمنا حفلة غنائية لأم كلثوم فى نادى الضباط احتفالا بالملك حسين .. ولما خرجنا نوصله ، وكنت أنت رئيس الوفد المرافق له ، كان منظر الضباط ساعة الانصراف وعدد قليل منهم نائم تماما على مقعده .. لا يرضى أحدا .. وكانت عيون الملك حسين حمراء ، وكان يتمايل من شدة التعب .

وفى اليوم التالى بدأ الحديث تعليقا على هذه الليلة فسمعتك تكلم أحدا على مقربة

منى ووصل الى سمعى كل هذا .. أنا معك ولكن محاولة تغيير هذا بمثابة الوقوف فى وجه التيار فقلت له إننا واقفون فى وجه التيار فعلا .. ألست تقيم السد العالى فقال عبد الناصر : السد العالى معلهش .. ولكن يأتى على الناس وقت لا يطيقون فيه أنفسهم ، دع لهم وقتا يفرجون فيه عن أنفسهم .. فقلت ولكن العمل الفنى فى كل مكان وسيلة معنوية للناس يزودهم بجرعة منعشة ومنشطة وبهجة .. يخرجون بعدها أكثر إقبالا على الحياة .. ولكن حفلات الطرب عندنا عملية تعذيب .. ينام الناس فى اليوم التالى إلى الظهر ويستيقظون يشكون من الصداع ووجوههم صفراء .. وشهيتهم مسدودة ومزاجهم عكرا ..

فقاطعنى الرئيس عبد الناصر .. أنا معك .. معك .. ولكن الناس ينسون أنفسهم ويعتبرون هذه الحفلة عيدا شهريا .. وفى جميع الأعياد يسهر الناس إلى الصباح ويكونون فى اليوم التالى بالصورة التى تظنها .. ثم توقف عبد الناصر فجأة وقال محذرا :

– بس أوعى تغضب أم كلثوم فقلت « لا سبيل لإغضابها » فضحك قائلا : هذا حق[1] ..

* * *

ومادمنا بصدد الحديث عن هزيمة عام ١٩٦٧ .. فلا بد من الحديث الموثق عسكريا عن هذه الحرب ولو بشكل مختصر بعيد عن الأهواء وحديث الأخطاء مثلما تحدثنا من قبل عن الحروب السابقة ..

يقول اللواء عبد المنعم خليل : لقد استغلت مصر نجاحها السياسى عام ١٩٥٧ فى إقامة الوحدة مع سوريا عام ١٩٥٨ ، والتى نجحت القوى الاستعمارية فى تقويضها .. وتم الاتفاق على الانفصال فى ٢٨ سبتمبر عام ١٩٦١ .. وحاولت مصر كسر حصارها السياسى فعاونت الثورة اليمنية سياسيا وعسكريا منذ قيامها عام ١٩٦٢ .

وكان هناك إعداداً عسكرياً على مستوى القيادة العامة بعد عدوان عام ١٩٥٦ ..

---

(١) عبد الناصر – فتحى رضوان ..

وبدأ التدريب على مهام الخطة الدفاعية « قاهر ».. كما نشطت إدارة الشئون المعنوية فى الاعداد المعنوى للقوات تحسبا لعدوان اسرائيل وشيك عام ١٩٦٧ ..

وفى يوم ١٤ مايو عام ١٩٦٧ أعلنت حالة الطوارىء فى القوات المسلحة ورفعت درجة الاستعداد إلى الحالة القصوى وأصبحت منطقة شرم الشيخ ابتداء من ٢٠ مايو ١٩٦٧ ميدانا لزيارة كبار قادة القوات المسلحة المصرية لتحقيق مطالب القوات هناك بناء على أوامر المشير عامر ..

وفى صباح يوم ٣١ مايو وصلت طائرة عسكرية تقل عددا كبيرا من رجال الاعلام والصحافة بغرض تسجيل بالصوت الصورة عدة نشاطات فى المنطقة تظهر استعداد القوات المصرية للقتال ..

وفى يوم ٤ يونيو تم تكليف القوات البحرية بمنطقة شرم الشيخ بمهمة قصف ميناء ايلات بحرا بواسطة مدمرتين .. وقد تحركت المدمرتان ، وعبرت مضيق رأس نصرانى بعد منتصف الليل واقتربت من ميناء ايلات ..

وفى يوم الاثنين ٥ يونيو عام ١٩٦٧ .. مرت الساعات الأولى من الصباح فى هدوء نسبى فى مواقع القوات المسلحة على الجبهة .. وتم تدبير الهجوم الجوى المباغت على القواعد الجوية المصرية .. مما أدى إلى تدمير السلاح الجوى المصرى كله ، وهو فوق الأرض .. وكان ما كان من أمر التخبط فى القيادة .. وأوامر الانسحاب العشوائية .. ثم تقدم قوات العدو الاسرائيلى إلى كل صحراء سيناء .. حتى الضفة الشرقية لقناة السويس ومناطق عربية أخرى ..

وتم احتلالها جميعا خلال ستة أيام أو ستة ساعات .. فى الوقت الذى كنا نعيش فيه أحلام النصر ، مع الجرعات الاعلامية العالية التى كانت تبشر بنصر كاذب ، حيث اتضح فعلا ، وبعد أقل من ساعات أنه انتصار على الورق فقط .. واسرائيل كانت تتربع على عرش سيناء والجولان والقدس والضفة الغربية ..

الفصل الخامس

يوم أن رحل الزعيم

قالوا إن الزعيم جمال عبد الناصر .. قد مات رسميا يوم ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠ بعد انفجار شرايين القلب ، ومات فعليا يوم ٥ يونيو بعد انفجار الهزيمة ..

ونحن نقول : إن عبد الناصر فى عام ١٩٦٧ لم يمت وحده ، بل مات الرجل فى قلب كل مصرى وعربى .. ماتت الكرامة .. والعدالة والثورة والأهداف الستة .. ومات الفن والطرب .. وماتت أيضا أم كلثوم ..

لقد هلت علينا كارثة عام ١٩٦٧ بكل ما فيها من آلام ومواجع كى تفجر بداخلنا الهزيمة ، التى ظلت يعدون لها سنوات طويلة .. هذه الهزيمة النكراء كشفتنا .. أسقطت ورقة التوت التى كان ثوار يوليو يختفون وراءها .. وكأنما عدالة السماء ظلت متربصة بنا سنوات العذاب منذ أيام وأعوام الستينات ، حين بدأ جمال عبد الناصر ورفاقه ينتهكون حرمة هذا الشعب الطيب .. وأخذت دعوات المظلومين خلف جدران السجون تزحف ناحية السموات السبع حتى استجاب الله لهذا الدعاء .. وجاءت الهزيمة كى تبرهن لعبد الناصر ورفاقه أن فوق كل ذى سلطان ، ونفوذ قوة عظمى تهلك الزرع والنسل فى أقل من طرفة عين ..

لقد سمع بهذه الهزيمة هؤلاء الذين كانوا يشربون ماء التبول ويأكلون من الفضلات .. وهم هناك لانعرف عنهم أهم فوق الأرض يدبون أم تحتها ينامون بعد ذهاب الأرواح .. ؟! ..

سمعوا عنها قبل هؤلاء الذين جذبتهم الأصوات الجميلة .. والتحموا مع الدخان الأسود ، وليالى الخميس وكلمات الآهات والحب .. هؤلاء لم تفاجئهم الكارثة .. كانوا يتوقعونها فى أية لحظة .. وكثيرا ما حذروا منها .. ولكن وقتها كان المسئولون تحت تأثير نشوة النصر الكاذب والشعارات البراقة .. وكلمات الأغانى المعسولة بالسموم ..

حقيقة .. لقد كانت هزيمة عام ١٩٦٧ .. هى موعد انفجار الشرايين داخل القلوب .. وانفجار الأحداث داخل السجون .. ورفع الغطاء عن عيون هؤلاء الذين استحبوا العيش وسط الدخان اللذيذ .. وكانت بمثابة الضوء المبهر الذى سلطه الله علينا كى نرى أنفسنا عرايا .. والعيوب ماثلة أمامنا من أجل محاولة إصلاحها .. فى كل مكان وفى كل ميدان .. بدءا من الجيش ، وحتى كلمات الأغانى ..

لقد شعر هؤلاء النجوم فى عالم السياسة والفن والصحافة والتهليل .. أنهم لا شىء .. ليس فقط .. بل شعر كل من له وطنية مخلصة أنه كان مشاركا فى هذه الهزيمة بالفعل أو بالقول .. أو بالصمت ..

لقد كانت هزيمة ١٩٦٧ .. إيذانا بالرحيل .. فى كل مجالات الحياة .. إلا من هؤلاء الذين كابروا واعتبروا أنفسهم فوق المسئولية ..

* * *

ومما لا شك فيه أن أول الذين أحسوا بعقدة الذنب هو جمال عبد الناصر .. الذى بدأ يشعر بالعد التنازلى لحياته .. وبدأت أزماته الصحية والنفسية تفرد لنفسها المكانة الأولى بداخله حتى النهاية .. فقد كانت أيام الرحيل معدودة ..

وأما الشخصية الثانية .. فهى أم كلثوم .. حيث أصيبت بحالة قاتلة من اليأس ، وفرضت على نفسها عزلة .. وبدأت تشعر هى الأخرى بالأمراض تزحف ناحيتها بقسوة وقوة .. وبدأت الصحف آنذاك تكتب عن مرضها وعزلتها .. بل ورغبتها فى

اعتزال العمل الفنى .. وكانت بذلك تعد لنفسها أياما رحلت بعدها ، وإن طالت بعض الشيء عن أيام الزعيم الأول جمال عبد الناصر ..

وقبل أن نقترب أو نبتعد من حديث الرحيل .. نسجل هنا كلمات سطرتها كوكب الشرق أم كلثوم بدمها ودموعها .. يوم أن عرفت مرارة الهزيمة .. تقول السيدة أم كلثوم :

ـ فى عام وقعت النكسة عام ١٩٦٧ .. فعدت من موسكو بلا غناء ، وأقمت فى بدروم البيت فى غرفة حداد مظلمة لمدة أسبوعين ، لا أريد أن أتحدث ولا أريد أن أرى مخلوقا .. واختمرت فى ذهنى أفكارا نفذتها فيما بعد ..

وتواصل أم كلثوم :

ـ سألت نفسى ماذا يمكن أن أقدم لوطنى الجريح ؟.. ماذا يمكن أن أفعل لأمسح دمعة ، لأضمد جرح ، لأضع ابتسامة فوق شفاه ابن الشهيد .. ؟!!! ..

وخرجت بخطة العمل .. أن أغنى فى كل مكان .. وأجمع نقودا للمعركة ، وأجمع ذهبا للمعركة ، وأجمع حماس للمعركة .. فالمعركة لم تكن تلك الأيام الستة السوداء ، انها مستمرة .. وما كان منها هو فصل واحد .. والفصول الباقية آتية ..

غنيت فى دمنهور .. وجمعت ٢٨٣ ألف جنيه .. وغنيت فى المنصورة وجمعت ١٢٠ ألف جنيه .. وفى الاسكندرية جمعت ١٠٠ ألف جنيه .. عدا سبائك الذهب التى كنت أجمعها من فوق أذرع وصدور النساء .. بل من آذانهن بل وخلاخيل الأرجل ..

واجتزت الحدود .. غنيت فى باريس .. على مسرح الأوليمبيا .. فقد غنيت « أعطنى حريتى .. أطلق يديا » بانفعال لا أتصورنى بلغته أو سوف أبلغه بعد ذلك .. وغنيت فى المغرب والسودان وتونس ولبنان .. غنيت فى ليبيا والكويت .. وأودعت كل هذه الأموال للمجهود الحربى للمعركة وأضفت إليه كل ما أمتلك من مجوهرات .. كل هذه الحصيلة زادت على مليون جنيه .. كانت بالضبط مليونا ومائتى ألف جنيه ..

* * *

لقد كانت هذه الرحلات بداية إعادة الترتيب للبيت المصرى من الداخل فى كل

مكان وميدان ومجال .. وانقلب الشعار .. وماتت الهزيمة .. أو هكذا حاولوا أن يمحوا آثارها بعض الشيء .. وإفساح المجال لحديث غيرها حتى ولو على المقاهى ..

ونجحوا فى ذلك أيضاً .. فقد بدأ حديث المعركة يطل برأسه وقلبوا صيغة الهزيمة إلى نكسة .. وتحول الرجاء إلى عمل ولكن ببطء ، وكله من أجل إزالة آثار العدوان والمجهود الحربى ..

لقد انقلبت الأوضاع فجأة .. وتحول كل شيء فى مصر إلى حديث المعركة حتى الحجارة والسكون .. وارتفع فوق الأعناق الشعار الذى كان بمثابة المفتاح السحرى لأى حديث على أى مستوى .. فلا صوت يعلو فوق صوت المعركة ..

* * *

وقبل أن تلهونا أحاديث الطرب ، وما حدث بعد الهزيمة وجهود أم كلثوم فى بث الروح المعنوية وإشعال الحماس الوطنى من جديد حتى لعبد الناصر نفسه .. يحلو لنا أن نسجل هنا لقطات عما حدث فى مصر بعد زلزال الهزيمة على المستوى السياسى ..

كانت البداية .. حين صحى جمال عبد الناصر على صوت الزلزال الذى كان يتوقعه فى أية لحظة من أيام يونيو عام ١٩٦٧ .. وكثيرا ما نبه إليه كبار قادته العسكريين .. ولكن يبدو أن الزعيم كان يقول وهم من خلفه يستمعون دون أن يعملوا بما يسمعونه .. وهذه كانت المصيبة الكبرى والعيب الخطير الذى وقع فيه الزعيم وسط رجاله الأشداء .. المهم أن هذا الزلزال قد دمر جبالا شامخة ، واقتلع أشجارا ضخمة ، وتغيرت الدنيا بين ليلة وضحاها ..

وفى ١١ يونيو قبل الرئيس عبد الناصر تحمل مسئولية الحكم من جديد ، بعد تمثيلية التنحى والنحيب والدموع والبكاء .. وقتها كنا نبكى على أنفسنا ، وعلى الكرامة التى خلفناها وراءنا فوق الرمال الساخنة تحت أقدام اليهود ..

وبعد عودته وقبوله الاستمرار فى الحكم .. أصدر أولى قراراته وهى تعيين الفريق أول محمد فوزى قائدا عاما للقوات المسلحة .. ومن ثم تم البدء فى وضع تصميمات إعادة البناء والتنفيذ من حيث سرعة إعادة الصمود العسكرى .. والعمل على تماسك

القوات المسلحة مع الشعب والحكومة .. ورفض الهزيمة وتوطيد التعاون الوثيق بالدول العربية جميعا .. ثم توطيد الصداقة مع الاتحاد السوفيتى ..

كان ذلك من أجل استرداد الأرض بالقوة **« فما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة »** .. وقد تصورت اسرائيل أن السيادة العسكرية قد دانت لها .. وأن الشعب والجيش المصرى قد انتهى إلى الأبد .. ولكن خاب هذا التصور ، وأثبت الواقع تصور آخر وبدرجة لم تكن تتوقعها اسرائيل .. فبعد حوالى ثلاثة أسابيع من قرار وقف إطلاق النار بين مصر واسرائيل ، وقعت معركة رأس العش التى استولى خلالها الجيش المصرى على موقع حصين ظل فى أيدينا سنوات حرب الاستنزاف ، وحتى حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ .. ثم معركة بور توفيق وإغراق المدمرة إيلات ..

وظل هذا الحال على ماهو عليه حتى عام ١٩٦٨ حين بدأت بقسوة حرب الاستنزاف ، التى أطلق عليها الخبراء العسكريون حرب الإرهاق الحقيقى لاسرائيل ، والتى استمرت حتى تحقيق نصر أكتوبر عام ١٩٧٣ ..

لقد مرت مصر فى هذه الفترة بمرحلة صعبة نفسيا وعمليا .. على كافة المستويات .. داخليا وخارجيا .. وخاض الانسان المصرى معركة مع نفسه أولا ، ثم مع العدو .. وبدأت بشائر الأمل تلوح فى الآفاق .. حين أصبحت المعركة هى شاغل الانسان المصرى فى كل مكان .. ولا شك أن الفن والمؤسسة الغنائية الأولى بزعامة أم كلثوم ، كان لها دورها البارز فى هذا الميدان الخطير من حيث إعادة الروح إلى جسد الإنسان المصرى الذى كان قد مات ..

* * *

● *حفلات خاصة ..*
من أجل المجهود الحربى :

وسط آلام الهزيمة .. وظلام الرؤية .. كان الانسان المصرى يضحك ، ربما على نفسه أو من نفسه .. فقد برزت من جديد الشعارات .. وأطلت برأسها من تحت التراب .. بعد ما داسها الناس وسط الدموع بأرجلهم الملطخة بالطين والدماء ..

لقد بدأت الاذاعة وكافة وسائل الاعلام الأخرى .. تركز على رفع شعارين لاثالث لهما .. الأول « لا صوت يعلو فوق صوت المعركة » ومعناه أن كل شيء الآن أصبح مباحا لذوى السلطان ، مادام هدفه خدمة المعركة .. ولا حديث عن حرية أو طعام أو خلافه ، مادام صوت الحديث عن المعركة مرتفعا .. وقد تحمل الانسان المصرى صابرا هذا الشعار ، لأن الهدف قومى ومصيرى ومرتبط بحياته التى عاشها آلاف السنين على أرضه الطيبة وبكرامته التى يحاول استعادتها ..

أما الشعار الثانى .. والذى استخدم هو الآخر بشكل جيد .. فهو شعار « المجهود الحربى ».. وقد كان بالفعل شعارا جذابا سارع إلى تحقيقه كل من يريد أن يتقرب من جديد لذوى النفوذ ، حتى ولو كان على مستوى القرية أو الحى ..

وقد بدأت الدعوة للمساهمة فى هذا المجهود من المدارس والتلاميذ إلى الملاهى والطرب والأغانى وكافة الحفلات .. كما إضيفت أعمال تحملها الناس .. تحقيقا لهذا الشعار .. وكان أكثر هؤلاء الذين تأثروا بهذا الشعار وسارعوا من أجل تحقيقه .. كوكب الشرق أم كلثوم ..

بجانب ذلك .. استطاعت أم كلثوم بحسها الوطنى وبحبها الشديد للزعيم المكسور جمال عبد الناصر .. أن تغير من لهجة كلمات أغانيها .. حيث غلب عليها الطابع الحماسى الشديد .. ليس فقط لبث الحماسة لأفراد الشعب .. بل للزعيم الجريح .. ويبدو ذلك جليا من خلال استعراضنا السريع لمضمون هذه الأغنيات التى سجلتها أم كلثوم فى الفترة من عام ١٩٦٧ وحتى عام ١٩٧٠ .. يوم رحيل الزعيم ..

ففى شهر أغسطس عام ١٩٦٧ .. وبعد مرور شهرين على الهزيمة غنت أم كلثوم أغنية « طوف وشوف » من تأليف الشاعر عبد الفتاح مصطفى وتلحين رياض السنباطى .. وكلماتها تدور حول التغنى بآثار مصر القديمة والحديثة « طوف بجنة ربنا فى بلادنا واتفرج وشوف » .. ولا نعرف إن كانت أم كلثوم تقصد أن نتفرج على بلادنا قبل الهزيمة أو بعدها .. وفى آخر كلمات القصيدة لم تنس الزعيم الجريح حيث غنت تقول له :

والأمل أصبح عمل والخيال أصبح نضال — هى دى ثورة بلادى اللى حققها جمال

وفى نفس الشهر غنت أم كلثوم أغنية أخرى بعنوان « حبيب الشعب » من تأليف صالح جودت وتلحين رياض السنباطى ، وتقول بعض كلماتها أيضا وهى تمجيد فى شخص الزعيم عبد الناصر :

أنـت النـاصـر والمنصـور أبقى فأنت حبيب الشعب
قـم للشعب وبدد يأسـه واذكـر غـده واطـرح أمسـه

كما غنت قصيدة أخرى بعنوان « قوم بإيمان » من كلمات الشاعر عبد الوهاب محمد وتلحين رياض السنباطى أيضا .. وهى على طريق بث الحماسة الوطنية لشخص جمال عبد الناصر من أجل تأكيد وجوده لدى الإنسان المصرى بعدما هزمه الزلزال .. إذ يقول :

قـوم بإيمـان وبـروح وضمـير دوس على كـل الصعـب وسـير

وكما ذكرنا من قبل فإن جرعة الأغنية العاطفية التى تعود عليها الناس من أم كلثوم قد قلت نغمتها فى هذه الفترة إلى درجة الندرة .. ولم يعد يسمع الناس سوى كلماتها العاطفية القديمة .. وربما كان ذلك مرجعه للتخطيط الاعلامى الجديد والدور الذى بدأ يرسمه لأم كلثوم جمال عبد الناصر بعدما أفاق من هول صدمة الهزيمة .. إذ شعر فى قرارة نفسه ما وصلنا إليه من أن جرعة الأغانى العاطفية ، كانت قوية التأثير فى الناس ، وفى كافة المناصب .. وتسرب سحرها إلى أعلى القيادات آنذاك ..

ويكفينا قول الأستاذ فتحى رضوان فى شهادته للتاريخ .. حيث ذكر أن عبد الناصر نفسه كان من سميعة أم كلثوم الذى كان يسهر كى يسمعها حتى نهاية الحفل واختتام الإرسال الاذاعى ..

لقد قلت بالفعل هذه الأغانى العاطفية بشكل مثير للدهشة والتساؤل ، ونحن نسجل هذه الملاحظة من واقع سجلات الأغانى والقصائد التى سجلتها أم كلثوم بعد هزيمة عام ١٩٦٧ .. ويكفى أن نقول أن عدد الأغانى العاطفية خلال ثلاث سنوات ، وبعد عام ١٩٦٧ بلغت أربع قصائد هم : « اسأل روحك » من تأليف عبد الوهاب محمد و« فات الميعاد » من كلمات الشاعر مرسى جميل عزيز و « ألف ليلة وليلة » من كلمات نفس الشاعر وأغنية « الحب كله » من تأليف الشاعر أحمد شفيق كامل ..

لقد كانت أم كلثوم تخطط لخدمة المعركة والمساهمة فى المجهود الحربى .. ولسوف نصحبها بعد قليل خلال رحلاتها العديدة التى قامت بها هناك من أجل عيون عبد الناصر ، والمعركة وإعادة الحماس والأموال والإعداد لتحقيق شعار « ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة » مع إزالة آثار العدوان ..

وتقول الكاتبة الجزائرية « ايزابيل صياح » عن هذه الجهود التى قامت بها أم كلثوم خلال هذه الفترة :

ـ لقد استطاعت أم كلثوم أن تجمع خلال الاسبوع الأول من شهر يوليو عام ١٩٦٧ مبلغ ١٥ ألف جنيه .. وقدمته لوزارة الشئون الاجتماعية .. كما قررت أن تقوم بجولة فى العالم لتغنى .. ويكون دخل حفلاتها لصالح خزانة الدولة .. وفعلا قبلت أول حفل خارج نطاق الدول العربية فى العاصمة الفرنسية ..

وفى يوم سفرها إلى باريس خرجت جموع كثيرة كى تودعها فى مطار القاهرة وكانت أم كلثوم تبدأ كل صباح بتلاوة آيات قرآنية لتستمد منها الايمان والقوة .. وفى مساء اليوم التالى لوصولها وقفت أم كلثوم على خشبة « أوليمبيا » أكبر مسارح باريس .. وكانت أول مرة تغنى فيها أمام جمهور غربى .. ولكن مدير المسرح طمأنها بأن الشعب الفرنسى ينتظر ظهورها على خشبة المسرح .. وأن الصحف نشرت مقالات وصورا عنها ..

أما الاذاعة الفرنسية فقد أذاعت لها عدة أغانى قبل وصولها إلى باريس .. لقد كانت باريس هى الخطوة الأولى فى مهمتها الجديدة ، السياسية قبل الفنية حيث انتهزتها فرصة وأرسلت رسالة للرئيس الفرنسى « شارل ديجول » لتقدم له التحية .. فهو قائد قوى وهى تحترمه وتقدره منذ الحرب العالمية الثانية ، فهو الذى أنقذ فرنسا وقادها إلى النصر .. ولأنه وقف بجانب العرب ..

وقبل ساعات من بداية حفلها طمأنها مدير المسرح بأن أكثر من نصف المشاهدين من الشرق .. كما قدم لها الصحف الفرنسية لتقرأ ما كتبته عنها فوجدت أيضا أن الصحفيين الفرنسيين يقارنونها بالمطربة الايطالية « ماريا كالاس » والمطربة الفرنسية « أديث بياف » التى تتميز بصوت يخاطب وجدان شعبها .. ولكن أم كلثوم لا ترضى

بالمقارنات مهما كانت .. فأم كلثوم لها طابعها الخاص ، ولها مهمة تؤديها عن طريق غنائها .. وقد قدمت أم كلثوم فى هذا الحفل أغنية « الأطلال » أشهر أغانيها ..

ولشدة إعجاب الجمهور بادائها كانت تعيد المقطع أكثر من مرة حتى وصل إلى عشرات المرات .. وكان أسلوبها يختلف فى كل مرة عن سابقتها .. وقد حصلت أم كلثوم مقابل اقامة حفلتين على ٢٠ مليون سنتيم خصصتها لخزانة الدولة فى مصر ..

أما أم كلثوم فتسجل لنا انطباعها عن هذه الجولة الفنية خارج حدود مصر ، وحدود الدول العربية فتقول :

ــ واجتزت الحدود .. غنيت فى باريس ويرجع الفضل إلى المرحوم الدكتور محمود أبو عافية الذى حرر لى عقد كوكاترديس للغناء على مسرح الاولمبيا وقبل الحفل جاء كوكاترديس خائفا .. فقد نما إلى علمه أن الصهيونية لن تترك هذه الحفلات تمر على خير ، وقلت له أننى لا أخاف ، وأننى سأغنى ، كما أننى مصممة على تنفيذ العقد ..

وقد حددت موعد سفرى ، وتدخل ابن شقيقتى .. المهندس محمد الدسوقى وقال :

ــ كل ما أريده أن تحجز لى غرفة بجانب غرفتها لأكون فى حراستها .. وحتى هذه لم أقبلها ، ففى العمل الوطنى لا أحد يحرس أحد ولعلها أسعد ليالى عمرى .. ليلة الغناء فى مسرح الاولمبيا ، فقد غنيت « أعطنى حريتى .. أطلق يديا » بانفعال لا أتصورنى بلغته أو سوف أبلغه بعد ذلك .. هل أتاك حديث الجماهير ، وماذا فعلت وأى جنون قد أصابها ؟ الحمد لله .. هذه نعمة من نعم الله وفضله .. ولقد عرفت أن اليهود الذين كانوا يعيشون فى مصر أول من حجزوا المقاعد وهم يسمعوننى ، ويتذكرون أيامهم هناك فى مصر ..

وبعد هذه الرحلة .. عادت أم كلثوم الى أرض مصر منتصرة .. فقد حققت أولى خطواتها بنجاح .. وقد منحتها السلطات آنذاك جواز سفر دبلوماسى .. كما حصلت على لقب سفيرة .. وبعد عودتها بدأت تعد للرحلة القادمة فى بعض الدول العربية ، وقد كلفت الشاعر أحمد رامى بإعداد قصائد جديدة ..

ثم بدأت أم كلثوم رحلتها إلى الدول العربية بدولة السودان .. وهناك غنت

للوحدة بين شعبى وادى النيل حتى أن الصحف نشرت أن ما فعلته أم كلثوم فى ساعتين أكثر مما فعلته السياسة فى ١٢ عاما .. كما أطلق اسمها على إحدى المدارس الجديدة فى السودان ..

ثم تابعت رحلاتها إلى فارس بالمغرب .. ثم إلى الرباط .. وغادرت المغرب إلى الكويت ، ومنها إلى تونس التى قضت بها عدة أسابيع .. حيث أرهقها كثرة السفر .. وتكريما لها هناك أطلق اسمها على أكبر شوارع العاصمة التونسية ..

لقد استمرت رحلات أم كلثوم قرابة عام استطاعت خلالها أن تجمع الأمة العربية حول مصر .. بعدما مزقتها كلمات عبد الناصر قبل وقوع كارثة عام ١٩٦٧ ..

وبعد أن أنهت جولتها حول العالم العربى ذهبت أم كلثوم إلى « سالزبورج » للعلاج والراحة .. حيث قضت هناك ثلاثة أسابيع .. استعادت صحتها وحيويتها .. ولدى وصولها إلى القاهرة كان فى استقبالها المهندس ابراهيم الدسوقى ابن شقيقتها والشاعر أحمد رامى ، والملحن الكبير محمد عبد الوهاب ، وعدد كبير من الجمهور .. وحين وصلت إلى فيلتها فى الزمالك وجدت فى انتظارها نصف مليون خطاب ، وأكثر من ٧٤ ألف تلغراف ..

أما الكاتب الصحفى محمود عوض فقد حدثنا عن رحلة أم كلثوم فى مجال الفن والسياسة حيث قال :

ـ **لكى نحب بلدنا** .. يجب أولا أن تحبنا بلدنا .. حب بغير شروط وبغير تحفظات .. ولقد أعطت بلدنا مصر حبها لأم كلثوم على بياض .. فكانت النتيجة أن الفنانة أحبت جمهورها .. وأم كلثوم أحبت بلدها بغير حدود ..

وخلال سنتين دارت أم كلثوم حول الكرة الأرضية مرتين .. من باريس إلى المغرب .. ومن تونس إلى لبنان ثم من السودان إلى ليبيا .. ومن الكويت إلى طنطا والمنصورة ودمنهور إلى الأسكندرية ثم إلى القاهرة .. وفى كل مرة كانت أم كلثوم تعود فيها إلى القاهرة كانت تعود بمبلغ ضخم فى يدها ، وحب ضخم فى قلبها .. لقد غنى صوتها بعد نكسة يونيو عام ١٩٦٧ ، وجمعت يدها الحصيلة وهى مليونان من الجنيهات

قدمتها أم كلثوم لبلدها فى سنتين .. تبرع إختيارى ومساهمة عاجلة .. تبرع من الجمهور إلى فنانته ومساهمة من الفنانة لبلدها ..

إن أم كلثوم أحبت مصر بغير حدود .. فأحبتها أم كلثوم بغير حدود وفى هذه المرحلة .. بدأ الجزء الفنى فى شخصية أم كلثوم يتراجع إلى الخلف مفسحا مكانه إلى الجزء الأساسى فى شخصيتها .. أنه الجزء الوطنى .. من الآن فصاعدا سوف تصبح مواطنة أولا ، وفنانة بعد ذلك .. المواطنة تقرر والفنانة تنفذ القرار ..

من الآن فصاعدا سوف تغنى أم كلثوم .. ولكن لصالح تبرعات إزالة آثار العدوان .. ولصالح تعمير مدن القناة أو لأى عمل يخفف عن مصر آلام الهزيمة ويساهم فى جهود النصر .. لقد أعطت أم كلثوم نموذجا لما يستطيع الفنان ، والفنان فقط أن يفعله لبلده .. نموذج شهده التاريخ من قبل مئات المرات ..

إن الفنان هو فى الواقع أكثر من يحب بلده .. لأن الفنان يستطيع أن يترجم الوطنية الى أشياء بسيطة ومفهومة .. وبهذا المعنى تتحول السياسة عند الفنان إلى شىء آخر خال من التعقيد والفلسفة .. السياسة هنا هى الدفاع عن الأرض .. دافع عن حياتك وعن أرضك .. عند هذه النقطة يقف الفنان فى المقدمة لأن الفنان أكثر البشر إلتصاقا بالأرض ..

ليس هذا فقط .. بل بادرت أم كلثوم بالدعوة إلى إقامة تجمع وطنى للمرأة المصرية .. تجمع يساهم بأى مجهود لترميم ثم تعبئة المشاعر الوطنية للمرأة المصرية بعدها قادت الحملة لجمع تبرعات المواطنين ..

* * *

● *الأيام الأخيرة فى حياة*
جمال عبد الناصـــــر

فى **السادسة والدقيقة ١٥ مساء الاثنين ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠ الموافق ٢٧ رجب عام ١٣٩٠ هجرية** .. توقف قلب عبد الناصر للأبد .. وبكى الناس الزعيم ..

وأعلن الأطباء فى تقريرهم الطبى .. وفاة الزعيم رسميا بعد رحلة آلام وعذاب استغرقت ٨ سنوات ..

ووجه أنور السادات نائب رئيس الجمهورية آنذاك بيان الموت إلى الأمة فى الحادية عشرة إلا خمس دقائق ليلة الوفاة نعى فيها جمال عبد الناصر .. وتقرر ليلتها أن تشيع الجنازة فى العاشرة صباح يوم الخميس أول أكتوبر لاتاحة الفرصة أمام دول وشعوب الأمة العربية للمشاركة فى الجنازة والوداع الأخير .. كما أعلن ليلتها الحداد رسميا فى مصر لمدة أربعين يوما ..

وفى أول أكتوبر عام ١٩٧٠ دفن جمال عبد الناصر فى المدفن الخاص الذى بنى خلف مسجد كوبرى القبة المواجه لمبنى الكلية الفنية العسكرية .. وأطلق على المسجد .. إسم جمال عبد الناصر ..

هذه قصة لحظات الوداع .. منذ الاعلان عن وفاة الزعيم وحتى اختفاء جسده تحت التراب ..

ولكن هل هذه الوفاة قد حدثت فجأة .. أم كان يعرف بأسبابها العديد من المحيطين بالرئيس عبد الناصر ؟.. طبعا كانتْ لهذه الوفاة أسبابا ومقدمات .. كان يعرفها كل المقربين للزعيم الراحل .. إلا أفراد الشعبَ ، وكأنما كانت أخبار مرض الزعيم من أسرار الدولة العليا .. ولا يجب أن يظهر الرئيس ضعيفا أو مريضا أمام شعبه وخاصة رجل مثل جمال عبد الناصر ..

لقد فوجئنا بنبأ الرحيل .. ولطمنا الخدود .. وذرفنا الدموع .. وانطلقنا وحوشا كاسرة وسط الشوارع بلا دليل ولا هوادة .. ندمر كل شيء فى طريقنا تحت تأثير الصدمة .. وأصبحت مصر بعد لحظات من الاعلان عن نبأ الوفاة رجل درويش يتخبط فى أزيائه ويصيح الله أكبر .. ويلوح بعصاه هنا وهناك ، وكأنما قامت قيامة الناس .. ليس فقط فى عاصمة مصر القاهرة .. بل امتد هذا التأثير المجنون لرحيل الزعيم الأسطورة إلى كل عواصم ومحافظات مصر .. بل فى داخل كل حارة أو قرية وشارع من الاسكندرية مرورا بالقاهرة وحتى أسوان وحدود السودان ..

كما أمتد هذا الهوس فى الاسراع للمشاركة فى جنازة الزعيم الأسطورة إلى العديد من

عواصم العالم العربى والأجنبى على السواء .. فقد خرج الشعب العربى كله من المحيط إلى الخليج يبكى عبد الناصر .. وأعلن فى كافة عواصم العالم أسماء الملوك والرؤساء الذين سوف يحضرون تشييع الجنازة .. وكان منهم الرئيس كوسيجين « الاتحاد السوفيتى » هوارى بومدين « الجزائر » الرئيس تيتو « يوغسلافيا » ، وليم روجرز وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية ، موريس شومان وزير خارجية فرنسا وجعفر نميرى « السودان » ومعمر القذافى « ليبيا » والملك حسين « الاردن » وياسر عرفات « فلسطين » ..

ومن لم يستطع الرحيل مبكرا إلى القاهرة للمشاركة فى الجنازة ، كان يقيم فى بلده جنازة يتقدمها رئيس هذا البلد .. مثلما حدث فى كثير من البلدان العربية ، أما بالنسبة للدول الأجنبية فقد كان رؤساء بعضها يسارعون إلى السفارة المصرية لتقديم خالص العزاء ..

* * *

وقبل نقل جثمان الفقيد إلى قصر القبة ملفوفا فى علم مصر استعدادا لمراسم الدفن .. قدم الأطباء المعالجون تقريرا طبيا عن الوفاة .. وظروفها وأسبابها .. وأوضحوا فيه أن عبد الناصر شعر بدوخة مفاجئة مع عرق شديد وشعر بهبوط أثناء وداعه لأمير الكويت بمطار القاهرة فى الثالثة والنصف من بعد ظهر يوم ١٩٧٠/٩/٢٨ ..

وكان جمال عبد الناصر قد توجه فور شعوره بالتعب إلى منزله بمنشية البكرى .. ليكشف عليه الأطباء ويجدوه مصابا بأزمة قلبية شديدة .. نتيجة انسداد فى الشريان التاجى للقلب .. وقد تم إجراء جميع الاسعافات اللازمة بما فى ذلك استعمال أجهزة تنظيم ضربات القلب .. ولكنه توفى فى السادسة والربع مساء نفس اليوم أثناء إجراء الاسعافات .. وقد وقع هذا التقرير خمسة أطباء تابعين لرئاسة الجمهورية ..

والسؤال الذى لا يزال يتردد ويفرض نفسه بقوة .. ونحن نحمل كلماته ونسطرها فوق الأوراق ونقول معه .. وهل مات جمال عبد الناصر فجأة ؟ أم كان لهذا الموت مقدمات يعرفها الكثيرون من المحيطين بالزعيم ..؟!

نعم .. لقد صدرت مئات الكتب التى حاولت الاجابة على هذا السؤال ، ومنهم

كتاب الكاتب الصحفى فاروق فهمى بعنوان « جمال عبد الناصر ولغز الموت » وكلها تدور وتلف حول البحث عن إجابة السؤال الذى طرحناه العديد من المرات .. ولا يعنينا فى هذه الكتب إلا شيء واحد فقط .. هو أن نتتبع من خلالها لحظات ما قبل الموت .. هذه اللحظات قد تمتد إلى سنوات طويلة .. وتكون بالنسبة لرؤساء الدول والزعماء بمثابة مراحل وخطوط بالطول والعرض فى تقارير طبية سرية أحيانا وعلنية أحايين كثيرة ..

المهم أن لمرض الزعماء سجل كبير .. به كافة التقارير المرتبطة بهذا المرض أو بذاك .. ويعرف بها الناس فى الشارع .. لأن صحة الرئيس هامة جدا بالنسبة لمصير أى شعب .. ويخرج عن هذه القاعدة كافة الدول النامية وكثير من الدول العربية .. إذ ينظر كل من حول الزعيم أو الرئيس أن حكاية المرض هذه من خصوصيات قصر الرئاسة ولا يجب أن يعلم بها أفراد الشعب .. الأمر الذى يجعل بعض أفراد الشعب المساكين يتخيلون أن الرئيس قد مات فورا وبلا مقدمات ..

هذا ما حدث للشعب المصرى مع زعيمه الأسطورة جمال عبد الناصر .. ومن بعد الرحيل تكلمت الأوراق .. وخرجت النشرات والتقارير الطبية من الأدراج المختومة بالشمع الأحمر .. وتكلم الأطباء المعالجون .. حتى الذين تابعوا لحظات الوداع الأخيرة .. ودار الحديث بين الحقيقة والأسطورة .. بين ما حدث فعلا وما وقع فى رأس بعض الذين يجيدون لعبة الخيال ..

فقد نشرت العديد من المذكرات للعديد من المسئولين المصريين الذين كانوا فى الحكم أيام جمال عبد الناصر ، حيث شككوا كثيرا فى وفاة الزعيم .. وأشار البعض منهم بأصابع الإتهام إلى جنائية الوفاة وإهمال العلاج .. ومؤامرات أجهزة المخابرات العالمية للاغتيال .. مثل هذه القصص والروايات حتى ولو كانت صحيحة لا تعنينا فى موضوعنا هذا من قريب أو بعيد ..

المهم علينا من هذه اللحظة أن نسجل بالكلمات لحظات العد التنازلى لرحيل جمال عبد الناصر .. وتبدأ القصة من ذاكرة أم كلثوم حين قالت بعض الأوراق التى صدرت آنذاك عن كوكب الشرق أم كلثوم .. التى لم تكن مثل ملايين المصريين والعرب الذين

فوجئوا برحيل الزعيم .. ففى حقيقة الأمر كانت تعرف أكثر من أفراد الشعب بمرض الزعيم وبقرب رحيله عن عالمنا ..

ففى ذات يوم ومع نهاية عام ١٩٦٩ قامت أم كلثوم بزيارة إحدى صديقاتها وأخذتا تتبادلان الحديث حول السياسة ومرض الزعيم عبد الناصر .. ومن ثم سفره للإتحاد السوفيتى للعلاج وطلب المساعدات العسكرية العاجلة .. لإستمرار حرب الاستنزاف .. كما دار الحديث بين أم كلثوم وصديقتها حول إمكانية سفرها هى أيضا أى أم كلثوم للعلاج فى الإتحاد السوفيتى ..

وبالفعل بدأت أم كلثوم تعد للرحيل إلى موسكو بعد موافقة السفارة السوفيتية بالقاهرة .. وهناك كان فى استقبالها وكيل وزارة الثقافة السوفيتى باعتبارها تحمل جواز سفر دبلوماسى مصرى .. وظلت أم كلثوم هناك فى الاتحاد السوفيتى حتى يوم ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠ حيث أسرعت للعودة إلى القاهرة بعد أن وصلها تلغراف عاجل بأن الرئيس عبد الناصر ، قد أصيب بأزمة قلبية .. وعند هبوطها سلم الطائرة فى لندن بكت أم كلثوم عند سماعها نبأ وفاة جمال عبد الناصر ..

* * *

تقول أوراق الملف الطبى الذى صدر بعد أعوام عديدة من رحيل الزعيم .. أن جمال عبد الناصر قد عاش صراعا طويلا مع المرض .. وكان السكر .. هو المتهم الأول فى التعجيل برحيله بعد ٨ سنوات من الاصابة به فجأة ..

لقد عرف جمال عبد الناصر .. المرض القاتل فى لحظة الصراع بينه وبين خروشوف عام ١٩٥٨ .. وكان عبد الناصر فى زيارة ليوغسلافيا وخلال عودته من الزيارة اندلعت ثورة العراق فى يوليو عام ١٩٥٨ فقطع الرحلة وتوجه إلى موسكو ومكث مع خروشوف فى مناقشات استمرت ١٦ ساعة متواصلة كى يقنع زعيم الاتحاد السوفيتى بمساعدة العراق[1] .

ولكن خروشوف رفض بإصرار رغم محاولة عبد الناصر إقناعه بأن الثورة العراقية

(١) جمال عبد الناصر ولغز الموت ــ فاروق فهمى ..

ضد الاستعمار والأحلاف الغربية .. وكانت مصر آنذاك فى وحدة مع سوريا .. وكانت صدمة قاسية لعبد الناصر بعد أن شعر أنه لا يمثل شيئا أمام حليفه القوى الاتحاد السوفيتى الذى يرفض أن يعامله كزعيم للمنطقة العربية ..

ثم زاد مرض السكر على الزعيم عام ١٩٦٢ فور الانفصال مع سوريا ، ودخل الأطباء معه فى صراع مرير من أجل إقناعه بالمرض الجديد .. وضرورة تنظيم الطعام وأسلوب العمل والراحة والاجازات ..

وما حدث فى اليمن .. جعل نسبة السكر ترتفع بشكل مخيف .. هدد حياة عبد الناصر .. وكانت بداية طريق الاصابة فى ساقه اليمنى بتصلب الشرايين وشعوره بالآلام القاسية .. حيث تحولت اليمن ومساندة ثورتها إلى مستنقع ، غرق فيه الزعيم وأفقده القدرة على التفكير .. وحاول الأطباء إنقاذ حياته بعد أن تدهورت فى أيام القتال الأولى .. ووصفوا له العلاج .. ولكنه رفض النصائح الطبية ، خشية أن يكون هؤلاء الأطباء من عملاء المخابرات الأمريكية أو السعودية !! ..

وجاءت الطامة الكبرى .. حيث حلت علينا وعليه هزيمة عام ١٩٦٧ .. والتى يعتبرها العديد من المؤرخين هى موعد موته الحقيقى حيث قتل عبد الناصر نفسيا ومعنويا وصحيا[١] ..

لقد كانت قمة مأساته الشخصية طوال اليوم الأسود فى استماعه إلى كل أخبار الهزيمة من مختلف إذاعات العالم .. ولم يجد أمامه سوى البكاء .. وفى هذه اللحظات ارتفع السكر فى دم جمال عبد الناصر ، إرتفاعا مخيفا فزادت كمية الأنسولين الذى كان يتعاطاه وعلت صفرة الموت وجهه ، وبات يعانى من الام مبرحة بعد أن تحول السكر إلى أملاح سامة انتشرت داخل شرايين ساقه .. فقد كانت أى حركة يقوم بها الزعيم تسبب له الآلام الشديدة فى جميع أجزاء جسده طوال الـ ٢٤ ساعة .. وفى هذه الفترة أيضا اكتشف الأطباء أيضا إصابة عبد الناصر بخلل فى البنكرياس وفقد الدم نتيجة للأنسولين الذى بدأ يتعاطاه بكميات كبيرة ..

---

(١) المرجع السابق ..

وفى ١٣ يونيو عام ١٩٦٧ .. أجرى له الأطباء كشفا عاما .. حيث اكتشفوا إصابته بأول أزمة قلبية .. ولم يجرؤ أحد أن يخبر الزعيم بهذه الاصابة ..

ووضح على جمال عبد الناصر تأثير إصابة ساقه .. حيث لم يعد يستطع فى هذه الفترة السير إلا متكئا على أحد مهما كانت المسافة قصيرة .

وفى يوليو عام ١٩٦٨ كانت حرب الاستنزاف على أشدها .. وكان جمال عبد الناصر فى زيارة للاتحاد السوفيتى من أجل الحصول على المزيد من الأسلحة الحديثة ..

ويذكر الأستاذ محمد حسنين هيكل أنه وفى الطائرة التى كانت تقل السيد الرئيس إلى موسكو كان يجلس أمام عبد الناصر فلاحظ أن الرئيس عبد الناصر لا يستطيع الجلوس فى مقعده من شدة الألم .. وفرش له الأطباء المرافقين سريرا فى الجزء المخصص له فى مقدمة الطائرة .. ورغم الألم الشديد يقول هيكل أن عبد الناصر قد استدعاه بعد أن صحا من النوم ، وطلب رؤية ياسر عرفات الذى كان مرافقا لعبد الناصر فى رحلته إلى موسكو ..

وبناء على اقتراح من الأطباء المرافقين وافق جمال عبد الناصر ، على أن يعرض نفسه على أطباء من الاتحاد السوفيتى .. وبالفعل دخل مستشفى بريخة وأجرى له الأطباء السوفيت كشفا عاما ، فوجدوا أنه مصابا بتصلب فى شرايين الساق اليمنى من أثر مضاعفات السكر .. وقرروا ضرورة عودة الزعيم إلى الاتحاد السوفيتى مرة أخرى بعد أسبوعين لعلاجه فى مصحة اسخالطوبو بالمياه المعدنية ..

وعاد عبد الناصر إلى القاهرة .. ثم سافر بعدها الى موسكو من جديد وفى الموعد الذى حدده الأطباء السوفييت وقضى هناك أسبوعين عاد بعدهما لقضاء إجازة نقاهة بالاسكندرية .. ولم تخف آلام ساق عبد الناصر .. وطلب منه الأطباء السوفيت أن يرحل إليهم من جديد فى جينيف عام ١٩٦٩ لمواصلة العلاج الذى كان أساسه حمامات من الإشعاع النووى .. وكان جمال عبد الناصر يأخذ حمامه العلاجى كل صباح فى السابعة والنصف .. ثم يعود للافطار فى الثامنة .. وكان بين المصحة والحمام حوالى ٤٠٠ متر ..

وفى ١١ سبتمبر عام ١٩٦٩ .. أصيب جمال عبد الناصر بأول أزمة قلبية حادة ..

شخصها الأطباء آنذاك بأنها ذبحة صدرية حادة ، ومن الممكن أن تؤدى للوفاة فى أى لحظة ..

ويقال أن سبب هذه الأزمة الصحية الجديدة أن عبد الناصر قد علم فى اليوم السابق للإصابة أن الاسرائيليين قد قاموا بعملية إنزال عسكرى فى الزعفرانة على خليج السويس .. وقد صورت إذاعات هذا الانزال بأنه غزو جديد لمصر ..

وعلى الفور قرر الأطباء أن يعرف عبد الناصر حالته كى يساعدهم فى العلاج .. وانتهت مناقشة الأطباء مع عبد الناصر ، على أن يحصل الزعيم على أجازة إجبارية لمدة ٦ أسابيع قابلة للتجديد ..

وفى ٢٨ سبتمبر عام ١٩٦٩ .. كان جمال عبد الناصر يزور ليبيا فى أعقاب مؤتمر القمة العربى فى الرباط .. وبعد أن نزل من الطائرة ركب سيارة مكشوفة ظلت تطوف بشوارع بنغازى لمدة ٤ ساعات .. عاد بعدها إلى القاهرة أكثر إجهادا .. بل وأصيب بنزلة برد حادة ، على اثر قيام إسرائيل بغارات فى عمق الأراضى المصرية ، وزاد عدد الضحايا من الأطفال والمدنيين .. وقرر عبد الناصر السفر إلى موسكو فى الأسبوع الأول من يوليو من عام ١٩٧٠ .. ورغم اعتراض الأطباء على هذه الزيارة حيث مايزال يعانى من الانفلونزا الحادة إلا أنه سافر إلى موسكو ، التى كانت درجة حرارتها آنذاك ٢٦ درجة تحت الصفر .. وكانت هذه هى آخر زيارة يقوم بها جمال عبد الناصر الى موسكو لإجراء آخر مباحثات سياسية له هناك قبل موته ، حيث عاد إلى القاهرة فى ٢٠ يوليو عام ١٩٧٠ لحضور المؤتمر القومى الأول بعد إعلانه قبول مبادرة روجرز لحل الصراع العربى الاسرائيلى ..

وبعد انتهاء المؤتمر ذهب إلى مرسى مطروح فى اجازة لمدة ٢٤ ساعة ، عاد بعدها إلى القاهرة بعد إندلاع أزمة المقاومة الفلسطينية والملك حسين ..

ويرى المراقبون أن رحلة مرسى مطروح هذه كانت بداية النهاية .. حيث قطع عبد الناصر هذه الأجازة القصيرة ، وعاد إلى القاهرة مسرعا كى يبدأ رحلة للإعداد لعقد

مؤتمر القمة العربى .. الذى كان آخر المؤتمرات التى حضرها .. هذا المؤتمر الذى دعا إليه لوقف مذبحة الفلسطينيين فى الأردن ..

وإنعقد المؤتمر فى أحد فنادق القاهرة .. وكان عبد الناصر يبدأ يومه فى السادسة صباحا ، وينتهى فى العاشرة مساء دون نوم أو طعام .. ولما انتهى مؤتمر القمة العربى الأخير .. خرج الرئيس عبد الناصر للتوجه إلى مطار القاهرة لحضور مراسم الوداع الأخيرة مع أمير الكويت .. بعدما ودع من قبل العديد من الملوك والرؤساء العرب الذين حضروا هذا المؤتمر .. وكأنما كانوا يسارعون من أجل إلقاء النظرة الأخيرة على الزعيم جمال عبد الناصر ، الذى رحل بعد أقل من عدة ساعات من انتهاء آخر جلسات هذا المؤتمر ..

وفى وداع أمير الكويت ، أحس عبد الناصر فى الدقائق الأخيرة أنه متعب بأكثر مما يحتمل .. لكنه تماسك .. بجهد لا يصدق على حد تعبير الكاتب الصحفى محمد حسنين هيكل ..

صعد أمير الكويت إلى طائرته ، والتفت الرئيس يطلب سيارته ، وكان ذلك على غير المعتاد .. فقد كانت عادته أن يذهب إلى سيارته ماشيا حيث تقف .. وجاءت السيارة ودخل إليها عبد الناصر الذى طلب على الفور طبيبه الخاص الدكتور الصاوى ..

وفى المنزل بمنشية البكرى اكتشف طبيب عبد الناصر .. جلطة جديدة فى الشريان الأمامى للقلب . وكان قد أصيب من قبل بجلطة فى الشريان الخلفى ، وفى غرفة نوم الزعيم .. كان المشهد الأخير .. حيث كان يستمع عبد الناصر إلى نشرة أخبار الساعة الخامسة من مساء يوم ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠ ..

وفجأة أغمض عبد الناصر عيناه ثم وجدوه ينزل يده من فوق صدره حيث استقرت بجواره .. فقد مات الزعيم عن عمر يناهز الثانية والخمسين من عمره .. حيث توقف قلب جمال عبد الناصر فى السادسة والدقيقة ١٥ من مساء يوم الاثنين ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠ ..

عندئذ انفجر البركان البشرى فى مصر ، وفى كافة أنحاء العالم العربى .. وخرجت الملايين متجهة إلى قصر القبة للمشاركة فى جنازة الزعيم ، ومن قبلها إلى منزل عبد

الناصر بمنشية البكرى ، ففى أقل من ساعة واحدة بلغ عدد الموجودين حول المنزل أكثر من مليون مواطن ..

وتوقفت الحياة فى مصر .. وأغلقت دور الملاهى والمحال العامة ودور السينما .. وشاركت أم كلثوم هؤلاء الملايين فى الوداع الأخير ..

وكان هذا الحدث بمثابة بداية العد التنازلى لحياتها الفنية .. وبالتالى رحيلها مثل ما رحل قبلها جمال عبد الناصر ..

الفصل السادس

مابين صاحبة العصمة
والسيدة الأولى

اذا كانت مصر كلها من أقصاها إلى أقصاها .. قد أفاقت فى يوم من الأيام غير المعروفة على صوت من يرددون فى كل مكان .. وفى وسائل الاعلام المقروءة والمرئية والمسموعة اسم سيدة مصر الأولى .. السيدة جيهان صفوت حرم الرئيس محمد أنور السادات ..

فان الكثير ممن رددوا هذا اللقب الغريب ، لم يعرفوا أن أم كلثوم أيضا كانت هى الأخرى ضمن السيدات الأوائل فى مصر قبل الثورة .. حيث منحها الملك فاروق وسام الكمال من الدرجة الأولى ، والذى بموجبه حصلت على لقب « صاحبة العصمة » ..

معنى ذلك أنه إذا كانت السيدة جيهان قد منحت هذا اللقب من قبل زوجها باعتباره الرجل أو الرئيس الأول .. فإن أم كلثوم أيضا قد منحت هذا اللقب من السيد الأول أو ملك البلاد آنذاك فاروق الأول ..

إن لقب « صاحبة العصمة » الذى اقترن باسم كوكب الشرق ، أم كلثوم منذ

منتصف الأربعينات جعلها فى مقام أميرات القصر الملكى ، ولها نفس الحقوق والامتيازات ..

هذا اللقب لم تتمتع به سوى سيدة واحدة فى مصر .. وفى مجال الفن بالذات .. أنها « صاحبة العصمة » السيدة أم كلثوم ابراهيم البلتاجى ، وحتى نكون أكثر دقة فى هذا التعبير .. كانت أم كلثوم السيدة المصرية الوحيدة التى حملت هذا اللقب من خارج الأسرة المالكة ..

وبعد رحيل الزعيم جمال عبد الناصر .. وتولى نائبه محمد أنور السادات رئاسة الجمهورية .. خلع على زوجته لقب « السيدة الأولى ».. وهو لقب لم يكن معروفا داخل المجتمع المصرى قديما أو حديثا .. وإنما هو لقب منقول حرفيا ووظيفيا ولغويا من المجتمع الأمريكى ..

وكما يقول الأستاذ أنيس منصور هو لقب لا تحمله فى المجتمعات الأمريكية والاوربية إلا زوجات رؤساء الدول وزوجات رؤساء الوزارات ..

ولا شك أن منح جيهان السادات لقب « **سيدة مصر الأولى** » كان له تبعات وآثار عديدة داخل المجتمع المصرى وخارجه .. كما كان له عدة وظائف .. كان على السيدة الأولى أن تقوم بها من واقع هذا المنصب الشرفى .. وقد تركزت هذه الوظائف ، وفقا لهذا اللقب فى ميدان الخدمة الاجتماعية .. الذى حاولت أم كلثوم أن تدخله بعد ما قررت اعتزال الفن أو الإقلال منه بعد رحيل الزعيم جمال عبد الناصر ..

لقد كان هذا اللقب هو بداية صراع خفى بين كوكب الشرق أم كلثوم « **صاحبة العصمة** » وبين السيدة جيهان السادات « **سيدة مصر الأولى** » هذا الصراع لم يتوقف عند حد معين .. بل كان له تأثير السحر على رئيس الدولة نفسه .. حيث بات ينظر إلى أم كلثوم على انها من مؤيدى الناصرية .. وأنها كانت قريبة من بعض مراكز القوى التى بدأ يتعامل معها لتصفيتها .. حيث تغلب على أعوان الزعيم السابق عبد الناصر فيما أسماه بثورة التصحيح ..

ويبدو أن الرئيس أنور السادات لم يحبذ أبدا أن يدخل ولو بطريق غير مباشر فى

صراع ، من أجل القضاء على كوكب الشرق أم كلثوم باعتبارها كانت ممثلة المؤسسة الإعلامية الخطيرة أيام عبد الناصر ، وذلك لأنه كان يعلم تمام العلم .. أن أم كلثوم رغم كبر سنها آنذاك واقترابها الشديد من جمال عبد الناصر ، ودورها الهام فى تثبيت قواعد الثورة .. إلا أنها كانت ولا تزال تتمتع برصيد جماهيرى كبير ، بصرف النظر عن بعدها أو قربها من الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ..

أضف إلى ذلك أن أنور السادات نفسه حين تولى مسئولية الحكم بعد رحيل جمال عبد الناصر كان يردد أنه ضمن المسئولين عما وقع لمصر فى عبد الناصر من أخطاء .. وأنه سوف يحاول علاج مثل هذه الأخطاء ..

كما أنه عرف تمام المعرفة أن أم كلثوم برصيدها الفنى العظيم داخليا وخارجيا ، لا يمكن أن تدخل معه فى صراع أيا كان نوعه .. لأنها لم تدخل نفسها فى أى صراع سياسى من قبل .. ولم تحاول التقرب من الزعماء .. بل كان أكثر الملوك والرؤساء هم الذين كانوا يسعون للقائها ..

المهم .. أن الرئيس السادات بذكائه الشديد .. استطاع أن يكسر شوكة أم كلثوم الناصرية .. بشكل جديد وبأسلوب مبتكر .. وساعده فى ذلك زوجته صاحبة اللقب ، التى كانت تتردد فى كل جلساتها الخاصة .. أنه لا توجد فى مصر الآن سوى سيدة واحدة فقط .. هى سيدة مصر الأولى جيهان السادات ..

ورغم أنه سوف يمر علينا العديد من المواقف التى يحاول من خلالها الرئيس السادات أن يثبت وزوجته ، أنهما أبدا لم يقفا فى وجه أم كلثوم .. ولم يسعيا كما يتردد من أجل القضاء عليها .. والدليل أن الرئيس السادات نفسه ، فى بداية أيام حكمه سارع إلى تكريم كوكب الشرق أم كلثوم ومنحها لقب « فنانة الشعب » ضمن تكريمه للفنانين المصريين والعرب ..

أما بالنسبة لكوكب الشرق أم كلثوم .. فقد دخلت بموت جمال عبد الناصر فى منطقة اللاوعى واللاشعور .. وأصبحت هى الأخرى تنتظر الرحيل .. فقد أعيتها المفاجأة .. وأصابها رحيل الزعيم بالموت المبكر حيث هاجمتها الأمراض وباتت تنتظر الموت فى كل لحظة .. أضف إلى ذلك أن عمرها فى هذه الفترة كان قد قارب السادسة

والستين .. وحاولت أن تستريح من عناء السياحة فى عالم الفن وخشى معجبوها حين قررت الإعتزال من سوء فهم القيادة السياسة من ابتعادها فى هذا التوقيت بالذات ..

وكانت الأنباء الصحفية ، قد بدأت فى تلك الفترة تفرض نفسها على الصحف والمجلات ، فيما يتعلق بقرار اعتزال أم كلثوم الفن .. ففى أوائل شهر نوفمبر من عام ١٩٧٠ .. أى بعد رحيل عبد الناصر بأقل من شهرين .. نشرت الصحف خبرا يقول : كان رد الفعل الأول للمفاجأة الحزينة ، أن قررت أم كلثوم أن تعتزل الغناء نهائيا .. ثم عادت فقررت أن تعتزل الغناء موسما ..

لقد كان رد فعل طبيعى من خلال الدموع والتشنج المكتوم .. ولكن مع مرور الزمن اهتدت أم كلثوم التى ارتبطت بالثورة ارتباط أمل وحياة إلى أنها لكى تكرم روح عبد الناصر بطريقتها الخاصة .. ولكى تعرب عن إيمانها بالثورة .. فلابد وأن تغنى ..

ويواصل الخبر كلماته بقوله : ستغنى أم كلثوم إذن ، ولكن فى يناير وليس فى ديسمبر .. انتهى مضمون الخبر ..

والسؤال .. هل كان الرئيس السادات .. بعيدا عن أم كلثوم وارتباطها بعبد الناصر ورغبتها فى الاعتزال بعد الرحيل .. أشك فى الإجابة بالنفى .. لقد كان الرئيس السادات يحسب لأم كلثوم خطواتها .. وإن كان ذلك لم يبدو أبدا واضحا على السطح .. خوفا من غضب جماهير الفن وسميعة أم كلثوم ..

●صاحبة العصمة عام ١٩٤٠ ..

والسيدة الأولى عام ١٩٧٠ ..

الأيام تلف وتدور .. وتخرج من بين أصابع الناس بلا إستئذان .. ولا يبق للانسان إلا التاريخ .. يسجل ماله وماعليه .. ومن يحاول أن يهرب من التاريخ فمصيره هوة سحيقة من الأرض يدفن بداخلها وتلقى فوق رأسه القاذورات ..

وكثيرا ما نحتاج إلى التاريخ .. أنه المفكرة التى لا تنضب أبدا .. وكلما نسينا علينا بالذاكرة والمفكرة .. أنه التاريخ حتى ولو كان فيه شبه تزوير ..

والأيام تعود بنا إلى الوراء عشرات السنين .. كى نعرف قصة حصول أم كلثوم على لقب « صاحبة العصمة » مثلما سنفعل حين نطرق بأيدينا على بوابة الزمان ، ونركب آلته كى تتوقف بنا فى عالم السبعينات .. مثلما وقفت بنا من قبل على أبواب أعوام الأربعينات ..

كان أسعد يوم فى حياة أم كلثوم يوم أنعم عليها الملك فاروق بنيشان الكمال .

فقد كان النادى الأهلى بالجزيرة يقيم حفلا فى حديقة النادى تغنى فيه أم كلثوم .. وفوجىء الحاضرين أثناء الحفلة بالملك فاروق يدخل النادى ، ويجلس على المائدة التى يجلس عليها أحمد حسنين باشا رئيس النادى آنذاك .. وكانت أم كلثوم تغنى أغنية « هلت ليالى القمر ».. ولما انتهت الأغنية .. نادى الملك فاروق على الكاتب الصحفى مصطفى أمين الذى كان من بين الحاضرين .. وطلب منه أن يصعد فوق المسرح ويعلن نبأ حصول أم كلثوم على وسام الكمال ..

لقد سعدت أم كلثوم بهذا الوسام .. فقد كانت أول مرة يحصل فيها فنان على رتبة أو نيشان ..

وبقدر سعادة كل أبناء الشعب بهذا الوسام .. فقد كانت تعاسة الأميرات وزوجات رؤساء الوزارات .. حيث أنعم الملك بنشيان الكمال على المطربة .. فقد كان لا ينعم بهذا الوسام سوى على الأميرات وزوجات رؤساء الوزارات ..

وقالت إحدى الأميرات أنها سوف ترد إلى الملك وسام الكمال .. وتبعها فى هذا القرار العديد من الأميرات وزوجات رؤساء الوزارات آنذاك .. ووصل إلى علم أم كلثوم هذه الاحتجاجات الملكية .. فتحول فرحها إلى شقاء وبكت لهذه الاهانات ولكن تأكد لديها اقتناع الناس بهذا الوسام ، وبلقب صاحبة العصمة .. حين زارتها السيدة صفيه زغلول فى بيتها من أجل تهنئتها على هذا الوسام .. ومنذ هذه اللحظة ظلت أم كلثوم محتفظة بالوسام وحاملة للقب « صاحبة العصمة » ..

* * *

الآن .. أدرنا عجلة القيادة راجعين إلى حيث كنا وضبطنا الأزرار عند بداية

السبعينات .. وها نحن الآن فى عصر الجمهورية الثالثة ، التى تولاها الرئيس محمد أنور السادات ، والتى اتسمت بالعديد من السمات التى سجلها للتاريخ بحروف من ذهب ..

لقد تولى الرئيس السادات مسئولية الحكم بعد رحيل جمال عبد الناصر .. وبعد إجراء الانتخابات العامة .. وحين اختير اختيارا شعبيا نظر فيما حوله فوجد أمامه العديد من الصعاب .. كان أقصاها الاحساس المرير فى داخل نفس كل مصرى وعربى .. إحساس الهزيمة .. وكان عليه أن يحاول جاهدا بكل ما يملك من ذكاء وإمكانيات ضرورة التغلب على هذه العقبة النفسية الخطيرة .. وقد كان حيث نجح نجاحا مبهرا على هذا الطريق ، وحقق نصر أكتوبر المجيد ..

وهو فى طريقه من أجل تحقيق استعادة كرامة الانسان المصرى كان عليه أن يدوس على رقاب هؤلاء الذين حاولوا الوقوف أمامه فى الطريق ..

وأيضا نجح فى ذلك نجاحا مبهرا .. ولما خلى له الطريق ، واستطاع تحقيق الأمل وإعادة الكرامة للانسان المصرى اتجه إلى تحقيق المزيد من الاستقرار الاقتصادى .. ولم يغب عن ذهنه أبدا طوال هذه الفترة السؤال عن موقع أم كلثوم ودورها الذى بدى باهتا حتى بعد تحقيق انتصار اكتوبر ..

وما دمنا بصدد حديث السيدة الأولى .. فإننا قد بحثنا طويلا عن مصدر هذا اللقب .. ومتى بدأ .. ومن هو أول من كتبه أو ناداها باسم « سيدة مصر الأولى » .. ولم نعثر على تحديد هذه البداية .. المهم أننا عرفنا أن السيدة جيهان السادات بعد انتخابها عام ١٩٧٤ ، من قبل لجنة المرأة بمجلس الشعب أماً لأبطال مصر .. أو ما اصطلح على تسميته آنذاك الأم الأولى فى مصر .. وكان ذلك بمناسبة تكريم أمهات الشهداء فى إحتفالات انتصارات اكتوبر ..

بعدها فوجىء الناس بمن يرددون لقب « السيدة جيهان السادات .. سيدة مصر الأولى ».. هذا اللقب لم يكن يراود أحلام السيدة جيهان حرم رئيس الجمهورية مع الأيام الأولى لتولى زوجها مسئولية الحكم .. وذلك لأنه فى الفترة من أكتوبر عام ١٩٧٠ ومايو عام ١٩٧١ كانت شهور قلقة .. ولم تكن سلطات الرئيس السادات على

حد قول الدكتور أحمد شلبي سلطات كاملة .. فلما قضى على ذيول جمال عبد الناصر فى ١٥ مايو عام ١٩٧١ اكتمل له السلطان ..

حينئذ خلع على زوجته لقب « سيدة مصر الأولى ».. هذا اللقب الجديد استعاره السادات من البيت الأبيض الأمريكى .. ولكن وقع تعبير السيدة الأولى فى امريكا باللغة الانجليزية .. لم يكن كوقع تعبير سيدة مصر الأولى باللغة العربية .. أنه لقب يحمل معنى السيادة والترف(١) ..

ومن أجل تحقيق هذا اللقب قولا وعملا إنطلقت السيدة جيهان السادات فى مجال العمل العام .. خاصة فى المجال الإجتماعى .. ولم ترض أبدا أن تكون سيدة فى الظل .. بل إنطلقت من مجال العمل الاجتماعى إلى مجال العمل السياسى ، حيث رشحت نفسها أكثر من مرة لرئاسة المجلس المحلى لمحافظة المنوفية ..

لقد أحس الرئيس السادات أنه بمنح زوجته هذا اللقب يجعلها فى المقدمة دائما فى أى مكان تدخله .. ولم يغب عن ذهنه أبدا أن منحها مثل هذا اللقب ، سوف يقضى على « صاحبة العصمة » مديرة المؤسسة الإعلامية الناصرية كوكب الشرق أم كلثوم .. بعدما شاهدها أطلالا تتحرك ببطء فى طريقها للنهاية .. فأراد بذلك أن يكتب لها شهادة وفاة مبكرة .. وإلا فكيف تجرؤ أن تذيع على الملأ ، أنها قد اعتزلت الغناء من أجل عيون الزعيم الراحل جمال عبد الناصر .. لقد حرص الرئيس السادات على عدم حضور حفلات أم كلثوم ، أو السؤال عنها أو إقامة علاقات أسرية معها مثلما كان يفعل من قبله الرئيس الراحل جمال عبد الناصر .. وبالطبع كان للسيدة جيهان السادات أكبر الأثر فى تحديد علاقة السادات بأم كلثوم ..

وهناك واقعة يرددها الكثير من المقربين للرئيس السادات فى عالم الصحافة والفن .. ولكن أحدا من هؤلاء لم يستطع أن يسجلها بقلمه فظلت حتى الآن مجرد إشاعة أو واقعة لا تقوم على مستندات .. وعلى أية حال سوف نذكرها هنا كى نؤكد وجهة نظرنا فى تدنى العلاقة بين السادات وأم كلثوم ..

وأيضا جيهان السادات وأم كلثوم ، هذا العداء المستتر وضح وضوح الشمس فى

---

(١) أنور السادات شخصيته وعصره ـ دراسة محايدة ـ د . أحمد شلبى ..

المعركة التى خاضتها أم كلثوم ومشروعها الخيرى .. ضد مشروع مدينة الوفاء والأمل ..

تقول الواقعة التى أكدها لنا أكثر من مصدر .. والتى كانت بمثابة الاعلان عن بداية الصراع بين جيهان السادات وأم كلثوم ..

أنه بعد تولى الرئيس السادات مسئولية الحكم وانتخابه رئيسا لمصر ، خلفا للزعيم الراحل جمال عبد الناصر .. توجهت الوفود من أجل تهنئة السيد الرئيس وطبعا كان من بين هذه الوفود .. الفنانون والأدباء .. وعلى رأس هؤلاء الفنانين كوكب الشرق أم كلثوم .. التى خلعت الرداء الأسود بعد إنتهاء فترة الحداد على وفاة الزعيم جمال عبد الناصر ..

توجهت كوكب الشرق أم كلثوم إلى منزل الرئيس السادات بالجيزة .. وفى صالون الاستقبال .. حيث كانت موجودة السيدة جيهان السادات إنطلقت أم كلثوم بصوتها المرح المشوب بالحزن :

ـ مبروك يا أبو الأنوار ..

وكان لهذه الجملة وقع الصاعقة على وجه وجسد زوجة الرئيس السادات التى بادرت فى حينها .. وانطلقت من المكان الذى كانت تجلس فيه بالقرب من زوجها .. وتوجهت إلى أم كلثوم حيث كانت تجلس ..

ـــ دا مش إسمه أبو الأنوار .. دا إسمه الرئيس محمد أنور السادات ..

تكهرب جو المقابلة وتجهم وجه الرئيس السادات .. على حين سكتت السيدة أم كلثوم ، وفضلت أن تنهى مقابلة التهنئة على خير .. ويبدو أن السيدة أم كلثوم ، كانت حين نطقت بهذه الجملة كانت تتخيل أمامها الضابط محمد أنور السادات عضو مجلس قيادة الثورة ، الذى كلفه الضابط جمال عبد الناصر بتوصيلها إلى المطار فى رحلتها العلاجية عام ١٩٥٣ إلى الولايات المتحدة الأمريكية .. ولم يكن فى ذهنها وهى بين يديه أنه أصبح رئيسا لمصر خلفا للرئيس الذى كانت تحبه .. الزعيم جمال عبد الناصر .. وأنها تتحدث مع السيد الرئيس وبجواره السيدة زوجته سيدة مصر الأولى ..

هذا الجفاء الذى تولد بين السيدتين عقب هذه المقابلة فجر فى داخل جيهان السادات بركاناً عاصفا بدى يتردد فى كل لحظة بما فى داخلها .. واتضح أكثر فى واقعة تأسيسها لمدينة الوفاء والأمل .. ردا على مشروع أم كلثوم للخير .. بل وسعى سيدة مصر الأولى الدائب من أجل الاستيلاء على أراض ومخصصات مشروع أم كلثوم الاجتماعي للخير .. وحتى لا يكون لها صوت أو صدى .. فلابد وأن تموت صاحبة العصمة .. وكوكب الشرق .. ومديرة مؤسسة الاعلام الناصرى السيدة أم كلثوم .. مادامت هناك فى مصر الآن سيدة واحدة فقط هى سيدة مصر الأولى ..

* * *

● الرصيد الفنى والاجتماعى لأم كلثوم قبل سنوات الرحيـــــل ..

علينا أن نتوقف لحظات قد تطول ، وقد تقصر من أجل أن نبحث عن أم كلثوم الفنانة التى أطربت وأسعدت ملايين المصريين والعرب بل والأجانب أيضا ، وسط هذه العواصف السياسية التى بدأت تهب على حياتها ، منذ تولى الرئيس السادات حكم مصر ورحيل راعيها الأول وزعيمها جمال عبد الناصر ..

هذا البحث سوف يضع أيدينا على الجهود التى باتت تبذلها أم كلثوم فى الفترة التى بدأت تواجه فيها منافسة شديدة من سيدة مصر الأولى جيهان السادات .. هذه المنافسة كان لها أسوأ الأثر فى داخل نفس وجسد أم كلثوم حيث بدأت الأمراض تهاجمها من جديد وبقسوة .. وحاولت الهروب من عالم الفن إلى المجال الاجتماعى .. فواجهت نفس المصير .. أنه الفشل على أيدى سيدة مصر الأولى .. إذ لم تتمكن من إتمام مشروعها الخيرى الكبير « دار أم كلثوم الخيرى » فى حين نجحت وفى نفس التوقيت السيدة جيهان السادات فى إقامة مشروعها الخيرى مدينة الوفاء والأمل ..

وإذا ما عدنا إلى فتح ملف أغانى أم كلثوم فى الفترة من نهاية عام ١٩٧٠ ، وحتى رحيلها عام ١٩٧٥ ، نجد أن هذه الفترة امتازت بقلة الانتاج الفنى لأم كلثوم بشكل لافت للأنظار ، ويستحق الدراسة المستفيضة ..

هذا الانتاج القليل فى رأينا مرجعه سببان : الأول هو الأزمات الصحية التى كانت تصيب أم كلثوم من آن لآخر .. وكانت تقاوم هذه الأزمات من أجل البقاء فقط .. والحفاظ على وجودها الاجتماعى ، بعدما اصطدمت بزوجة رئيس الجمهورية وناصبتها العداء ..

والسبب الثانى .. هو لجوء أم كلثوم إلى ميدان آخر غير الفن تستطيع من خلاله تخليد ذكراها وتتويج حياتها للناس الذين أحبوها على مدى نصف قرن من الزمان .. ونقصد به المجال الاجتماعى ..

لقد عاودت أم كلثوم نشاطها الفنى من جديد فى عام ١٩٧١ بغناء قصيدة الشاعر السعودى الأمير عبد الله الفيصل « من أجل عينيك » من تلحين رياض السنباطى .. وظلت لمدة عدة أشهر قبل العودة تهيىء نفسها للوضع السياسى والاجتماعى الجديد .. بناء على نصائح المقربين منها ..

ثم غنت أم كلثوم أغنية « الحب كله » فى نفس العام من تأليف الشاعر أحمد شفيق كامل وتلحين بليغ حمدى .. وفى مارس من عام ١٩٧١ غنت أم كلثوم أغنية « حكم علينا الهوى » من تأليف الشاعر عبد الوهاب محمد وتلحين بليغ حمدى .. واختتمت عامها الفنى الأول بعد رحيل جمال عبد الناصر بأغنية « أغدا ألقاك ».. فى مايو عام ١٩٧١ من تأليف الشاعر الهادى آدم وتلحين محمد عبد الوهاب ..

وفى عام ١٩٧٢ غنت أم كلثوم أغنيتين فقط .. الأولى بعنوان « ليلة حب » من تأليف أحمد شفيق كامل .. ثم آخر أغنية فى حياتها « يامسهرنى » من تأليف أحمد رامى وتلحين سيد مكاوى .. والتى غنتها فى ليلة الخميس من شهر ابريل عام ١٩٧٢ .. بعدها دخلت أم كلثوم فى حالة مرضية دائمة .. وتوعدتها الأزمات الصحية حتى وافتها المنية ورحلت عن عالمنا بعد ثلاث سنوات ..

لقد اعتذرت أم كلثوم رسميا بناء على نصيحة الأطباء عن الغناء فى حفلاتها الشهرية بسبب مرضها وسفرها المستمر إلى الخارج للعلاج .. وهناك قضت عدة أيام فضلت بعدها أن تقضى رمضان فى القاهرة قبل مواصلة مسيرة العلاج .. وفى مصر عرفت بنبأ العبور .. فازدادت آلامها لأنها لم تستطع أن تعبر عن فرحتها بهذا الحدث العظيم .. فى

هذه الفترة إشتدت عليها آلام الكلى ، حتى أن الأطباء نصحوها بالتوجه إلى الولايات المتحدة الأمريكية للعلاج .. وهناك ولسوء حالتها الصحية نصحها الأطباء بضرورة العودة إلى القاهرة ، فهى فى حالة لا تسمح لها بإجراء عملية جراحية ..

وفى مجال العمل الاجتماعى .. وبعد ما قررت أم كلثوم رغما عنها اعتزال الفن .. حاولت أن تستعيد وجودها فى قلوب الناس فسعت إلى إنشاء دار خيرية تحمل إسمها .. ففى منتصف عام ١٩٧٣ ، وفى احتفال شعبى كبير تم وضع حجر الأساس لأول مشروع لجمعية التجمع الخيرى باسم مشروع دار أم كلثوم للخير .. والمشروع الذى كان من المقرر إقامته على شاطىء النيل ، يتكون من إقامة دار للخير وفندق عالمى وقاعات للتسجيل والغناء باسم سيدة الغناء العربى أم كلثوم .. كما إتفقت أم كلثوم فى تلك الفترة الزمنية مع البنك الدولى المصرى على تمويل المشروعات الاستثمارية لدار أم كلثوم .. ولكن أين هذا المشروع ؟! .. وماهو مصيره الآن ؟! .. وماهى قصة الصراع بين مشروعى مدينة الوفاء والأمل ، التى كانت تشرف عليه سيدة مصر الأولى ودار أم كلثوم للخير ، الذى كانت تشرف عليه صاحبة العصمة أم كلثوم ؟! .. هذا هو ماسوف نعيش معه بعد لحظات ..

* * *

● على هامش علاقة أم كلثوم
بالرئيس السـادات

ذكرنا من قبل أن علاقة أم كلثوم بالرئيس السادات قد بدأت منذ عام ١٩٥٣ .. حين كان السادات أحد الضباط الأحرار الذين ضمهم مجلس قيادة الثورة .. ونحن نذكر هذا التاريخ بالذات .. لأن الضابط أنور السادات قد كلفه قائد الثورة وزعيمها آنذاك جمال عبد الناصر بضرورة مصاحبة أم كلثوم إلى مطار القاهرة وتوديعها رسميا .. ويكون السادات نفسه على رأس مودعيها .. حين سافرت للعلاج ولأول مرة خارج مصر ..

أما بالنسبة للبحث عن موقع الرئيس السادات وعلاقته بأم كلثوم طوال فترة حكم

جمال عبد الناصر .. فنجد أنها كانت علاقة ودية يشوبها الحذر من منطلق أن أم كلثوم كانت زعيمة تجالس الزعيم جمال عبد الناصر وتقيم معه علاقات أسرية ..
لا يستطيع أى ضابط أو زميل لعبد الناصر أن يكون فى مثل مكانتها ..

وعلى ذلك فنحن نرى أن السادات خلال هذه الفترة كان بالنسبة لأم كلثوم مجرد تابع للزعيم جمال عبد الناصر ، وأحد مسئولى الدولة .. ومما يؤكد هذا الرأى لدينا تلك الجملة التى نطقت بها أم كلثوم حين نادت الرئيس السادات باسمة مجردا أمام زوجته .. بل أكثر من ذلك نادته باسم « الدلع » ..

الأمر الذى يوضح أن أم كلثوم ، كانت تنظر إلى الرئيس الجديد على أنه كان من أصدقاء الزعيم وأحد توابعه .. وهذا ما فهمته زوجته السيدة جيهان فى حينه .. وتعاملت مع أم كلثوم من خلال هذا المنظور .. وربما فهم ذلك أيضا الرئيس السادات .. ولكنه جمد موقفه ووجد فى زوجته البديل ، الذى سوف يقتص منها علانية وسرا .. دون أن يدخل فى صراع مباشر مع أم كلثوم ..

ورغم ذلك لم تفقد أم كلثوم الحيلة من أجل التعامل مع الوضع السياسى الجديد .. حيث حاولت التقرب من السادات الذى بدأ هو بنفسه المشوار .. إذ منحها فور توليته الرياسة لقب « فنانة الشعب » وقد حاولت أم كلثوم من جانبها الاتصال بالسادات بشتى الطرق بعيدا عن زوجته أو بعلمها .. والدليل لدينا أن أم كلثوم نجحت فى وساطتها لدى الرئيس السادات من أجل الافراج عن الكاتب الكبير مصطفى أمين ..

ففى أحد الأيام صحبت أم كلثوم بنات الكاتب الكبير مصطفى أمين .. رتيبة وصفية إلى بيت الرئيس السادات ، وقابلت معهما السيدة جيهان .. وفى هذه الزيارة تلقت وعدا من الرئيس السادات بأنه سيفرج عن الكاتب مصطفى أمين بعد الإنتهاء من معركة اكتوبر .. وأنه كان يعرف أنه مظلوم .. وبالفعل تم العبور بنجاح .. وانتصرنا فى حرب أكتوبر ، وأفرج السادات عن مصطفى أمين فى عام ١٩٧٤ ..

ورغم العداء السافر بين السيدتين « صاحبة العصمة » و « السيدة الأولى » .. والذى كان يتردد كثيرا فى المجالس الخاصة .. إلا أن هناك عدة لقاءات كانت تتم بالفعل بين أم

كلثوم وجيهان السادات خاصة فى الفترة التى احتجبت فيها أم كلثوم ، واشتدت عليها الأزمات الصحية .. وبعد أن أكدت انتصارها فى معركة « الوفاء والأمل » والقضاء على مشروع أم كلثوم الخيرى ..

لقد كانت السيدة جيهان السادات تحرص رغم العداء المستتر بينها ، وبين أم كلثوم على إظهار المودة والمشاركة ، حتى ولو بالسؤال عن أم كلثوم .. وذلك لاستكمال الديكور السياسى الذى كانت تلعب بداخله سيدة مصر الأولى .. ومن ذلك على سبيل المثال أنه فى بداية عام ١٩٧٥ زارت السيدة جيهان السادات أم كلثوم فى فيلتها بالزمالك ، وظلت هناك بجوارها إلى ما يقرب من ساعة .. قابلت خلالها أم كلثوم واطمأنت على صحتها ونقلت لها اهتمام الرئيس السادات بأنباء مرضها وحرصه على توفير كل وسائل العلاج ..

كما أن الرئيس السادات وضع تحت تصرفها كافة الخبرات الطبية المصرية حتى يتم لها الشفاء .. ليس هذا فقط ، بل حرصت السيدة جيهان على الاتصال الدائم بفيلا أم كلثوم خلال أزمتها الصحية والاطمئنان عليها بالتليفون .. وكانت هذه الزيارة هى الأولى لسيدة مصر لفنانة الشعب وصاحبة العصمة .. أما الزيارة الثانية فكانت حين رحلت أم كلثوم .. فى الشهر الثانى من عام ١٩٧٥ حيث زارت السيدة جيهان السادات بيت أم كلثوم وقدمت العزاء لأسرتها ولأفراد الأسرة .. وذكرت السيدة جيهان السادات خلال زيارة الوداع هذه أنه كانت هناك رابطة قوية بين أم كلثوم وبين الرئيس السادات ، وأن الرئيس حرص بنفسه على مشاهدة تشييع الجنازة فى التليفزيون .. كما أعربت عن أسفها لأن الرئيس السادات كان بوده أن يقدم العزاء بنفسه لأسرة أم كلثوم لولا مرضه المفاجىء على حد تعبير السيدة جيهان السادات ..

* * *

● جيهان السادات .. السيدة

الأولى .. فى كل المجـــالات ..

حين خلع الرئيس السادات على زوجته لقب السيدة الأولى ، والتى يرى الكاتب

الصحفي أنيس منصور أنه لقب منقول من المجتمع الأمريكي وأن مخترعه أحد الصحفيين الأمريكان .. كان لا يتصور أبدا أن تجوب زوجته آفاق الدنيا داخليا وخارجيا حاملة هذا اللقب فوق أكتافها .. تلوح به شمالا ويمينا من أجل أن توسع قاعدة وجودها داخل وخارج المجتمع المصرى ..

ومن خلال هذا اللقب استطاعت السيدة جيهان السادات أن تثبت لأم كلثوم ولغيرها من نساء مصر ، أنها امرأة متفردة فى كل شيء وفى كل مجال .. فإذا كانت أم كلثوم هى كوكب الشرق .. وسيدة الغناء العربى .. وصاحبة العصمة .. فإن السيدة جيهان هى السيدة الأولى .. والحاصلة على الدكتوراه والرئيسة الفخرية للمئات من الجمعيات الخيرية فى مصر وفى خارجها ..

وقد حاولت السيدة جيهان فى فترة قصيرة من دخولها ميدان العمل الاجتماعى أن تثبت تفوقها بجدارة .. ويكفى من أجل التدليل على هذا التصور ذكر تواريخ فى حياة السيدة الأولى .. فى مجال النشاط الاجتماعى والسياسى الواسع .. ونحن هنا من أجل الأمانة .. اعتمدنا على ما نشرته الصحف فى الفترة من عام ١٩٧٣ وحتى عام ١٩٨١ ..

فى عام ١٩٧٣ دخلت ميدان العمل التطوعى لرعاية جرحى حرب أكتوبر .. فكانت تقوم بزيارات ميدانية عديدة لكافة المستشفيات المصرية ..

فى ١٩٧٤/٣/١٠ قررت لجنة المرأة بمجلس الشعب آنذاك منح جيهان السادات لقب أم الأبطال وقد اقيم حفل كبير بهذه المناسبة القومية ..

فى ١٩٧٤/٣/٢١ .. قررت لجنة المرأة بمجلس الشعب أيضا .. منح السيدة جيهان السادات لقب الأم الأولى لمصر ..

فى ١٩٧٤/١٢/١٢ وافقت السيدة الأولى على قبول الرئاسة الفخرية لجمعية هدى شعراوى ..

وفى نفس عام ١٩٧٤ تم انتخابها رئيسة شرف جمعية الهلال الأحمر المصرية ..

وفى عام ١٩٧٥ فازت بعضوية المؤتمر القومى على مستوى محافظة المنوفية بالتزكية .. ولأول مرة ثم رئيسة للمجلس المحلى بالمحافظة ..

وفى ١٩٧٥/١٠/٢ تم اختيار السيدة جيهان السادات رئيسة فخرية للجنة الدائمة لعيد العلم ..

فى ١٩٧٥/١٢/١٧ وافقت على رئاسة أول جمعية مركزية تقام فى مصر لرعاية طلاب الجامعات والمعاهد ..

وبداية من عام ١٩٧٦ .. حصلت السيدة جيهان السادات على العديد من الجوائز وشهادات التقدير والأوسمة داخليا وعالميا ، وفى نفس العام حصلت على الدكتوراه الفخرية من جامعة مانيلا فى الفلبين .. ثم فى عام ١٩٧٨ حصلت على جائزة خدمة الإنسانية من احدى الجامعات الأمريكية كما قدمت لها عضوات الصداقة للسيدات الأمريكيات العضوية الشرفية ..

فى ١٩٧٩/١١/٩ قرر مجلس نقابة المهن الاجتماعية منح السيدة جيهان السادات عضوية شرفية للنقابة تقديرا لجهودها الاجتماعية ..

فى ١٩٨٠/٧/٤ وافقت على قبول الرئاسة الشرفية للنادى الأهلى ..

فى ١٩٨١/٢/٢٨ تم اختيارها رئيسة فخرية لمؤسسة القلب المصرية والتى تضم أعضاء من مجلس إدارة الجمعية المصرية لأمراض القلب ..

وفى ١٩٨١/٣/٣ قبلت الرئاسة الفخرية لجمعية القلب المصرية ..

وفى ١٩٨١/٤/٣ منحت وسام « كود اثينا » من الاتحاد الدولى للعلاقات العامة ..

وأخيرا فى ١٩٨١/٤/١٦ رأست السيدة جيهان السادات حفل تسليم براءة تأسيس أحدث نادى نسائى دولى فى مصر .. تحت إسم « زونتا ».. ومعناها بالهندية أهل الثقة .. هذا النادى لرعاية المرأة فى المراكز القيادية ..

وبعد هذا الاستعراض السريع لبعض أنشطة سيدة مصر الأولى فى مختلف المجالات الاجتماعية .. نتساءل أين كل هذه المشروعات الآن ؟ .. وماهو مصيرها ؟ .. وليس لنا حق الوقوف للبحث عن الاجابة إلا فيما يتعلق بمشروع الوفاء والأمل باعتباره ذات علاقة وثيقة بمشروع أم كلثوم الخيرى وأحد مجالات التنافس بين السيدة الأولى .. وصاحبة العصمة ..

* * *

● دار أم كلثوم للخير
ومصير مشروع الوفاء والأمل

بدأت أم كلثوم نشاطها الاجتماعى المكثف عام ١٩٦٧ بعد العدوان مباشرة مع ٢٠٠ سيدة من سيدات العمل الاجتماعى فى مصر .. وتم الأتفاق فى أول إجتماع على كيفية جمع التبرعات وتقديم الخدمات الاجتماعية والمالية للمجندين وأسرهم وأسر الشهداء ..

وكان الاجتماع الثانى بجمعية النور والأمل .. وكانت رئيستها آنذاك السيدة استقلال راضى .. وفى هذا الاجتماع اختير اسم جمعية التجمع الوطنى لأعمال الخير .. وبدأت أم كلثوم فى عمل ملابس لرجال القوات المسلحة ، وتوزيع الهدايا من أموالها الخاصة .. فكان الجنود يرسلون لها خطابات الشكر بدمائهم .. وبدأت بعد ذلك رحلتها الفنية داخليا وخارجيا ..

وفى عام ١٩٧١ فكرت فى انشاء الجمعية وفعلا تكونت بدون تسجيل من أم كلثوم وعزيزة حسين وزهيرة عابدين وشهواد حجازى ونفيسة الامبابى وبثينه الخولى وأخريات .. وكان من أهداف جمعية التجمع الوطنى توزيع الهدايا على الفقراء ومساعدة المعوقين بعمل أجهزة طبية .. وكان كل ذلك من أموال أم كلثوم الخاصة ..

وفى عام ١٩٧٣ تم عمل يانصيب خيرى تكون حصيلته لإنشاء دار أم كلثوم لرعاية الفتاة اجتماعيا ومهنيا مع عمل مسرح وقاعة استماع موسيقى ..

وفى ٢٢ أبريل عام ١٩٧٤ أجرى السحب وتبين أن اليانصيب لم يحقق أية

أرباح .. ولم تبلغ قيمته سوى ٧٥ ألف جنيه قامت أم كلثوم بسدادها كما كسبت ٥٧ ألف أخرى تبرعت بها للجمعية .. وبعد إجراء السحب أصبحت الحصيلة ١١٢ ألف جنيه ، وتم وضع المبلغ فى شهادات إستثمار تدر على الجمعية عائدا ثابتا للصرف منه على أنشطة الجمعية والتى منها : دار أم كلثوم لرعاية الفتاة بالزيتون ، ودار أم كلثوم لرعاية الطفل بعين شمس ، ودار أم كلثوم لرعاية المسنين ، ثم دار أم كلثوم لرعاية الطالبات بحلوان ..

وفى منتصف عام ١٩٧٣ وقبل حرب أكتوبر اجتمع مؤسسو جمعية التجمع الوطنى لأعمال الخير لوضع الترتيبات النهائية لتنفيذ المشروع الخيرى الذى يحمل اسمها .. وفى هذا الاجتماع تقرر بصفة نهائية وضع حجر الأساس فى نهاية شهر يونيو من نفس العام وطرح أوراق اليانصيب من أول يوليو فى مصر والبلاد العربية .

فى هذا الوقت بالذات كانت عيون الرئيس السادات وزوجته السيدة جيهان صفوت مركزة على هذا النشاط الاجتماعى المكثف ، الذى بدأت تمارسه كوكب الشرق أم كلثوم .. وتصوراه طريقا جديدا من جانب أم كلثوم لغزو قلوب المصريين بعد ما غزتهم من قبل بكلماتها وسهراتها الجميلة .. كما اعتقد السادات أن أم كلثوم تخطط عن طريق غزوها للنشاط الاجتماعى من أجل إستعادة مكانتها أيام الزعيم جمال عبد الناصر ..

وعلى الفور بدأت الحرب الخفية فى هذا المجال أيضا بعدما استسلمت أم كلثوم وابتعدت عن مجال الفن وتوظيفه فى خدمة الرئيس الجديد .. وكان ماحدث بين صاحبة العصمة وسيدة مصر الأولى ..

لقد اتجهت العيون وتركزت العقول من أجل القضاء على مشروع أم كلثوم للخير آنذاك .. وقد بدأت المعركة كما قال الكاتب الصحفى مصطفى أمين بإفشال أول يانصيب خصصته كوكب الشرق لتمويل هذه الدار الخيرية .. ثم توالت الضربات بعد ذلك .. حيث اتجه الرأى إلى انشاء مدينة الوفاء والأمل ، عوضا عن دار أم كلثوم للخير التى بدأت تحتضر على أثر الضربات المتتالية ..

وتعود قصة إنشاء مدينة الوفاء والأمل الى شهر أغسطس من عام ١٩٧٣ حين وضعت السيدة جيهان السادات رئيسة جمعية الوفاء والأمل حجر الأساس فى ٨

أغسطس من عام ١٩٧٣ لإقامة مدينة على مساحة ٢٧٠ فدانا بصحراء مدينة نصر الهدف منها إنشاء مركز رعاية متكامل للمعوقين العسكريين والمدنيين ، تتوفر فيه إمكانات العلاج والتأهيل ..

وخلال أربع سنوات من وضع حجر الأساس .. أى فى عام ١٩٧٧ .. تغيرت صورة الصحراء هناك .. وتحول الحلم إلى حقيقة حيث أقيمت مدينة الوفاء والأمل وشملت عدد ١٤ فيلا سكنية بات يعيش فيها العديد من المعوقين عسكريين ومدنيين .. وفى هذه الفترة كان يجرى العمل على قدم وساق حتى تصبح عدد الفيلات ١٦٢ فيلا .. أما فى المرحلة الثانية وحسب تصورات رئيسة الجمعية السيدة جيهان السادات وصلت عدد الوحدات السكنية بها مائتى وحدة تتسع لإقامة ألفى فرد والفيلا تتكون داخل المدينة من ٣ أقسام للنوم فى كل قسم ٣ أسرة .. وبكل قسم أحدث الوسائل المخصصة لاستعمال المعوقين ..

وتضم مدينة الوفاء والأمل دارا للمسنين على أحدث طراز من طابقين فى كل منهم ١٢ حجرة .. كما تشمل المدينة على كافيتيريا رئيسية وقاعات للسينما والمسرح والموسيقى والفنون التشكيلية ثم مركز خاص للتأهيل للمعوقين

وبمقارنة بسيطة وغير ظالمة ، نجد أن مكونات مشروع مدينة الوفاء والأمل هو تقريبا مكونات مشروع دار أم كلثوم للخير .. ولكن ونظرا لإشتداد الصراع بين السيدتين كوكب الشرق والسيدة جيهان السادات .. فقد تم إيقاف مشروع أم كلثوم والاسراع بتنفيذ مشروع السيدة جيهان السادات ، الذى لم يكن ينقصه سوى أن يحمل اسمها مثل مشروع أم كلثوم ..

أما الملاحظة الثانية هى أن مشروع مدينة الوفاء والأمل تم التخطيط لتنفيذه فى نفس التوقيت الذى اختارته أم كلثوم لتنفيذ مشروعها .. بل الأكثر من ذلك أنه حدث نوع من السطو ، على مخصصات مشروع أم كلثوم لصالح مشروع مدينة الوفاء والأمل ، ودليلنا فى ذلك ما ذكرته الدكتورة نعمات أحمد فؤاد فى مقال نشر لها فى أواخر عام ١٩٨٢ تحت عنوان « عن جمعية الوفاء والأمل .. نسأل » تقول فى بعض فقراته :

من هذا المنطلق أرسلت الجمعية « تقصد جمعية الوفاء والأمل » .. الحاصلة على مائتى فدان فى مدينة نصر برسم جنيه واحد للفدان إلى محافظة القاهرة عام ١٩٨١ تطلب الأرض التى سبق لمجلس المحافظة أن وافق عليها لمشروع أم كلثوم ، والتى سبق أن أصدر المجلس التنفيذى لمحافظة القاهرة قرارا رقم ١٠٠ بتاريخ ١٩٧٣/٤/٢٣ لتخصيصها لدار أم كلثوم للخير ، فإذا بالمجلس التنفيذى نفسه يحنى رأسه طاعة وانصياعا وصدر قرار تحت رقم ٤٣ بتاريخ ١٩٨١/٥/١٤ بضم أرض مشروع أم كلثوم إلى الوفاء والأمل .. ثم يصدر المجلس الشعبى لمحافظة القاهرة القرار رقم ١٨٣ فى يونية عام ١٩٨١ بالموافقة مع زيادة فدانين بدلا من ستة لتكون ثمانية على طريقة القصة الشعبية التى جعلت الفلاحين يتضررون من جمل الحاكم الذى أكل كل شيء فلما ذهب جمعهم إليه وقد أجمعوا أمرهم على الاجتماع ، تناقص عددهم واحدا وراء الآخر فاذا الأخير وقد وجد نفسه وحده قال للطاغية : نريد للجمل ناقة تؤنسه .. لم يرفض مجلس المحافظة أن يناقض نفسه ، فى إباء بل أضاف فدانين آخرين ..

تطالب جمعية الوفاء والأمل الكائنة فى مدينة نصر على مساحة مائتى فدان ستة أفدنة فى جاردن سيتى وهى التى منحت أصهارها عشرين فدانا من أرض الجمعية لتعبئة شويبس(١) ..

ونظرا لارتباط هذا المشروع القومى المتمثل فى مدينة الوفاء والأمل ، بشخصية المشرفين والقائمين عليه وعلى تنفيذه فإنه بمجرد أن رحل عصر السادات ، واختفت من الساحة الاجتماعية السيدة جيهان السادات بعد رحيل زوجها حتى دب الخلاف بين القائمين على هذا المشروع .. الأمر الذى جعل وزارة الشئون الإجتماعية تتدخل فى عام ١٩٨٦ لحل مجلس إدارة المدينة بناء على تقارير من إحدى الجهات الرقابية .. وهو المجلس الذى كانت ترأسه السيدة جيهان السادات ..

وبالفعل تم تشكيل مجلس إدارة جديد برئاسة الدكتورة آمال عثمان وزيرة التأمينات والشئون الاجتماعية ، تكون مهمته إدارة شئون الجمعية طبقا لأحكام القانون وإزالة المخالفات الموجودة بها ..

---

(١) من مقال للدكتورة نعمات أحمد فؤاد فى جريدة الأحرار بتاريخ ١٩٨٢/١١/١ .

والسؤال الذى رأينا ان نختم به هذا الفصل : ماذا لو ساعدت سيدة مصر الأولى على تنفيذ مشروع أم كلثوم للخير جنبا إلى جنب مع مشروع مدينة الوفاء والأمل .. طبعا النتيجة كانت ستكون فى صالح المعوقين وكافة أعمال الخير ..

ولكنه الصراع ومحاولات إثبات الذات .. وهذه هى النتيجة مشروع مايزال على الورق ومشروع آخر تحوم حوله شبه المخالفات .. الأمر الذى أدى إلى حل مجلس إدارته برياسة سيدة مصر الأولى سابقا ونقل تبعته إلى وزارة الشئون الإجتماعية ..

الفصل السابع

ويوم أن رحلت كوكب الشرق

إذا كان الزعيم جمال عبد الناصر قد مات نفسيا ومعنويا فى ٥ يونيو عام ١٩٦٧ .. ومات جسديا فى ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠ .. فإن كوكب الشرق أم كلثوم .. قد ماتت نفسيا ومعنويا وجسديا يوم أن رحل جمال عبد الناصر .. وتأخر دفن جثمانها خمس سنوات .. إذ ظل هذا الجثمان يتحرك بيننا بلا روح ، أو حياة هذه الفترة الطويلة .. وفى يوم الأثنين الموافق الخامس من شهر فبراير عام ١٩٧٥ ، تم دفن جثمان أم كلثوم .. حيث أعلن رئيس الفريق الطبى المعالج لها بمستشفى المعادى نبأ الوفاة ..

وحين يتدخل الحساب فى تسجيل عمر أم كلثوم بيننا نجد أنها قد عاشت واحداً وسبعين عاما حتى واراها التراب .. أما عمرها الفعلى الذى عاشته فهو ستة وستين عاما .. لأنه بعد رحيل جمال عبد الناصر بدأت أم كلثوم تعد نفسها هى الأخرى من أجل مقابلته هناك ..

وقد اتضح لنا ذلك جليا فى الفصل السابق .. حيث قررت أم كلثوم سواء علنا أو سرا اعتزال الفن .. والعمل فى مجال الخدمة الاجتماعية .. وكان معها كل الحق .. فهى قد اعتبرت نفسها قد عبرت عن فترة زمنية معينه .. ولا يمكن أن تتراجع عنها .. وإلا فكيف تتنكر للزعيم الذى تعد أول من غنت له .. وعاشت بجواره طوال ثمانية عشر عاما .. وعرفته عن قرب .. ودخلت بيته وصادقت زوجته .

والسؤال الذى يواجهنا الآن .. وعلينا التصدى لإجابته هو : وهل جاء خبر وفاة أم كلثوم مفاجأة للناس .. مثلما فوجئوا بنبأ وفاة الزعيم جمال عبد الناصر ؟

نقول أنه رغم أننا قد اتفقنا منذ بداية رحلتنا عبر هذا الكتاب أن هناك تزاوج وتشابه قريب جدا بين أم كلثوم كزعيمة شعبية .. وعبد الناصر الذى يحمل نفس الصفة .. إلا أن الناس فى مصر وفى العالم كله كانوا يتابعون رحلة مرض أم كلثوم لحظة بلحظة .. وكانوا على علم ويقين بأنها فى أيامها الأخيرة .. قد عانت الأمرين من تكاثر الأمراض وإصاباتها المتكررة خاصة الإصابة بالكلى .. مع أن العكس قد حدث بالنسبة للناس فيما يخص وفاة جمال عبد الناس .. وطبعا الفروق هنا محفوظة ومعروفة .. رغم أن كلا منهما زعيم شعبى من الطراز الأول ..

وفى اعتقادنا أنه لولا المحيطين بالزعيم الراحل جمال عبد الناصر هؤلاء الذين كانوا يستمدون منه القوة ومن وجوده الشجاعة والذين كان لهم الدور الأول والأخير فى اخفاء أنباء مرض عبد الناصر عن الناس وأفراد الشعب ..

وهنا يكمن الفرق بين فنانة الشعب التى راح الناس كل صباح يبحثون بين الصحف عن آخر أخبار مرض الست .. مرض كوكب الشرق أم كلثوم .. وبين زعيم الشعب الذى فوجىء الناس برحيله برغم أنه قد مات ،وهو وسطهم قبل موت الجسد بثلاث سنوات حين أصابته لعنة الهزيمة ..

ونحن نقول أنه رغم أن العديد من المحيطين بأم كلثوم قد عرفوا بموتها النفسى والمعنوى بعد رحيل راعيها جمال عبد الناصر .. إلا أنهم لم يفقدوا الأمل أبدا فى رجوعها ولو فى صورة امرأة تمارس نشاط آخر غير الفن .. وكان عليها أن تستجيب ولكن الأيام والظروف والملابسات التى أحاطت بها فور رحيل جمال عبد الناصر ، كانت أقوى من إمكانياتها وأقوى من دعوات المقربين إليها .. لذا كانت أم كلثوم كثيرا ما تتحامل على نفسها وتحاول أن تعيد شبابها فى مجال الحياة الاجتماعية .. وكان ذلك إيذانا برحيلها المبكر حيث ولد هذا الكبت بداخلها طوفانا من الأمراض التى لم تستطع قدرتها الجسمانية أن تتحمله .. حينئذ رحلت دون أن تستأذننا وغابت تحت التراب ..

إن وفاة أم كلثوم فى عام ١٩٧٥ كانت له مقدمات .. بدأت منذ أوائل الخمسينات حين أصيبت لأول مرة بالغدة الدرقية ، وتم علاجها فى العديد من عواصم العالم مثل

نيويورك ولندن .. وكانت تعود بالارادة أحسن صحة مما كانت عليه ولكن وابتداء من عام ١٩٧٠ أخذت هذه الأمراض تشتد عليها بقسوة حتى باتت فى آخر أيامها جثة هامدة بها ملامح الحياة .. ولكنها ميته فعلا وقولا ..

* * *

● *أم كلثوم .. فى رحلة المرض الطويلة ..*

وكان علينا من أجل أن نفتح ملف مرض أم كلثوم .. أن نغوص ونعود الى الوراء كثيرا .. حتى نعرف متى بدأت تدخل دوامة المرض .. وكيف تمكنت من العلاج ؟.. ثم كيف أدى بها المرض إلى الموت فى النهاية ؟ ..

عاشت أم كلثوم مدة طويلة تعانى من الآلام والأمراض قدرها بعض المؤرخين بحوالى ثلاثين عاما ..

لقد كانت البداية فى عام ١٩٤٧ عندما اكتشف الأطباء مرضها بالغدة الدرقية .. يومها نصحها الأطباء بضرورة الراحة .. ولكنها رفضت لأنها كانت تنسى الآلام عندما تواجه جمهورها الذى تغنى له ..

وفى عام ١٩٤٩ .. أصيبت أم كلثوم بعدة صدمات على أثر سماعها أنباء رحيل بعض أصدقائها ومنهم طبيبها الخاص الدكتور الزناتى .. وعلى أثر هذه الصدمات تجددت لديها الاصابة بالغدة الدرقية وتحت إلحاح الأطباء ، سافرت أم كلثوم لأول مرة إلى فرنسا وانجلترا .. ثم إلى سويسرا لبدء رحلة العلاج .. وهناك قضت عدة أشهر تحت العلاج المكثف .. وبالفعل وبفضل جهود الأطباء المصريين والأجانب .. شفيت أم كلثوم من مرض الغدة الدرقية .. ولم يبق إلا علاج الأثر الذى أحدثه المرض فى عينيها .. وقد احتاج آنذاك لبعض الوقت ..

وعادت أم كلثوم بعد ثلاثة أشهر إلى الاسكندرية .. وانطلقت عشرات اللنشات الى عرض البحر انتظارا لوصول الباخرة التى كانت تقل أم كلثوم ..

وبعد أربعة أعوام من الشفاء من الغدة الدرقية عاودتها الآلام من جديد ، وكان بعض

الأطباء الذين كانوا يعالجونها قد علموا بوجود عقار جديد لعلاجها .. وكان قد اكتشف هذا العقار فى أمريكا .. وبالفعل تمت الاتصالات بين الحكومتين المصرية والأمريكية .. وتم إرسال العقار بالطائرة .. وأسفر عن تقدم ملموس فى حالتها الصحية ..

وفى عام ١٩٥٣ سافرت أم كلثوم إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، لإجراء كشف عام فى المستشفى البحرى هناك .. وظلت أم كلثوم تتابع حالتها الصحية مع ملايين من معجبيها فى كل المجلات .. وعاشت بين هؤلاء الناس بالحب .. ومرة أخرى تعود إلى القاهرة .. ولكن عند وصولها فوجئت بوفاة شقيقها فيعاودها الألم من جديد ..

وفى عام ١٩٦٠ سافرت مرة أخرى الى أمريكا لإجراء كشف عام ثم عادت .. وظلت حالة أم كلثوم تتذبذب بين المرض والصحة .. حتى أصيبت فى عام ١٩٦٧ باحتقان فى المرارة .. وعلى أثر ذلك بدأت رحلتها العلاجية من جديد فسافرت إلى لندن ثلاث مرات .. وبعد إجراء الفحص والتحاليل اتضح أن المرارة سليمة ولكنها كانت تعانى من فقر الدم والضعف العام .. ثم عادت أم كلثوم إلى القاهرة ، وفى حقيبتها أحدث الأدوية ..

وفى عام ١٩٧٣ أصيبت أم كلثوم بأمراض الكلى .. الأمر الذى أدى بها إلى الإعتذار عن الغناء ، وسافرت إلى لندن من جديد للعلاج .. ولما ازدادت الآلام عليها نصحوها بالسفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية من جديد .. ولكن نظرا لسوء حالتها قرر الأطباء الأمريكيون ضرورة عودتها فورا إلى القاهرة لأنها كانت فى حالة لاتسمح لها بإجراء عملية جراحية ..

لقد كانت الأزمة الأخيرة أخطر الأزمات الصحية التى واجهت حياة أم كلثوم .. فقد كانت هذه الأزمة تتطور مع تقدم الأيام من سيىء إلى أسوأ .. على حين اجتمع كل الأطباء المعالجون وقرروا ضرورة نقلها إلى مستشفى المعادى .. وقد رفضت أم كلثوم الذهاب إلى مستشفى المعادى .. وأمام إصرارها قرر الأطباء علاجها فى منزلها مع استخدام الإمكانيات العلمية فى مستشفى المعادى فى مجال التحاليل والدواء ..

لقد بدأت أزمتها الصحية الأخيرة بانخفاض مفاجىء فى عمل الكلى نتيجة لإصابتها بالأنيميا الحادة .. وكانت أم كلثوم قد مرت بهذه الحالة عام ١٩٧٤ عندما أصيبت

بالتهاب الكلى أدى إلى ضعف عام وأنيميا حادة عولجت منها فى لندن وأتمت العلاج فى مستشفى بوسطن بأمريكا ..

وخلال متابعة أزمتها الصحية الأخيرة صدر التقرير الأول عن صحتها فى ٢٥ يناير عام ١٩٧٥ .. وفيه سجل الأطباء المعالجون أن أم كلثوم تستجيب للعلاج .. وتم نقل كميات من صفائح الدم مناسبة .. وكانت هذه أول مرة تجرى فيها عملية نقل صفائح دم فى مصر .. وقد استغرقت عملية النقل ثلاث ساعات ..

وبعد يومين من نقل صفائح الدم اكتشف فريق الأطباء المعالج أنه يوجد تحسن مستمر ..

وبعد ثلاثة أيام من تحسن صحتها .. وارتفاع حالتها المعنوية .. استيقظت أم كلثوم على صداع شديد .. وعندما وصل الدكتور زكريا الباز رئيس فريق الأطباء المعالجين إلى منزلها وجدها فى غيبوبة تامة .. وتقرر نقلها على الفور إلى مستشفى المعادى بسيارة اسعاف مجهزة بأحدث المعدات .. وفى المستشفى أدخلوها على الفور الى غرفة الإنعاش .. وكان تقرير الحالة الطبية هو حدوث نزيف فى المخ ونوبة قلبية .. وظلت تحت العناية المركزة ليل نهار .. إلا أن حالتها لم تتحسن وعقدت اللجنة الطبية اجتماعا مطولا بالمستشفى لفحص حالة أم كلثوم والتشاور حول إمكانية زرع كلية لأم كلثوم .. ورأت اللجنة أن كوكب الشرق بحالتها الحرجة هذه لا يمكن أن تسمح بزرع كلية لها .. لأن المشكلة الرئيسية فى حالة أم كلثوم خلال هذه اللحظات تكمن فى المخ الذى توقف عن العمل رغم الجهود الطبية المتواصلة .. وأصبحت حالتها الصحية حرجة أو تنبىء بعواقب غير محسوبة ..

وفى صباح اليوم التالى لإصابتها بإنفجار فى المخ .. أجريت لها التحاليل الطبية على وظائف الكلى وكيمياء الدم .. ودلت التحليلات على أن الكلى تعمل بمستواها الطبيعى .. ولكن ظلت الحالة الصحية مخيفة جدا ..

وقد ذكر الأطباء آنذاك أن حالة الغيبوبة الناتجة عن الحالة المخية لم يطرأ عليها أى تحسن .. وظلت أم كلثوم فى حالة غيبوبة كاملة لليوم الثالث على التوالى وأكد الأطباء

المتابعون لحالتها داخل غرفة الإنعاش بمستشفى المعادى أن حالتها خطيرة جدا لأن النزيف الذى أصاب المخ أحدث تلفا دائما فى خلايا المخ غير قابل للشفاء ..

وأكد رسام المخ الكهربائى الركود الكامل فى خلايا المخ لغياب أى نشاط كهربائى فيه .. وظلت أم كلثوم ترقد فى غرفة الإنعاش وبداخلها أجهزة علمية هى آخر ما استحدثه الطب والعلم .. وكانت عبارة عن آلات المتابعة الآلية للتنفس ودقات القلب آليا .. كما كانت تضم هذه الآلات جهاز التنفس الآلى ويقوم بضخ الأوكسجين بمعدلات تتناسب مع احتياج الجسم من هذا الغاز عندما تتوقف عملية التنفس .

بالإضافة الى جهاز متابعة القلب ، وهو لرسم القلب متصلا بشاشة التليفزيون .. وجهاز آخر لرسم المخ .. وبرغم العلاج المستمر على أحدث الأسس وبكل الامكانيات الطبية فإن حالة كوكب الشرق لم تتحسن ، ولم يستجيب جسمها لأى علاج ..

وظلت أم كلثوم تصارع الموت عدة أيام حتى رحلت عن عالمنا فى الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الاثنين الموافق ٥/٢/١٩٧٥ ..

* * *

● *مليون مصرى .. فى الوداع الأخير :*

كان أول خبر أذيع عن وفاة كوكب الشرق أم كلثوم من الاذاعة والتليفزيون فى نشرة الساعة الخامسة .. فقد انضمت موجات الاذاعة آنذاك .. وبعدها أذيع الخبر ثم تلاه إذاعة نعى الدكتور عبد العزيز حجازى رئيس الوزراء آنذاك .. ثم نعى وزير الاعلام ثم تلاوة القرآن الكريم .. ثم نعى وزارة الثقافة الذى تلاه المرحوم الأديب يوسف السباعى .. وتناقلت وكالات الأنباء الخبر .. وأذاعته بكل لغات العالم ..

وللمصادفة الغريبة ، أن إذاعة القاهرة قبل رحيل أم كلثوم بيومين اذاعت نبأ الوفاة .. ولكنها عادت وكذبته .. فقد كانت أم كلثوم تصارع المرض داخل غرفة الانعاش بمستشفى المعادى ..

لقد ماتت أم كلثوم .. وانتهت حياتها .. ماتت وكما أذاع بيان الوفاة الدكتور

مصطفى المنيلاوى آنذاك فى الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر يوم الاثنين بعد صراع مرير مع المرض استمر حوالى مائة ساعة .. لقد بدأت فى الساعات الأخيرة من يوم الوفاة قصة الصراع بين أم كلثوم والموت ..

. ففى منتصف هذه الليلة بدأ الأضطراب فى قلب أم كلثوم واضحا .. وكانت قد مرت من قبل بأزمتين حادتين .. وصلت بها إلى حالة الوفاة .. حتى أن الأطباء قد استدعوا أهلها أكثر من مرة إلى حجرة الانعاش ..

وفى منتصف ليلة الأحد ازداد الاضطراب فى القلب وأسرع الأطباء إلى غرفة الانعاش .. ودفعوا بكميات كبيرة من الأكسجين .. وبعد نصف ساعة عاد القلب إلى عمله الطبيعى .. ولم تمض سوى مدة قصيرة وإذا بحالة الكلى تتدهور فجأة .. ثم توقفت عن العمل نهائيا .. وأدى ذلك إلى زيادة نسبة البولينا فى الدم زيادة مخيفة .. بينما كان ينبغى أن يكون النبض عاديا والضغط ٩٠/١٣٥ ..

عندئذ اجتمع الأطباء فى محاولة يائسة لإعادة تشغيل الكلى .. وظلت الكلى ترفض الاستجابة .. ونظرا لسوء حالتها وخطورتها اجتمع فريق الأطباء المكون من ١٥ طبيبا فى الساعة العاشرة والنصف .. وتبينوا أن حالة أم كلثوم تزداد سوءا ، وأنها تقاوم فى ساعتها الأخيرة .. وفى الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم الأثنين يوم الرحيل .. اجتمع الأطباء مرة أخرى .. وفى هذه المرة كان واضحا على وجوههم سوء حالة أم كلثوم .. لقد كان قلب أم كلثوم فى طريقه إلى الموت الكامل حيث إتضح انه لن يتحمل الحياة أكثر من خمس ساعات ..

وبدأت الساعات تمضى ببطء .. والأمل معلقا فوق أبواب غرفة الانعاش وفجأة .. وفى الساعة الرابعة حدث اضطراب شديد فى غرفة الانعاش .. حين أكتشف الأطباء توقف قلب أم كلثوم .. وبعد لحظات خرج الطبيب المسئول عن غرفة الانعاش حيث أجهش بالبكاء معلنا خبر وفاة كوكب الشرق أم كلثوم ..

وانتشر نبأ وفاتها فى كل أروقة المستشفى بسرعة البرق .. وانفجر الموجودين فى صراخ وبكاء حاد .. واستعانت إدارة المستشفى بقوات الأمن فى محاولة يائسة لمنع المرضى وإعادتهم إلى أماكنهم خوفا عليهم من الزحام ..

واتصل الدكتور الحفناوى زوج كوكب الشرق السيدة أم كلثوم بالمهندس سيد مرعى رئيس مجلس الشعب فى ذلك الوقت والدكتور كمال أبو المجد وزير الاعلام وأبلغهما نبأ وفاة أم كلثوم .. بينما كانت غرفة السويتش بمستشفى المعادى التى لم تهدأ عن العمل يوم الوفاة ، ترد على استفسارات العالم أجمع وخصوصا من السعودية والكويت وسوريا ولبنان وجميع محافظات مصر .. كلها كانت تسأل عن صحة أم كلثوم حتى بعد أن ماتت ..

انقضت حوالى الساعة قبل أن يعلن للعالم رسميا نبأ وفاة أم كلثوم .. وبعد وفاة كوكب الشرق أطفئت أنوار الممر الذى توجد به غرفة الانعاش بمستشفى المعادى ، حيث ترقد أم كلثوم .. وفى حوالى السادسة من مساء الاثنين أسرع الأطباء للإشراف على خروج أم كلثوم من الحجرة التى ظلت بها خمسة أيام صامتة فى غيبوبة كاملة .. وخرجت منها لأول مرة ، ولكن خروجها كان فوق نقالة .. ووقف لاستقبالها على باب غرفة الانعاش حكمدار المستشفى وحرس خاص من ضباط وصف ضباط .. وتحركت أم كلثوم على نقالة ووراءها الحكمدار والحراس والأطباء والممرضون يودعونها .. وساروا فى خطوات منتظمة على طول الممر الذى ظلت أضواءه مطفأة .. ثم أنزلت إلى الدور الأول حيث دخلت غرفة لتوضع فى ثلاجة .. وأغلقت الحجرة .. وجلس مقرىء مسجد الحسين على باب الغرفة ليتلو لها من آيات القرآن الكريم ..

وبعد أن خرجت أم كلثوم من الانعاش بدأت أسرتها تعد صيغة النعى الذى سوف ينشر فى الصحف بينما .قع على شهادة وفاتها الدكتور زكريا الباز ..

* * *

كانت مشاعر مليون مواطن مصرى فى لقائهم الأخير بكوكب الشرق .. أقوى من كل ترتيب سبق إعداده أو تنظيمه .. فما كادت الجنازة تجتاز ميدان التحرير ، وتدخل شارع طلعت حرب متجهة حسب طريقها المرسوم إلى جامع جركس ، حتى ابتلعها بحر من البشر الذى تجاوز عدد أفراده أكثر من مليون مواطن مصرى ، هؤلاء أنزلوا جثمان أم كلثوم من فوق أكتاف رجال شرطة المطافىء الذين كانوا يحملونه .. وتبادلوا هم الواحد بعد الآخر حمل الجثمان والسير به فى طريق آخر استمر ثلاث ساعات من ميدان طلعت حرب إلى شارع قصر النيل إلى العتبة ثم إلى مسجد الإمام الحسين ..

وداخل المسجد الذى غطاه ألوف المودعين ، استجابت الجماهير لنداء إمام المسجد بالوقوف خشوعا فى بيت الله .. وعلى الفور ران الصمت الرهيب على ألوف المصلين أمام الجثمان داخل المسجد .. ثم بعد الصلاة نقل جثمان أم كلثوم إلى عربة إسعاف كانت تقف أمام أحد أبواب المسجد .. ومن هناك إلى البساتين حيث المقبرة التى دفنت فيها كوكب الشرق أم كلثوم ..

ولقد بدأ موكب الوداع مع شروق الفجر .. حيث تم لف الجثمان فى ١١ ثوبا كان آخرها ثوب من الملس الأخضر الذى يرمز إلى الأرض .. بينما قامت شقيقة كوكب الشرق برش زجاجة ماء كان الأمير عبد الله الفيصل قد بعث بها من السعودية من بئر زمزم مع كمية من البخور ..

وقد وصل جثمان أم كلثوم إلى جامع عمر مكرم فى السادسة وعشر دقائق صباحا فى سيارة اسعاف ، كانت تسبقها على كورنيش النيل عربة مرور تعكس بإشارات الضوء الأحمر ، التى تنطلق منها فى هدوء الصباح لحنا حزينا .. وقد تم وضع الجثمان داخل النعش الذى لف بغطاء حرير من اللونين الأخضر واللبنى أمام محراب الجامع الذى أغلقت أبوابه ،ولم يسمح لأحد بدخوله حتى بدأت صلاة الجنازة فى الساعة العاشرة والنصف صباحا .. حيث اخليت ساحة المسجد مرة أخرى استعدادا لبدء الموكب الجماهيرى ..

لقد كانت الألوف قد أخذت مكانها على طول الطريق المقرر أن تقطعه الجنازة منذ الساعات الأولى من الصباح .. ومع اقتراب الساعة الحادية عشرة المحددة لبدء الجنازة ، كانت كل شوارع القاهرة قد تحولت إلى كتل بشرية ..

وفى السرادق الكبير الذى يتسع لألف شخص بدأ وصول كبار رجال الدولة والمعزين منذ الثامنة والنصف صباحا .. وعلى امتداد أكثر من ساعة بدأ الاعداد لتنظيم سير الجنازة على أساس أن يتقدمها العاملات بشركة اسطوانات صوت القاهرة يتبعهن فرقة موسيقى الأمن المركزى « ١٥٠ عازفا » ثم حملة باقات الزهور الذين بلغ عددهم ٥٢ حامل لباقات الزهور ، ثم جثمان الفنانة الراحلة يتبادل حمله شرطة المطافى ، ويتبع الجثمان كبار رجال الدولة ..

وفى الساعة الحادية عشرة أعطيت اشارة البدء لفرقة موسيقى الأمن المركزى ، فانساب لحنها الجنائزى .. وبدأ تحرك موكب الجنازة من جامع عمر مكرم إلى ميدان التحرير .. ولكن لحظات حين وصل الجثمان إلى ميدان التحرير الذى كان بحرا من البشر حتى بدى أن النظام الذى وضع لسير الجنازة أصبح مستحيلا .. فصدرت تعليمات الأمن إلى الصفوف الأولى من حملة الموسيقى وحملة الورود .. لكن ضغط الناس بلغ أقصاه حين وصل الجثمان إلى ميدان طلعت حرب .. وزاد هدير الجماهير مع التلويح بالمناديل البيضاء .. ونداءات مجنونة « مع السلامة يا ست ».. يا ثومة .. يا صوت الشعب .. يا صوت الخير .. مع السلامة يا عظمة مصر ..

وعند ميدان طلعت حرب ، وكان من المقرر أن يتجه موكب الجنازة يمينا إلى شارع صبرى أبو علم حيث جامع جركس ، وصلت الجماهير إلى الجثمان ورفعته من فوق أكتاف رجال المطافى وأخذت تتبادله واحدا تلو الآخر .. وانساب الموكب الحزين فى طريق آخر غير الذى كان مقرراً له إلى شارع قصر النيل أولا ثم إلى ميدان الأوبرا .. فميدان العتبة .. فميدان الحسين .. ومن ميدان الحسين إلى مدافن الأسرة فى البساتين ..

* * *

● وفاة أم كلثوم فى اذاعات العالم :

بعد أن تناقلت وكالات الأنباء خبر وفاة أم كلثوم .. وبدأت الاذاعات العربية والأجنبية تذيع خبر الوفاة كل لحظة .. بدأ الاعداد فى اذاعات العالم لمتابعة آخر أخبار الجنازة .. فقد حرصت هذه الاذاعات على نقل إذاعة وصف تفصيلى ومطول لهذه الجنازة التاريخية .. التى يصفها بعض المؤرخين بأنها تقارب ما حدث فى جنازة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر .. فقد قال راديو لندن :

ـ لقد رحلت أشهر فنانة فى القرن العشرين .. وقال راديو روما : أن الزمان قل أن يجود بمثل هذا الصوت الذى رحل عن عالمنا .. والذى ظل يغنى مستحوذا خلال نصف قرن على قلوب الملايين وسيظل يتردد بعد وفاتها على مر الزمن .. أما راديو بون فقال : إن الجماهير قامت بدفع الحواجز التى تتبع الشرطة لنقل جثمان أشهر فنانات العالم العربى ..

وفى فرنسا نشرت صحيفة الفيجارو تحقيقا مصورا على صفحة كاملة عن أم كلثوم قالت فيه : إن صوت أم كلثوم كان يثير النشوة فى نفوس مائة مليون عربى من عشاقها .. إن باريس لن تنسى بعد تلك الليلة التى سهرت فيها حتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالى تستمع إلى صوت أم كلثوم فى قاعة مسرح الأوليمبيا وفى جو ملىء بعطر الشرق .. لقد استطاعت أم كلثوم يومها أن تبهر بفنها وصوتها المشاهدين طوال خمس ساعات ..

من ناحية أخرى كان لوفاة أم كلثوم أكبر الأثر فى نفوس الزعماء العرب ، الذين بادر أغلبهم عقب وفاتها ، اما بإرسال برقيات التعازى للرئيس السادات أو بإرسال الوفود للمشاركة فى الجنازة .. فقد بعث الرئيس الحبيب بورقيبة ببرقية تعزية للرئيس السادات فى وفاة أم كلثوم وتبعه غيره من الرؤساء والملوك العرب ..

والسؤال الآن : أين دفنت أم كلثوم .. ونحن قد أوردنا هذا السؤال كى نجيب عليه .. لأن مكان دفن أم كلثوم لن يواجه أى جدل مثلما واجه مكان دفن الزعيم جمال عبد الناصر .. وهل هو ما يزال مدفونا فى المكان الذى أعلن عنه ، وتم توصيل الجثمان إليه .. فى كوبرى القبة .. أم أن الجثمان قد نقل من هناك ..

أما بالنسبة لكوكب الشرق الراحلة أم كلثوم .. فقد أعلنت الصحف أن جسمانها سوف يدفن فى مقابر الأسرة بالبساتين .. ولتأكيد ذلك نقلت الصحف صورة للمدفن وقدمت وصفا دقيقا له .. ففى أعلى المدفن توجد لوحة كبيرة منقوش عليها آية قرآنية .. ثم لوحة أخرى تشير إلى أن هذا المكان هو مدفن أم كلثوم ..

والحوش الذى يقع فيه المدفن مواجه لمدفن الزعيم مصطفى النحاس فى شارع فؤاد سراج الدين المتفرع من شارع الكردى بمنطقة التونسى بحى الإمام الشافعى .

المقبرة بناء حجرى مربع الشكل ارتفاعه أربعة أمتار وفوقه قبة ارتفاعها حوالى مترين .. وللمدفن باب خشبى ضخم خال من النقوش .. ومدخل المقبرة من خارج البناء وله نوافذ زجاجية عالية من زجاج بنى اللون ، ولكى ينير داخل البناء عندما تسقط عليه الشمس .. ويحيط بالمدفن سور الحوش وطوله ٥٠ مترا وعرضه ١٦ مترا

ومساحته ٨٠٠ متر .. ويضم استراحة من حجرتين ودورة مياه وله ثلاثة أبواب حديدية ..

وكانت أم كلثوم قد اشترت الحوش وقامت ببناء هذه المقبرة عام ١٩٤٨ لتدفن فيها والدتها .. ثم دفن فيها شقيقها خالد عام ١٩٥٣ ، وأخيرا ضم المدفن جثمان أم كلثوم إلى الأبد ..

مـــراجع الكتـــاب

(أ) الكتب :

١ ـ جمال عبد الناصر	عبد المنعم شميس
٢ ـ ثورة الضباط الأحرار فى مصر	كوفتونوفيتش
٣ ـ أم كلثوم ـ باللغة الفرنسية	ايزابيل صياح
٤ ـ أم كلثوم التى لا يعرفها أحد	محمود عوض
٥ ـ حروب مصر المعاصرة	اللواء عبد المنعم خليل
٦ ـ شخصيات لا تنسى	مصطفى أمين
٧ ـ الغناء	كمال النجمى
٨ ـ كوكب الشرق أم كلثوم	خليل المصرى ومحمود كامل
٩ ـ حصاد السنين	زكى نجيب محمود
١٠ ـ سنة أولى سجن	مصطفى أمين
١١ ـ عبد الناصر	فتحى رضوان
١٢ ـ جمال عبد الناصر ولغز الموت	فاروق فهمى
١٣ ـ أنور السادات شخصيته وعصره	د . أحمد شلبى

(ب) الدوريات :

١ ـ صحف ومجلات أخبار اليوم
٢ ـ الأهرام
٣ ـ الجمهورية
٤ ـ الأحرار

(جـ) المقابلات شخصية :

البــوم خــاص بكل القصائــد
والأغانـى .. لأم كلثوم
مـن عـام ١٩٢٤ حتـى ١٩٧٢

ملف خاص .. لقصائد
وأغاني أم كلثوم
من عام ١٩٢٤ حتى عام ١٩٧٢

« أكثر من ٢٨٠ أغنية وقصيدة »

القصيدة	المؤلف	الملحن
** عام ١٩٢٤ :		
الصب تفضحه عيونه	أحمد رامي	الشيخ أبو العلا
خايف يكون حبك	أحمد رامي	د. أحمد صبرى النجريدى
قال ايه حلف	أحمد رامي	محمد القصبجي
** عام ١٩٢٦ :		
أقصر فؤادى	أحمد رامي	الشيخ أبو العلا
أراك عصى الدمع	أبى فراس الحمدانى	عبده الحامولى
مثل الغزال	صفى الدين الحلبى	الشيخ أبو العلا
وحقك أنت المنى	عبد الله الشبراوى	الشيخ أبو العلا
يا آسى الحى	اسماعيل صبرى	الشيخ أبو العلا
أحبك وأنت مش دارى	أحمد رامي	محمد القصبجي
البعد طال	أحمد رامي	محمد القصبجي
الخلاعة والدلاعة	بدون	د. أحمد صبرى النجريدى
الفل والورد والياسمين	بدون	د. أحمد صبرى النجريدى
أنا على كيفك	بدون	د. أحمد صبرى النجريدى
زارنى طيفك (مونولوج)	أحمد رامي	محمد القصبجي

القصيــدة	المؤلــف	الملحــن
ان خالى فى هواها عجب	أحمد رامى	محمد القصبجى
أخذت صوتك من روحى	أحمد رامى	محمد القصبجى
يقظة القلب (قصيدة)	أحمد رامى	محمد القصبجى
أيقظت فى عواطفى	أحمد رامى	محمد القصبجى
تبيعينى ليه (طقطوقة)	حسين حلمى المنسترلى	محمد القصبجى
تراعى وتبتسم (طقطوقة)	أحمد رامى	محمد القصبجى
سلام على الحاضرين	بيرم التونسى	محمد القصبجى
زهر الربيع	محمد الأسمر	محمد القصبجى
صحيح خصامك	أحمد رامى	محمد القصبجى
سكت والدمع اتكلم (مونولوج)	أحمد رامى	محمد القصبجى
صدق وحبك (طقطوقة)	أحمد رامى	محمد القصبجى
طلع الفجر ولاح (مونولوج)	بدون	د. أحمد صبرى النجريدى
قلبك غدر بى	أحمد رامى	محمد القصبجى
ما تروق دمك (طقطوقة)	أحمد رامى	محمد القصبجى
تشوف أمورى وتتحقق	أحمد رامى	محمد القصبجى
ولحد أمتى (طقطوقة)	أحمد رامى	محمد القصبجى
كم بعثنا مع النسيم سلاما	ابراهيم حسن	د. أحمد صبرى النجريدى
لى لذة فى ذلتى (قصيدة)	نصر الله ارحاجى	د. أحمد صبرى النجريدى
مالى فتنت بلحظك (قصيدة)	على الجارم	د. أحمد صبرى النجريدى
يا ستى ليه المكايدة	أحمد رامى	د. أحمد صبرى النجريدى
ياللى انت جنبى مونولوج	أحمد رامى	د. أحمد صبرى النجريدى

**** عام ١٩٢٧ :**

الحب كان من سنين (مونولوج)	أحمد رامى	دأحمد صبرى النجريدى
ان يغب عن مصر سعد (قصيدة)	أحمد رامى	محمد القصبجى

القصيـــدة	المؤلـــف	الملحـــن
حبيت ولابانش على (طقطوقه)	أحمد رامى	محمد القصبجى
خلى الدموع	أحمد رامى	محمد القصبجى
**عام ١٩٢٨ :		
أفديه ان حفظ الهوى (قصيدة)	ابن النبيه المصرى	أبو العلا محمد
الزهر فى الروض (أغنية)	أحمد رامى	محمد القصبجى
أمانا أيها القمر المطل	ابن النبيه المصرى	أبو العلا محمد
يا روحى	أحمد رامى	محمد القصبجى
ان كنت أسامح (مونولوج)	أحمد رامى	محمد القصبجى
الشك يحيى الغرام	أحمد رامى	محمد القصبجى
بعدت عنك بخاطرى (مونولوج)	أحمد رامى	محمد القصبجى
على عينى الهجر	أحمد رامى	أم كلثوم
قل للبخيلة (قصيدة)	بدون	الشيخ أبو العلا محمد
خيالك فى المنام (مونولوج)	أحمد رامى	محمد القصبجى
** ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ :		
يصعب على (طقطوقة)	أحمد رامى	محمد القصبجى
أكذب نفسى (قصيدة)	بكر بن النطاح	أبو العلا محمد
البعد علمنى السهر (دور)	أحمد رامى	داود حسنى
الليل أهو طال (موال)	مصطفى بك نجيب	محمد القصبجى
أنت فاكرنى	أحمد رامى	محمد القصبجى
شرف حبيب القلب (دور)	أحمد رامى	داود حسنى
هو ده يخلصك من الله	بديع خيرى	زكريا أحمد
اللى حبك يا هناه	أحمد رامى	زكريا أحمد
غضب عنى	حسين حلمى	زكريا أحمد

القصيدة	المؤلف	الملحن
انت فاكرنى (طقطوقة)	أحمد رامى	محمد القصبجى
جنة نعيمى	أحمد رامى	داود حسنى
جمالك ربنا يزيده	حسن صبحى	زكريا أحمد
حسن الطبع اللى فتنى	كامل الخلعى	داود حسنى
خاصمتنى	أحمد رامى	محمد القصبجى
روحى وروحك	حسين والى	داود حسنى
عينى فيها الدموع (مونولوج)	أحمد رامى	محمد القصبجى
قالوا لى أمتى قلبك ؟	أحمد رامى	زكريا أحمد
قلبى عرف معنى الأشواق (دور)	كامل الخلعى	داود حسنى
كل ما يزداد رضى قلبك (دور)	بدون	داود حسنى
كنت خالى (دور)	كامل الخلعى	داود حسنى
ليه عزيز دمعى	حسن صبحى	زكريا أحمد
محتار يا ناس (طقطوقة)	أحمد رامى	محمد القصبجى
يا عشرة الماضى (مونولوج)	أحمد رامى	محمد القصبجى
يا غائبا عن عينى (مونولوج)	أحمد رامى	محمد القصبجى
يا فايتنى وانا روحى معاك	أحمد رامى	محمد القصبجى
يا فؤادى ايه ينوبك	أحمد رامى	داود حسنى
يا قلبى كان مالك (دور)	يحيى محمد	زكريا أحمد
يالى أنت جنبى (مونولوج)	أحمد رامى	محمد القصبجى
تبيعينى ليه (طقطوقة)	حسين حلمى	محمد القصبجى
يالى جفاك المنام (مونولوج)	أحمد رامى	محمد القصبجى
يالى شغلت البال (طقطوقة)	أحمد رامى	محمد القصبجى
ياما أمر الفراق (مونولوج)	أحمد رامى	زكريا أحمد
يوم الهنا (دور)	أحمد رامى	داود حسنى

القصيـــدة	المؤلـــف	الملحـــن
** من عام ١٩٣٤ ـ ١٩٣٦ :		
ابتسام الزهر (دور)	عمر القاضى	زكريا أحمد
عيد الدهر (قصيدة)	أحمد شوق	رياض السنباطى
على بلد المحبوب (أغنية)	أحمد رامى	زكريا أحمد
يا بشير الأنس غنى	أحمد رامى	زكريا أحمد
امتى الهوى (دور)	يحيى عمر	زكريا أحمد
شجانى نوحى (مونولوج)	أحمد رامى	زكريا أحمد
مين اللى قال ان القمر (دور)	عبد الرحمن فياض	زكريا أحمد
انظرى (مونولوج)	أحمد رامى	محمد القصبجى
أيها الرائح المجد (قصيدة)	الشريف الرضى	زكريا أحمد
فين العيون	أحمد رامى	محمد القصبجى
السوق	أحمد رامى	محمد القصبجى
مناجاة الطائر	أحمد رامى	محمد القصبجى
النافورة	أحمد رامى	محمد القصبجى
حيرانه ليه يا دموعى	أحمد رامى	محمد القصبجى
يا ريتنى كنت النسيم	أحمد رامى	محمد القصبجى
ياللى رعيت العهود	أحمد رامى	محمد القصبجى
ياما فاديت	أحمد رامى	محمد القصبجى
الشرفة (أغنية)	أحمد رامى	زكريا أحمد
يا نسيم الفجر (مونولوج)	أحمد رامى	أم كلثوم
أنشودة الربيع	أحمد رامى	رياض السنباطى
** ١٩٣٧ ـ ١٩٤٠ :		
ميلاد الملك (أغنية)	أحمد رامى	رياض السنباطى

القصيـــدة	المؤلـــف	الملحـــن
اذكريني (مونولوج)	أحمد رامي	رياض السنباطي
يأس وأمل	أحمد رامي	محمد القصبجي
افرح يا قلبي	أحمد رامي	رياض السنباطي
الزهر في الروض	أحمد رامي	محمد القصبجي
بغداد (أنشودة)	أحمد رامي	محمد القصبجي
ماكانش ظني (دور)	يحيى محمد	زكريا أحمد
النوم يداعب (مونولوج)	أحمد رامي	زكريا أحمد
الورد فتح (أغنية)	أحمد رامي	رياض السنباطي
آه يا سلام	حسن صبحي	زكريا أحمد
القصر المهجور (قصيدة)	أحمد رامي	زكريا أحمد
بكره السفر	أحمد رامي	زكريا أحمد
طاب النسيم العليل	أحمد رامي	محمد القصبجي
عادت ليالي الهنا (دور)	أحمد رامي	زكريا أحمد
فاكر لما كنت جنبي(مونولوج)	أحمد رامي	زكريا أحمد
قضيت حياتي (أغنية)	أحمد رامي	رياض السنباطي
لما انت ناوية (طقطوقة)	أحمد رامي	رياض السنباطي
منيت شبابي بالنعيم (أغنية)	أحمد رامي	محمد القصبجي
نامي نامي ياملاكي (أغنية)	أحمد رامي	محمد القصبجي
يا بهجة العيد السعيد (أغنية)	أحمد رامي	محمد القصبجي
يا شباب النيل (نشيد)	أحمد رامي	رياض السنباطي
يا فؤادي غني ألحان الوفاء (أغنية)	أحمد رامي	محمد القصبجي
ياللي جفيت ارحم حالي (طقطوقة)	أحمد رامي	محمد القصبجي
ياللي صنعت الجميل (أغنية)	أحمد رامي	محمد القصبجي
مادام تحب بتنكر ليه (طقطوقة)	أحمد رامي	محمد القصبجي
يا ليلة العيد أنستينا (أغنية)	أحمد رامي	رياض السنباطي
حرمت أقول (طقطوقة)	أحمد رامي	محمد القصبجي

القصيـــدة	المؤلـــف	الملحـــن
يا مجد ياما اشتهيتك	أحمد رامى	محمد القصبجى
يا نجم مالك حيران (مونولوج)	أحمد رامى	محمد القصبجى
ينوبك إيه (طقطوقة)	على شكرى	محمد القصبجى
** ١٩٤١ ـ ١٩٤٥ :		
القطن فتح (أغنية)	أحمد رامى	زكريا أحمد
أنا فى انتظارك (أغنية)	بيرم التونسى	زكريا أحمد
أنا كنت أحب الشكوى (أغنية)	أحمد رامى	زكريا أحمد
أنا وأنت (أغنية)	بيرم التونسى	زكريا أحمد
أهل الهوى (أغنية)	بيرم التونسى	زكريا أحمد
آه من لقاك (أغنية)	بيرم التونسى	زكريا أحمد
أوبريت عايدة (الفصل الأول)	أحمد رامى	محمد القصبجى
أوبريت عايدة (الفصل الثانى)	أحمد رامى	رياض السنباطى
إيه أسمى الحب (أغنية)	بيرم التونسى	زكريا أحمد
برضاك ياخالقى (موال)	بيرم التونسى	زكريا أحمد
حبيت ولا بنش على (طقطوقة)	أحمد رامى	زكريا أحمد
فضل لى إيه (موال)	أحمد رامى	زكريا أحمد
رق الحبيب	أحمد رامى	محمد القصبجى
زهر الربيع	محمد الأسمر	زكريا أحمد
الورد فتح والياسمين	أحمد رامى	زكريا أحمد
سلام الله	بيرم التونسى	زكريا أحمد
أكتب لى	بيرم التونسى	زكريا أحمد
عينى يا عينى	بيرم التونسى	زكريا أحمد
يا فرحة الأحباب	أحمد رامى	زكريا أحمد
حبيبى يسبعد أوقاته	بيرم التونسى	زكريا أحمد

القصيدة	المؤلف	الملحن
غنى لى شوى (طقطوقة)	بيرم التونسى	زكريا أحمد
الأوله فى الغرام (أغنية)	بيرم التونسى	زكريا أحمد
فى نور محياك (أغنية)	بيرم التونسى	زكريا أحمد
قولى ولا تخبيش يا زين	بيرم التونسى	زكريا أحمد
قولى لطيفك	العاصى عبد الوهاب	زكريا أحمد
عطف حبيبى وهنانى	أحمد رامى	محمد القصبجى
فاكر لما كنت جنبى	أحمد رامى	زكريا أحمد
غنى الربيع	أحمد رامى	زكريا أحمد
فين ياليالى الهنا (موال)	أحمد رامى	زكريا أحمد
قالوا أحب	على أحمد باكثير	رياض السنباطى
كل الأحبة اثنين	بيرم التونسى	زكريا أحمد
كيف مرت على هواك	أحمد رامى	رياض السنباطى
لاح نور الفجر	أحمد رامى	محمد القصبجى
يافرحة الأحباب (أغنية)	أحمد رامى	زكريا أحمد
يا قلبى بكره السفر (مونولوج)	أحمد رامى	محمد القصبجى

** ١٩٤٦ ـ ١٩٥٠ :

أصون كرامتى (قصيدة)	أحمد رامى	رياض السنباطى
الأمــل (أغنيــة)	بيرم التونسى	زكريا أحمد
جمال الدنيا	أحمد رامى	زكريا أحمد
حلــم (أغنيــة)	بيرم التونسى	زكريا أحمد
نصرة قوية	بيرم التونسى	زكريا أحمد
لغة الزهور	بيرم التونسى	زكريا أحمد
ياللى اتحرمت الحنان	بيرم التونسى	محمد القصبجى
نورك يا ست الكل (أغنية)	بيرم التونسى	محمد القصبجى
يا صباح الخير (أغنية)	بيرم التونسى	محمد القصبجى

القصيـــدة	المؤلـــف	الملحــــن
ليه عزيز دمعي تذله (طقطوقة)	حسن صبحي	زكريا أحمد
ح أقابله بكره	أحمد رامي	رياض السنباطي
نهج البردة	أحمد شوقي	رياض السنباطي
سلوا قلبي	أحمد شوقي	رياض السنباطي
سلوا كؤوس الطلا	أحمد شوقي	رياض السنباطي
ظلموني الناس	بيرم التونسي	رياض السنباطي
غلبت أصالح	أحمد رامي	رياض السنباطي
هلت ليالي القمر	أحمد رامي	رياض السنباطي
السودان	أحمد شوقي	رياض السنباطي
ولد الهدى	أحمد شوقي	رياض السنباطي
يا طول عذابي	أحمد رامي	رياض السنباطي
بين عهدين	أحمد رامي	رياض السنباطي
النيل	أحمد شوقي	رياض السنباطي
ياللى كان يشجيك أنيني	أحمد رامي	رياض السنباطي
رباعيات الخيام (قصيدة)	أحمد رامي	رياض السنباطي
سهران لوحدى	أحمد رامي	رياض السنباطي

** ١٩٥١ ـ ١٩٥٦ :

« القصائد الوطنية التى غنتها بعد ثورة يوليو »

مصر تتحدث عن نفسها	حافظ إبراهيم	رياض السنباطي
يا ظالمنى (مونولوج)	أحمد رامي	رياض السنباطي
جددت حبك ليه (أغنية)	أحمد رامي	رياض السنباطي
صوت بلدنا	عبد الفتاح مصطفى	رياض السنباطي
صوت الوطن (نشيد)	أحمد رامي	محمد الموجي

القصيـــدة	المؤلـــف	الملحـــن
علاك يا مصرى(أغنية)	صلاح جاهين	محمد الموجى
أغار من نسمة الجنوب	أحمد رامى	رياض السنباطى
أنشودة الجلاء	أحمد رامى	رياض السنباطى
بأبى وروحى	أحمد رامى	رياض السنباطى
يا سلام على الأمة أغنية	عبد الفتاح مصطفى	رياض السنباطى
عرفت الهوى	طاهر أبو فاشا	رياض السنباطى
لغيرك ما مددت يدا	طاهر أبو فاشا	رياض السنباطى
على عينى بكت عينى	طاهر أبو فاشا	رياض السنباطى
والله زمان يا سلاحى	صلاح جاهين	كمال الطويل
يا صحبة الروح	طاهر أبو فاشا	رياض السنباطى
للصبر حدود	عبد الوهاب محمد	محمد الموجى
قصة حبى (أغنية)	أحمد رامى	رياض السنباطى
اسأل روحك (أغنية)	عبد الوهاب محمد	رياض السنباطى
الصباح الجديد (أغنية)	محمود حسن اسماعيل	رياض السنباطى
حانت الأقدار	طاهر أبو فاشا	محمد الموجى
الله معك (نشيد)	صلاح جاهين	رياض السنباطى
صوت السلام	بيرم التونسى	رياض السنباطى
أوقدوا الشموس	طاهر أبو فاشا	رياض السنباطى

**** من ١٩٥٧ حتى ١٩٦٠ :**

ح سيبك للزمن.	عبد الوهاب محمد	رياض السنباطى
الفجر الجديد	محمد الماحى	رياض السنباطى
أروح لمين	عبد المنعم السباعى	رياض السنباطى
قصة الأمس (قصيدة)	أحمد فتحى	رياض السنباطى
بطل السلام	بيرم التونسى	رياض السنباطى
انا فدائيون (نشيد)	عبد الفتاح مصطفى	بليغ حمدى

القصيـــدة	المؤلـــف	الملحـــن
بعد الصبر ماطال (أغنية)	عبد الفتاح مصطفى	رياض السنباطى
بغـــداد (نشيد)	محمود حسن إسماعيل	رياض السنباطى
حب إيه (أغنية)	عبد الوهاب محمد	بليغ حمدى
شمس الأصيل	بيرم التونسى	رياض السنباطى
عودت عينى	أحمد رامى	رياض السنباطى
دليلى احتار	أحمد رامى	رياض السنباطى
منصورة يا ثورة الأحرار	عبد الفتاح مصطفى	رياض السنباطى
الجيش	طاهر أبو فاشا	رياض السنباطى
هجرتك	أحمد رامى	رياض السنباطى
قصة السد	عزيز أباظة	رياض السنباطى
يادارنا يا دار « أغنية خاصة بالكويت »	أحمد العدوانى	رياض السنباطى

** ١٩٦١ ـ ١٩٧٢ :

القصيـــدة	المؤلـــف	الملحـــن
الحب كده (أغنية)	بيرم التونسى	رياض السنباطى
ثوار (أغنية وطنية)	عبد الفتاح مصطفى	رياض السنباطى
حيرت قلبى	أحمد رامى	رياض السنباطى
ثورة الشك	الأمير عبد الله الفيصل	رياض السنباطى
توبة (قصيدة)	عبد الفتاح مصطفى	رياض السنباطى
أرض الجدود	أحمد العدوانى	رياض السنباطى
الزعيم والثورة	عبد الفتاح مصطفى	رياض السنباطى
بالسلام والمحبة (أغنية وطنية)	بيرم التونسى	رياض السنباطى
لســه فاكــر (أغنية)	عبد الفتاح مصطفى	رياض السنباطى
يا جمال يامثال الوطنيـــة (غنتها مرتين الأولى عام ١٩٥٤ ثم المرة الثانيـــة عام ١٩٦٣)		

القصيـــدة	المؤلـــف	الملحـــن
إلى عرفات الله	أحمد شوقى	رياض السنباطى
تحويل النيل (أغنية)	عبد الوهاب محمد	رياض السنباطى
لا يا حبيبى	عبد الفتاح مصطفى	رياض السنباطى
يا ربا الفيحاء	محمود حسن إسماعيل	رياض السنباطى
يا حبنا الكبير	عبد الفتاح مصطفى	رياض السنباطى
الأطـــلال (قصيدة)	د . إبراهيم ناجى	رياض السنباطى
حديث الروح (قصيدة)	محمد إقبال	رياض السنباطى
طوف وشوف	عبد الفتاح مصطفى	رياض السنباطى
كل ليلة وكل يوم	مأمون الشناوى	بليغ حمدى
حبيب الشعب	صالح جودت	رياض السنباطى
قوم بإيمان (نشيد)	عبد الوهاب محمد	رياض السنباطى
مصـــــر (قصيدة)	د . إبراهيم ناجى	رياض السنباطى
أقبل الليل (قصيدة)	أحمد رامى	رياض السنباطى
رســالــة (قصيدة)	نزار قبانى	رياض السنباطى
أنا وانت ظلمنا الحب	عبد الوهاب محمد	بليغ حمدى
من أجل عينيك	الأمير عبد الله الفيصل	رياض السنباطى
أنت عمرى (أغنية)	أحمد شفيق كامل	محمد عبد الوهاب
دعانى لبيته	بيرم التونسى	رياض السنباطى
الثلاثية المقدسة (قصيدة)	صالح جودت	رياض السنباطى
سيرة الحب (أغنية)	مرسى جميل عزيز	بليغ حمدى
بعيد عنك (أغنية)	مأمون الشناوى	بليغ حمدى
فات الميعاد (أغنية)	مرسى جميل عزيز	بليغ حمدى
الف ليلة وليلة	مرسى جميل عزيز	بليغ حمدى
الحب كله (أغنية)	أحمد شفيق كامل	بليغ حمدى
حكم علينا الهوى	عبد الوهاب محمد	بليغ حمدى
أمل حياتى (أغنية)	أحمد شفيق كامل	محمد عبد الوهاب

القصيــدة	المؤلــف	الملحــن
فكرونى (أغنية)	عبد الوهاب محمد	محمد عبد الوهاب
انت الحب	أحمد رامى	محمد عبد الوهاب
على باب مصر	كامل الشناوى	محمد عبد الوهاب
هذه ليلتى (قصيدة)	جورج جرداق	محمد عبد الوهاب
طريق واحد	نزار قبانى	محمد عبد الوهاب
ودارت الأيام (أغنية)	مأمون الشناوى	محمد عبد الوهاب
أغدا ألقاك (قصيدة)	الهادى آدم	محمد عبد الوهاب
ليلة حب (أغنية)	أحمد شفيق كامل	محمد عبد الوهاب
يا مسهرنى	أحمد رامى	سيد مكاوى

البوم صور يضم أم كلثوم وعبد الناصر



● كوكب الشرق ام كلثوم تتوسط رجال القوات المسلحة العائدون من حصار الفالوجا .. وبجوارها الضبع الأسود سيد طه .. وكان جمال عبد الناصر ضمن هذه المجموعة ولكنه لم يظهر فى الصورة !! ●



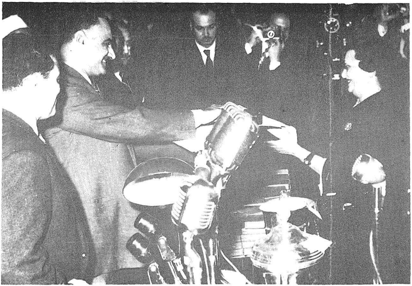
● كوكب الشرق أم كلثوم ــ مع الكاتب الصحفى مصطفى أمين ــ فى لقاء مرح ●



● جمال عبد الناصر مع مجموعة من رجال الدولة .. فى إحدى حفلات ام كلثوم .. وليلة الخميس ●



● جمال عبد الناصر ـ ولقاء خاص مع كوكب الشرق وفرقتها الموسيقية ـ بعد الانتهاء من احدى البروفات ●



الرئيس جمال عبد الناصر ــ يسلم أم كلثوم وسام الجمهورية من الطبقة الأولى عام ١٩٦٥



● الزعيم جمال عبد الناصر يقلد ام كلثوم وشاح النيل عام ١٩٦٠
وبجوارها الفنان محمد عبد الوهاب ●



● كوكب الشرق أم كلثوم .. تسلم على جمال عبد الناصر بعد تسلمها الوشاح عام ١٩٦٠ ●



● كوكب الشرق أم كلثوم وبجوارها محمد عبد الوهاب وخلفهما
جمال عبد الناصر ــ بعد تسلمهما الوسام عام ١٩٦٥ ●



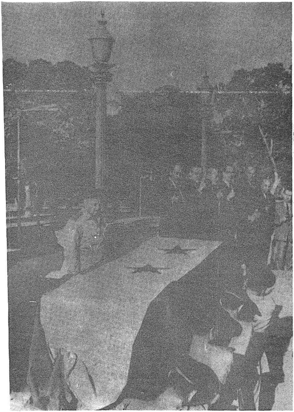
● الكاتب الصحفى محمد حسنين هيكل يودع كوكب الشرق ام كلثوم ــ بعد لقاء صحفى وفنى ●



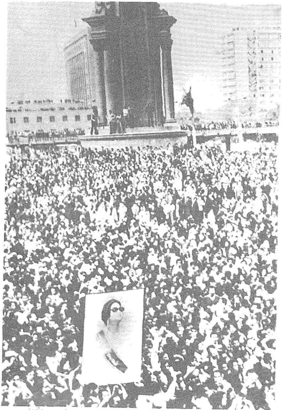
● كوكب الشرق أم كلثوم مع المهندس عثمان أحمد عثمان والمرحوم حمدى عاشور محافظ القاهرة الأسبق .. وحوار حول مشروع الخير ●



● السيدة جيهان السادات فى زيارة خاصة لأم كلثوم ●



● جثمان الرئيس جمال عبد الناصر ملفوفا بعلم مصر داخل قصر القبة
ـــ وأعضاء الحكومة يترحمون عليه ●



● ملايين المصريين التفوا حول جثمان كوكب الشرق والصورة لآلاف من هذه الجموع الغفيرة فى ميدان التحرير بالقرب من مسجد عمر مكرم ●



● السيدة حرم الرئيس جمال عبد الناصر .. تقدم عزاء إسرتها فى وفاة أم كلثوم ●



هـــذا الكتـــاب

كلمات يسطرها الكاتب الصحفى حنفى المحلاوى على جدران الزمن .. مستعيناً بمواد التاريخ الحيوية .. يغوص بقلمه فى أعماق نفوس الزعماء ، يقترب كثيراً أو قليلا من عالم هذه الزعامة فى مجالها السياسى عند جمال عبد الناصر .. وفى مجالها الفنى عند كوكب الشرق أم كلثوم .

ويحاول المؤلف من خلال كلماته فوق هذه الأوراق . أن يجيب عن أكثر من سؤال ، ويضع إجابات وافية للعديد من علامات الاستفهام التى دارت وتدور فى أذهان الكثيرين منا ..

نذكر منها على سـبيل المثـال :

- هل تعرف عبد الناصر على كوكب الشرق قبل ٢٣ يوليو ؟!
- لماذا سارعت أم كلثوم بتأييد الثورة .. وقطعت إجازتها السنوية — وتوجهت بسيارتها فورا إلى مجلس قيادة الثورة ؟!
- هل غنت أم كلثوم بأمر عسكرى من عبد الناصر .. بعد حادث المنشية ؟
- لماذا لجأ عبد الناصر وأسرته إلى فيلا أم كلثوم بالزمالك أثناء عدوان عام ١٩٥٦
- هل قررت أم كلثوم اعتزال الفن بعد موت عبد الناصر ؟! .
- سر غموض العلاقة بين أم كلثوم والرئيس السادات وزوجته ؟!

الناشــر